

أوروبا في بحر الظلمات

دكتور
اسحق عبید

تقديم
د. حياة ناصر الحجي



أوربا فى بحر الظلمات

دكتور
إسحق عبيد

تقديم
د. حياة ناصر الحجى

دار القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أوروبا في بحر الظلمات

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

مدينةً التَّيْبَرُ
اغْتَالَتْ الْقَيْصَرُ
اليَوْمَ تَنْعَى فِي الْقَهَا
تَحْتَ حَوَافِرِ الْبَرِيرِ

الْكَلْتُ هَبْتُ مِنْ مَنِيَّتِهَا
وَجَاءَتْ الْغَالُ تَثَارُ
ذُنَابُ الْقَوِطِ مَخْمَةُ
بَذِيحَةِ الْكَاهِنِ الْأَكْبَرِ

دِيدُو فِي قَرْطَاجِ تَبْكِي
وَاَيْتِيَّاسُ فِي الْأَكْفَانِ يَجَارُ
أَبُولُورُ! أَيْنَ أَنْتِ
وَأَيْنَ صَوَاعِقُ جُوبِيَّتِر!

محتويات الكتاب

٩

مقدمة

تقديم ... للأستاذة الدكتورة / حياة ناصر الحجى أستاذة تاريخ العصور
الوسطى بجامعة الكويت .

١١

الفصل الأول : وداعاً للسلام الرومانى

الامبراطورية الرومانية فى مهب الريح - روح العصر من آداب العصر - لماذا
سقطت روما - عوامل إنهيار وسقوط الحضارات .

٢٥

الفصل الثانى : عالم متبربر

هجرات الشعوب المتبربرة - الهون - القوط - الوندال - صورة لروح العصر من
آداب العصر .

٦١

الفصل الثالث : بقايا الحطام

الفرنجة - الكارولنجيون وبعث الامبراطورية الرومانية من الأكفان - المزيج
الجرمانى - الرومان الجديد .

٨٩

الفصل الرابع : القيصر والكاهن

الصراع بين السلطتين الزمنية والدينية - النظرية البابوية والنظرية
الامبراطورية - مشاهد وأحداث .

١١٩

الفصل الخامس : السادة والعبيد

الهرم الإقطاعى - الجذور الرومانية والجرمانية للإقطاع - عالم الأقنان - ثورات

الفصل السادس : جحيم العصور الوسطى

الفكر المخالف - تعاليم الأَطهار - قيام محاكم التفتيش - صور من قمع محاكم

التفتيش فى مختلف البلدان الأوربية - رواد الإصلاح : جون ويكليف - جون

هس - سافونا رولا - مارتن لوثر .

الهوامش

*** **

مقدمة

يعالج هذا العمل أحوال أوروبا في العصور الوسطى في الفترة التي امتدت من القرن الرابع حتى القرن الخامس عشر للميلاد . وهي الحقبة الزمنية التي يطلق عليها الكتاب عادة « عصور الظلام » . وفي هذه المعالجة لا نهتم كثيراً بتفاصيل الأحداث واللهث وراء الوقائع والتواريخ بقدر محاولة رسم صورة لروح العصر من خلال سماته العامة ونظمه التي أقيمت على بقايا الحطام بعد أن سقطت مدينة روما تحت حوافر خيول المتبربرين من مغول وجرمان ، مع وقفة عند عوامل انهيار وسقوط الحضارات بصفة عامة والحضارة الرومانية على وجه الخصوص . وسوف يتضح من البحث أن روما كانت قد سقطت بالفعل من الداخل قبل أن يصل الجرمان إلى مسرح الأحداث لإعلان سقوطها الرسمي سنة ٤١٠ م . ثم ننتقل بعد ذلك لرصد الجهود التي بذلت لإلتقاط مابقي من حطام روماني وبعثه من الأكفان وذلك على أيدي قبيلة جرمانية هي جماعة الفرنجة بدءاً بكلوفس ووصولاً إلى شرلمان ، الذي أقام بنياناً جرمانياً - رومانياً كان بمثابة النواة الأولى للخريطة الأوروبية فيما تلا من تاريخ .

ونعرض في هذا الكتاب أيضاً لقضية الصراع العنيف الذي احتدم بين السلطان البابوي ممثلاً في الكاهن الأكبر للغرب اللاتيني وبين الامبراطورية المتجددة ممثلة في خلفاء شرلمان ، والتي أطلق عليها أصحابها اسم « الامبراطورية الرومانية المقدسة » ، والتي لم تكن في الواقع رومانية ولا مقدسة . ثم نلقى نظرة فاحصة على

الهرم الإقطاعى فى أوربا بحثاً عن جذوره الرومانية والجرمانية ، وتحليلاً لطبقاته الثلاث الضاغطة على قاعدة الهرم البائسة من الأقنان وهم السواد الأعظم الذين تحولوا من أحرار إلى عبيد للأرض فى القرى ... والكفور والنجوع ، ووصولاً إلى ثورات الأقنان فى كل من فلاندرز وفرنسا وإنجلترا فى القرن الرابع عشر .

وأخيراً نعالج الأفكار والتعاليم التى تبنتها فئات من مختلف البلدان الأوروبية من طبقات الكادحين والمعدمين والبسطاء ومن أوساط النابهين من رجال الدين ، وهم الذين دمغتهم الدوائر الدينية والعلمانية بالهرطقة حيناً ، والأطهار ، حيناً آخر . ولقمع الأطهار أقامت الكنيسة الرومانية محاكم التفتيش التى مارست أساليب بشعة من القمع بالحديد والنار للقضاء على أصحاب الفكر المخالف أو « المهرطق » حسب لغة العصر . وينتهى الخطاب بعرض لرواد الإصلاح فى أوربا الذين قبلوا التحدى بدءاً بجون ويكلف ومروراً بجون هس وسافونا رولا ووصولاً إلى مارتن لوثر . وهؤلاء جميعاً هم الذين بشروا بغروب شمس العصور الوسطى وقرب انبلاج فجر عصر النهضة .

وأود الإشارة فى هذا المقام إلى أننى قد استعنت فى أكثر من موضع بمؤلفاتى السابقة حول موضوعات متفرقة وجزئية - يرد ذكرها فى الهوامش - لإخراج هذه الصورة المتكاملة لأوربا فى بحر الظلمات ، بدءاً بانتهاء الامبراطورية الرومانية فى القرن الرابع ووصولاً إلى حركة الإصلاح الدينى فى أوائل القرن السادس عشر .

*** **

تقديم

الدكتورة حياة ناصر الحبسى
أستاذة تاريخ العصور الوسطى
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة الكويت

تنتهج الدراسات التاريخية فى العقود الأخيرة من القرن الحالى منهجاً جديداً فى البحث العلمى التاريخى بحيث تعتمد فى موضوعها على ما يتصل بالحضارة الإنسانية بجميع صورها ، وفى معالجتها على جزئيات تلك الحضارة وتفصيلها ، وفى منهجها على التحليل التاريخى ، وفى أسلوبها على التفسير المنطقى . ومن هذا المنطلق يظهر لنا سقوط روما Roma عام ٤٧٦ م ضخماً فى واقعه ، متشعباً فى أسبابه ، شاملاً فى نتائجه .

يقول البارى عز وجل فى كتابه الكريم :

﴿ إِنْ اللَّه لَا يَغِير مَا يَقُوم حَتَّى يَغِيرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾^(١) صدق الله العظيم .

وقال سيدنا عيسى عليه السلام : « إِنْ مَدِينَتِي لَيْسَتْ فِي هَذَا الْعَالَمِ »^(٢) .

فهل كان سقوط روما إنذاراً لشعوب القرن الخامس الميلادى بأن الخلود فى الآخرة ، وأن الامبراطورية الرومانية Roman Empire على عظمتها ، واتساع

(١) الآية ١١ : سورة الرعد .

(٢) اعتمد القديس أوغسطين Augustine of Hippo فى كتابه « مدينة الله » De Civitate Dei على هذه المقولة .

أرجائها ، وامتداد رقعتها انتهت بالسقوط ؟ سنجد الإجابة عن هذه التساؤلات فى بداية هذا الكتاب القيم الذى يقدمه الأستاذ الدكتور إسحق عبيد لمن يطلب العلم رغبة فى الوصول إلى الحقيقة .

وربما يعتبر سقوط روما Roma حدثاً صغيراً فى واقعه العسكرية ، إلا أنه ضخم فى أسبابه ونتائجه ، خطير فيما تلاه من متغيرات تاريخية وحضارية غيرت الصورة الحضارية ، والتركيبية البشرية لعالم أوروبا العصور الوسطى .

يقول المؤرخ الكبير إدوارد جيبون Edward Gibbon فى كتابه «إضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية» " The Decline and the Fall of the Roman Empire" إن الإمبراطورية الرومانية Roman Empire كان يمكن أن تستمر حتى القرن العاشر الميلادى لولا قدوم الجرمان . وبذا يشمل سقوط روما Roma ذلك العدوان البربرى الذى شمل كافة ولايات القسم الغربى من الإمبراطورية الرومانية . ومن ثم اعتبر جيبون Gibbon الحقبة التالية لسقوط الإمبراطورية الرومانية مرحلة من الانحدار البربرى الذى هبأ الفرصة للتفوق الكنسى .

ولعل السؤال الذى يطرحه الدكتور إسحق عبيد لماذا سقطت الإمبراطورية ؟ يوضح أهمية هذا الحدث . من المؤكد أن ذلك الحدث لم يخطر على بال أحد فى بدايات القرن الأول الميلادى !! أو بالأحرى كيف سقطت الإمبراطورية الرومانية Roman Empire وهى التى جمعت بين حدودها مراكز الأدب ، ومواقع الانتصارات العسكرية ؟ يبدأ الدكتور إسحق عبيد كتابه مع عهد أوكتافيان أغسطس Augustus الذى كان وراء الطمأنينة الاجتماعية وإزدهار

الفنون والآداب ، وسلامة الحدود من الضغوط الجرمانية . وبذلك كان أوكتافيان أغسطس أول الأباطرة Pontifex Maximus العظماء الذين أسهموا فيما يسمى بنهضة الإمبراطورية الرومانية فى عصرها الذهبى The Golden Age فى القرنين الأول والثانى للميلاد . وقد سجل المؤرخ إدوارد جيبون ward Gibbon فى كتابه الآنف الذكر الكثير من مظاهر الازدهار الفنى والأدبى والفكرى حتى لتعتبر قراءة تلك الصفحات من ذلك الكتاب التاريخى متعة فكرية لا حدود لها ، وتعبر فى الوقت ذاته عن أجمل فترات التاريخ الإمبراطورى الرومانى . ويكفى دليلاً على عظمة الإمبراطورية أنها ضمت بين حدودها شعوباً اختلفت فى أعراقها ، ولغاتها ، وأديانها ، وتقاليدها ، ومع ذلك لم تحس تلك الشعوب إبان عظمة الإمبراطورية بالنفور من الحكم الأجنبى ، ولكن تلك العظمة بدأت تتلاشى مع توقف الفتوحات العسكرية ، وتتململ الطبقات الاجتماعية التى لم تعد قادرة على تأمين الطمأنينة النفسية لتلك الشعوب حتى أولئك الذين قطنوا الولايات القريبة من إيطاليا والبلقان .

وهنا تظهر أهمية المنهج الذى اتبعه الدكتور إسحق عبيد فى كتابه هذا من خلال اهتمامه بالجزئيات التى أغفلها المؤرخ العربى فى العقود السابقة ، بينما أولاهها المؤرخ الأجنبى عناية خاصة فى الفحص والتحليل .

إن هذه الجزئيات التى تضمنتها التفاعلات الاجتماعية هى التى شكلت واقع المجتمع الرومانى ، وبالتالي كانت محوراً أساسياً فى سقوط الإمبراطورية الرومانية Roman Empire ، وهو الأمر الذى كان بعيداً بل مستحيلاً فى القرنين الأول والثانى للميلاد . لقد بدأ سقوط الإمبراطورية من الداخل تدريجياً ، فلما حل القرن الرابع الميلادى فى عقود المتأخرة كانت أشبه ما يكون بالطل

مدوياً فى إيقاعه ، فارغاً فى جوفه .

ويعدد الدكتور إسحق عبيد فى كتابه هذا الكثير من الأسباب الداخلية التى أسهمت إسهاماً رئيسياً ومباشراً فى سقوط الإمبراطورية الرومانية ، وهى العبودية Slavery فى أفظع صورها وأقسى أشكالها ، وانهيار دولة المدينة ، وأزمة الأخلاقيات التى أدت إلى سقوط المواطن الرومانى المترف ، واللهث وراء مظاهر الترف ، وتفشى الشهوات المادية بكافة أشكالها ، والإسراف فى الصرف على الملذات وصور البذخ المفرط ، مع تمتع الرومان بكل شئ وحرمان الشعوب المحكومة من جميع الأشياء حتى أبسطها وأكثرها ضرورة ، كل هذا مع عدم عدالة النظام الضرائبى ، وفشل كبار الأباطرة المصلحين من أمثال قسطنطين Costantine فى وضع برنامج ضرائبى يتناسب مع دخل الأفراد فى جميع الطبقات ، فساهم بشكل غير مباشر فى ضياع الحرية الفردية والفكرية معاً . وفى ظلمات هذا الإنهيار الاجتماعى والأخلاقى والاقتصادى ظهرت المسيحية Christianity تدعو إلى أجمل المبادئ وأبسطها ، فكان الإقبال عليها كثيفاً فى مراحلها السرية الأولى بين الطبقات الدنيا ، ثم مراحلها العلنية بين الطبقات الأرستقراطية الغنية . ولم يستطع نيرون فى حريق روما المتعمد عام ٦٤ م ، ولا دقلديانوس Diocletian فى سنوات عصر الشهداء فى الأعوام الثمانية الأخيرة من حكمه ٢٩٧ - ٣٠٥ م أن يقضى بأعماله الوحشية على المسيحيين أو يجمع تلك المبادئ الإنسانية التى كان المجتمع الرومانى متعطشاً لها ، فكان مرسوم ميلان عام ٣١٣ م هو الحل الأفضل لا من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية - حلم المسيحيين - ولكن لعدم القدرة على مواجهة هذا المد القوى

بمبادئه وأتباعه . لقد حاول الدكتور إسحق عبيد فى الفصل الأول من هذا الكتاب أن يعطى صورة متكاملة عن المجريات الداخلية فى الإمبراطورية الرومانية، ونجح إلى درجة نجد فيها هذه الصورة تكاد تكون ناطقة بمنهجه التحليلي وأسلوبه الأدبي.

وفى الفصل الثانى يعالج الدكتور إسحق عبيد موضوع الهجمات البربرية ضد الإمبراطورية الرومانية Roman Empire متتبعا تحركاتها باتجاه حدودها منذ العقود الخمسة قبل الميلاد ، مغطياً بذلك مراحلها الثلاث فى التوغل داخل الإمبراطورية ، من مرحلة الضغط على الحدود الشمالية إلى مرحلة الهجوم والفرار ، وأخيراً مرحلة الإعتداء ثم الاستقرار . وقد استغرقت هذه المراحل الثلاث أربعة قرون حتى وقعت هزيمة الجيش الرومانى عام ٣٧٦ م فى موقعة « أدرنة » أمام جحافل القوط ، ومقتل الإمبراطور فالنس Valens . وهنا يظهر تغيير واضح فى العلاقات الرومانية - البربرية حيث نجد لأول مرة إمبراطوراً رومانياً كبيراً يعقد تعاهداً مع جماعة بربرية ، وهو الأمر الذى لم يكن يخطر على بال أحد من أباطرة القرن الأول أو الثانى الميلادى .

يعتبر اتفاق الإمبراطور ثيودسيوس Theodosius مع القوط نقطة تحول كبيرة فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، ومنعطفاً خطيراً فى تاريخ التحركات الجرمانية . وربما يكون ثيودسيوس قد أراد أن يخفف من ردة الفعل الشديدة فى القسطنطينية Constantinople نحو هذا الاتفاق ، فأصدر مرسومه الإمبراطورى عام ٣٩٥ م بأن المسيحية هى الديانة الرسمية الوحيدة فى الإمبراطورية الرومانية ، وبذلك ألغى فيما عداها من وثنيات على اختلاف أنواعها .

ولكن دخول القوط بزعامة ألاك Alaric مدينة روما كان كارثة زعزعت إيمان الكثيرين ممن اعتنقوا المسيحية حديثاً ، إذ كيف يصدق من يعيش فى تلك المدينة الكلاسيكية المقدسة أن تكون مدخلاً سهلاً لأولئك البرابرة ، فيعبثون بكنوزها الجميلة ، وقصورها البديعة . وبعد دخول القوط الوحشى هذا لمدينة روما عام ٤١٠ م ، أول كارثة عسكرية ترتعد لها منتزهات المدينة وشوارعها حيث اختلطت الزهور بالدماء ، وانصهرت الفضة تحت ألسنة النيران .

ثم جاء الحصار الهونى بقيادة أتिला Attila فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، وارتياح المدينة بين خوف المواطنين ، واستعدادات القائد ستيلكو للدفاع عنها ، ولكن الوفد البابوى نجح بفديته الثمينة أن يرد أتिला Attila والهون المتوحشين إلى ولاية بانونيا حيث توفى أتिला وهو فى الطريق إليها عام ٤٥٣ م . وأخيراً حلت الكارثة الحضارية القاسية بدخول الوندال Vandals إلى روما حيث لم تنفع كنوز كاتدرائية القديس بطرس ST. Peter Church فى إخراجه من هذه المدينة التاريخية رافة بأهلها ، ومعابدها ، وقصورها .

ومن جانب آخر عجزت السلطة الإمبراطورية عن هزيمة الوندال فى شمال أفريقيا حتى وفاة زعيمهم جنزريك Genseric عام ٤٧٧ م . وبعد ذلك نجح الإمبراطور الشرقى جستنيان Justinian فى وضع الخطة العسكرية المناسبة لهزيمة الوندال ، فانتصر عليهم قائده بلزاريوس عام ٥٣٣ م . وبهذا العرض المتكامل يكون الدكتور إسحق عبيد قد أعطى القارئ عرضاً متكاملًا للمحنة العسكرية بين حضارتين متناقضتين فى جميع النواحي ، موضعاً فى الوقت

ذاته نتائج ذلك الاحتكاك الحربى أحياناً ، والدبلوماسية أحياناً أخرى ، مسهباً فى تفسير أسباب تلك التنقلات السريعة للجحافل البربرية عبر الولايات الرومانية . كما نجح فى إبراز كل ذلك بأسلوب بسيط لا يعجز القارئ إطلاقاً عن فهمه واستيعاب ما وراءه .

أما نتائج ذلك الاحتكاك البشرى فقد أفرد لها فصلاً مستقلاً وهو الفصل الثالث الذى يعالج فيه ولادة الإمبراطورية الكارولنجية وتبويب شارلمان عام ٨٠٠م كأول إمبراطور جرمانى فى أوروبا العصور الوسطى . ترجع الجذور التاريخية لهذه الإمبراطورية إلى كلوفس Clovis زعيم الفرنجة ، وانتصاره على الرومان فى «غاليا» ، ثم هزيمته للقبائل الجرمانية الأخرى حتى أقام كياناً سياسياً كبيراً ضم كافة أنحاء «غاليا» ، فكأنه بهذا وضع القاعدة المكانية للإمبراطورية الكارولنجية ، فلما ظهر كارل مارتل قائد الفرنجة فى موقعة «تور – بواتيه» أو «بلاط الشهداء» وضع الأسس السياسية التى اعتمد عليها شارلمان فى بناء إمبراطوريته . فلما انتصر بيبين Pepein على اللمبارديين ، ثم سحقهم شارلمان نهائياً عام ٧٧٣م عندما حاصر بافيا ، وأسر ملك اللمبارديين ديزدير ، وأتم فتح بافيا عاصمة اللمبارديين يكون قد أكمل بناء إمبراطوريته .

كان شارلمان قائداً فذاً ، وزعيماً طموحاً ، فعمل على تحقيق هدفه الأكبر فى أن يكون إمبراطوراً لأكبر كيان جرمانى فى أوروبا العصور الوسطى . وقد تحقق ذلك الحلم الكبير سنة ٨٠٠م ليلة عيد الميلاد فى كنيسة القديس بطرس فى مدينة روما . وبذلك كسبت البابوية حليفاً تعجز الإمبراطورية الشرقية عن مواجهته ، وتراجع القبائل الجرمانية أمام قوته ، كما حظيت بنصير للمسيحية استخدم الكلمة والسيف من أجل التبشير بالمسيحية ، كما بذل المال فى سبيل

بنا الكنائس والأديرة فى جميع أرجاء الإمبراطورية .

وكما كان هذا الإمبراطور عسكرياً وسياسياً كان أديباً وفناناً وإدارياً .
وتتجلى الصورة البديعة لنهضة الإمبراطورية الكارولنجية فى تلك الشخصيات من
الأدباء والعلماء الذين ازدهر بهم بلاط الإمبراطور شارلمان مثل الكوين Alcuin
الإنجليزى ، وثيولفوس شاعر البلاط ، والمؤرخ بولس الشماس ، واينهارد
صاحب كتاب « سيرة شارل العظيم » .

لعل أهم ما يتميز به هذا الفصل ذلك التحليل التاريخى للعلاقة بين
البابوية والفرنجة ، ثم التفسير المنطقى لطبيعة العلاقات الكارولنجية - البيزنطية
من ناحية ، والكارولنجية - البابوية من ناحية أخرى .

علاوة على ذلك يظهر ذلك العرض الرائع للجوانب الحضارية للنهضة
الكارولنجية فى أسلوب أدبى رائع يكاد يكون شعراً .

أما عملية التوثيق فى هذا الكتاب فتتجلى بشكل واضح فى توثيق مراحل
الكفاح بين السلطتين الزمنية والدينية التى أفرد لها الدكتور إسحق عبيد الفصل
الرابع ، وفى رأى إن جذور هذا الصراع تكمن فى موقف الإمبراطور دقلديانوس
من المسيحيين فى السنوات الثمانى الأخيرة من حكمه وهو الذى لقب بسفاح
المسيحيين ... لقد أدرك هذا الإمبراطور إن كبار رجال الدين يسعون ليس فقط
إلى التبشير بالديانة المسيحية ، ولكن إلى السلطة وما يندرج تحتها من
صلاحيات وامتيازات فى الحكم والإدارة ، فأراد - من وجهة نظره - أن يقطع
الطريق بهذا الموقف الوحشى مع أتباع الديانة الجديدة ، ولكن النتائج العكسية
لهذا الموقف الصارم أثبتت عدم جدوى الوقوف أمام التيار المسيحى الهادر . ثم

جاء الاعتراف بالديانة المسيحية فى عهد الإمبراطور قسطنطين Constantine الكبير عام ٣١٣ م بمقتضى مرسوم ميلان . وتلى ذلك ظهور السلطة البابوية التى وضع البابا جريجورى الأول Gregory I قواعدها الأولى . ومنذ القرن السادس الميلادى ظهرت الأنظمة الرهبانية الجماعية : النظام البندكتى Bene-dict ، ثم النظام الكلونى Cluny ، وأخيراً النظام السترشيانى-Cistercian Or-der وقد لعبت هذه الأنظمة الديرية دوراً كبيراً فى دعم السلطة البابوية من خلال حركات التبشير ، وبناء الكنائس ، والأديرة .

وبدأت البابوية تعمل على تقوية جهازها بمختلف الوسائل المادية والمعنوية . وتعتبر حادثة إذلال الإمبراطور « هنرى الرابع » فى كانوسا Canossa أكبر دليل على ما وصلت إليه البابوية من سمو وسلطة .

ويعتبر التنافس السافر بين حكام الإمبراطورية الرومانية المقدسة والسلطة البابوية برهاناً واضحاً على الرغبة الشديدة لدى كلا الجانبين للقبض على زمام الأمور فى أوروبا العصور الوسطى . وبقدر ما تسجل الحروب الصليبية انتصاراً مرموقاً للبابوية عندما استجابت أوروبا جميعها لنداء البابا أوربان الثانى من مجمع كليرمونت ، فإن هزيمة الملك الفرنسى لويس التاسع ST. Louis فى المنصورة تعبر عن عجز البابوية عن نصره الدعوة الصليبية ، وانشغالها بالخلافات مع الإمبراطور فردريك الثانى من أجل تأكيد امتيازاتها الدينية داخل حدود الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

لقد كان الدكتور إسحق عبيد موفقاً فى تتبع جوانب هذا الصراع بين السلطتين الدينية والزمنية فى استطراد منطقى مع توثيق دقيق لجميع جوانب

الموضوع ، مع بيان تحليلي لمواقف تلك السلسلة - المنسجمة أحياناً والمتناقضة أحياناً أخرى - من البابوات والأباطرة . ومع أن موضوع الصراع الزمني - الديني يعتبر من أصعب موضوعات تاريخ العصور الوسطى إلا أن المؤلف استطاع أن يعرضه في صورة متكاملة تتميز ببساطة العرض مع عمق المدلول .

وبعد هذا العرض الجميل لأحوال الإمبراطورية الرومانية في الداخل ، والتي كانت سبباً رئيسياً في سقوط الإمبراطورية مع بيان دور الهجمات البربرية في هذا الإنهيار الذي لم يكن انهياراً سياسياً فحسب ، بل شمل كافة مظاهر التفوق الأدبي والفني اللذين تميزت بهما الإمبراطورية الرومانية ، يتراءى وميض الاستقرار تدريجياً مع قدوم الفرنجة Franks إلى غاليا ، والعمل على إرساء قواعد حكم مستقر واسع إنجلي عن ظهور الإمبراطورية الكارولنجية ، وما تميزت به من نهضة أدبية وفنية كانت أصدق ما يكون في التعبير عن التلاحم الحضارى الرومانى - الجرمانى .

ومع جهود الحكام الكارولنجيين في دعم السلطة البابوية Papacy ، بدأت تظهر بوادر التنافس والصراع بين السلطتين الزمنية والدينية .

وكما سجلت الحروب الصليبية انتصاراً سياسياً للبابوية تجلت أوضح صورته في استجابة أوربا بجميع ممالكها وشعوبها لنداء البابا أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت للدعوة الصليبية Crusade فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، كذلك تسجل واقعة الأسر البابلى انتصاراً للسلطة الزمنية وتراجعاً للهيمنة البابوية .

وهنا لابد من التساؤل عن ماهية الوضع الاقتصادى ، وارتباطه بطبيعة التقسيم الاجتماعى فى أوربا العصور الوسطى ؟ هنا لابد لنا أن نقرر إنه لا

الدكتور إسحق عبيد هذه الأهمية فخصص فصلاً كاملاً لدراسة نظام الإقطاع Feudalism ، وما ترتب عليه من متغيرات مختلفة .

وقد حاول الدكتور إسحق عبيد بنجاح أن يصل إلى الجذور الرومانية والجرمانية للإقطاع شارحاً في مقدمة ذلك العرض بعض مظاهر التراجع الحضارى الذى شهده مجتمع أوروبا العصور الوسطى ، من ذلك على سبيل الذكر لا الحصر عدم وجود آلة مناسبة لمعرفة الوقت ، إلى جانب انتشار الجهل بين معظم طبقات ذلك المجتمع . وقد هيأت الإمبراطورية الكارولنجية مناخاً مناسباً لتبلور النظام الإقطاعى ، كما وضعت الأسس التى اعتمد عليها النظام الملكى . وقد ضم هذا الفصل عرضاً متكاملاً للنظام الإقطاعى ، والعلاقة بين السيد الإقطاعى وأتباعه بمختلف رتبهم حتى نصل إلى طبقة العبيد منهم العاملين فى فلاحة الأرض وما يتبعها من أعمال ، مبيناً فى معرض ذلك حقوق وواجبات كل فئة بتفصيل لا يجد فيه الباحث منفذاً للتساؤل . ومع قسوة هذا النظام وإجحافه بحقوق الأقتان Serfs ظهر وميض أدب الفروسية Knighthood معبراً عن روح هذا العصر ، منبثاً عن ظهور ملامح النهضة الأوروبية فى القرون التالية .

كما يوضح الدكتور إسحق عبيد إنه فى الوقت ذاته الذى تمتع فيه السيد الإقطاعى Lord بكل الحقوق ومظاهر الثراء ، فإن القن Serf كان عليه واجبات لا حصر لها ، وكان فى معيشته أبعد ما يكون من الراحة .

وهنا لابد من التساؤل ، لما استمر هذا النظام طيلة تلك القرون فى أوروبا العصور الوسطى ؟ نجد أن الإجابة تكمن فى تلك الظروف التى اقتضت وجود

ذلك النظام تحقيقاً للأمان الفردى والجماعى فى ظل عدم الاستقرار السياسى ، وأقول مظاهر التفوق الاقتصادى ، فلما تهيأت الفرصة المناسبة للاستقرار السياسى والتفوق الاقتصادى بمظاهره الزراعية ، والتجارية ، والصناعية ، بدأت مظاهر هذا النظام بالتراجع ثم الاختفاء تدريجياً . وتقع أهمية هذا الفصل فى تلك المعلومات الجديدة على القارئ العربى فى تفاصيل الحياة الاجتماعية لطبقتى الفلاحين والأقنان ، الأمر الذى يجعل قراءة هذا الكتاب متعة تاريخية لا حدود لها . هناك مقولة معروفة تتضمن أنه عندما يشتد الظلام فإن النور سينبثق ، وهذا هو الذى حدث فى أخريات القرون الوسطى فى أوروبا ، وهى الفترة التى أطلق عليها الدكتور إسحق عبيد « جحيم العصور الوسطى » حيث ضمنها الفصل السادس وهو الأخير فى كتابه هذا ، حيث تناول فيها تهور البابوية والكنيسة الرومانية فيما عرف فى تلك العقود « بمحاكم التفتيش » . ويضم هذا الفصل شرحاً وافياً للنزاع بين الكنيسة الرومانية وجماعة « الأطهار » الساعين للخروج من عبودية النظام الإقطاعى بما أعطاه للسيد الإقطاعى من صلاحيات تلغى حريات الفلاحين والأقنان بكافة أشكالها ، فما كان من الكنيسة الرومانية Roman Church إلا أن تدعم « محاكم التفتيش » فى سبيل اجتثاث نشاطات جماعات الأطهار ، بل وإصاق التهم المختلفة بهم فى سبيل جرهم إلى المحاكمات للحصول على أحكام جزائية تقمع مواقفهم ، وتلغى أهدافهم . ويلقى هذا الفصل الضوء على دور المدن الإيطالية الناهضة فى القرن الحادى عشر الميلادى والقرون التالية فى هذا الصراع ، وقد جر هذا الصراع إلى النزاع السافر بين البابوية والإمبراطورية . وقد ترجم ذلك النزاع

بأطرافه المتعددة فى ملحمة أدبية رائعة هى رائعة دانتي الليجيرى « الكوميديا الإلهية ». بالإضافة إلى ذلك ظهرت الآداب الشعبية معبرة عن مشاعر السخط والغضب لدى بسطاء الناس نحو تسلط الكنيسة الرومانية .

وعندما تمادت محاكم التفتيش فى اتهاماتها الباطلة وجزاءاتها المتعسفة ضد الفئات المختلفة كان لابد من ظهور بوادى الرفض التى تجلت واضحة فى حركات الإصلاح الدينى الرافضة لهذا التسلط الظالم . وتسجل شخصيات يوحنا وإيكلف ، ويوحنا هس ، أبداً صور التنديد ضد خروج البابوية والكنيسة الرومانية عن تعاليمها المتسامحة الأولى . وبدأت هذه الشخصيات الإصلاحية تنادى بمبدأ العدالة الاجتماعية . وعلى الرغم من رد الفعل البابوى القاسى فإن البذور نبتت ، وبدأ إنسان القرن الخامس عشر الميلادى يتذوق حلاوة حقه فى حرية الفكر البناء ، والعمل المثمر . ومع تحقيق هدف الإنطلاق خارج الأسوار الحديدية التى أقامتها الكنيسة البابوية حول عقول شعوب العصور ظهرت حوادث التخلص من يوحنا هس وسافونا رولا حرقاً على وحشيتها ثمناً لا بأس به فى سبيل تلك الانطلاقة الحرة التى شكلت قاعدة الحضارة الأوروبية فى العصور الحديثة . فلما ظهر مارتى لوتر متخماً بآراء أولئك الأوائل ، عازماً على نشرها ، وتطبيقها ، وحصد ثمارها ، كان فى عمله هذا الناسف لتلك الهيمنة البابوية الموهومة فى بداية القرن السادس عشر الميلادى . وهكذا يختتم الأستاذ الدكتور إسحق عبيد كتابه بهذا الانتصار الكبير للفكر الحر البناء .

يعتبر هذا الكتاب بحق ملحمة تاريخية فى إطار أدبى نكاد نسمع موسيقى ألفاظه من خلال السطور ، وقد ساعدت الميول الأدبية للكاتب على إنجاز هذه

الصياغة المعبرة حتى تجعل قراءة هذا الكتاب متعة حقيقية . علاوة على هذا كله فإن الكاتب توج هذه الملحمة بسلسلة من المصادر والمراجع الأجنبية والعربية ساعدت على توثيق المعلومات العلمية .

ومهما يكن من شئ فإن هذا المرجع لا يسجل إضافة جديدة إلى المكتبة العربية المختصة بتاريخ أوروبا في العصور الوسطى فحسب ، بل يفتح نافذة لطلاب التاريخ في الوطن العربي من أجل الوصول إلى معرفة أكثر جلاء ، وصورة أفضل وضوحاً فيما يختص بهذه المرحلة من التاريخ الأوربي الوسيط .

دكتورة حياة نصار الحجى

أستاذة تاريخ العصور الوسطى

قسم التاريخ - كلية الآداب

جامعة الكويت

الفصل الأول

وداعاً للسلام الروماني

الإمبراطورية الرومانية فى مهب الريح

فى سنة ٤٩ ق. م اشتعلت الحرب الأهلية فى روما بين بومبى وقيصر ، وقد حلت الهزيمة ببومبى فى معركة فرسالوس ببلاد اليونان ، ففر إلى مصر حيث قتل فى العام التالى . وبعدها بسنوات أربع أعلن يوليوس قيصر نفسه دكتاتوراً مطلقاً ، على أن الغيورين على التقاليد الجمهورية فى مجلس السيناتو قاموا باغتياله فى قلب المجلس فى ١٥ مارس ٤٤ ق. م .

واشتعلت الحرب الأهلية من جديد بين معسكر أوكتافيان ومارك أنطونى ولبيدوس من ناحية وبين بروتوس وكاسيوس من ناحية ثانية . وقد جر هذا الصراع الدامى أطرافاً أخرى إلى القتال ، فقد وقف البارثيون مع معسكر بروتوس ، بينما ألقت مصر بثقلها وراء مليكتها كليوبتره وعشيقها الرومانى مارك أنطونى . وبعد هزيمة بروتوس وكاسيوس فى معركة فيليبى سنة ٤٢ ق. م ببلاد اليونان ، كون المنتصرون حلفاً ضمّ أوكتافيان ومارك أنطونى ولبيدوس . ولكن الخلاف سرعان ما دبّ بين الحلفاء ، فأزبح لبيدوس سنة ٣٦ ق. م . ثم مالبت الخلاف أن نشب بين أوكتافيان ومارك أنطونى . وفى سبتمبر ٣١ ق. م. ألحق أوكتافيان الهزيمة بمارك أنطونى وحليفته كليوبتره فى موقعة أكتيوم

البحرية ببلاد اليونان أيضاً . وبعد انتحار أنطوني وكليوبترا خلا المسرح تماماً لأوكتفیان .

كان أوكتافیان حفيداً لجولیا شقيقة قيصر ، وقد تبناه قيصر وخلع عليه اسمه وأعده لكي يخلفه في الحكم من بعده . أقدم أوكتفیان على خطوات هامة في إدارة إمبراطوريته الشاسعة التي امتدت من اسكتلندة غرباً حتى نهر الفرات شرقاً ، ومن نهر الدانوب شمالاً حتى بلاد النوبة جنوباً ، فخفض فيالقه من ستين إلى ثمانية عشر فيلقاً ، وقام بتوطين أكثر من مائة ألف من قدامى المحاربين في الولايات الإمبراطورية في الشمال الأفريقي والشام وآسيا الصغرى ، وقد تحملت الخزانة المصرية تغطية نفقات هذا التوطين بعد أن أصبحت مصر ولاية رومانية .

هذا وقد شغل أوكتافیان منصب القنصلية دون انقطاع ما بين عامي ٣١ ، ٢٣ ق . م ، ثم خوله السيناتو بسلطات عالیا (Maius Imperium) على كل فرق الجيش في الولايات الإمبراطورية . واختار أوكتفیان لنفسه لقب « المواطن الأول » (Princeps) ، ثم خفض عدد أعضاء السيناتو من ألف إلى ستمائة عضواً مع الاحتفاظ بحق تعيين من يراه مناسباً للعضوية . وفي نهاية الأمر صار أوكتافیان أغسطس يجمع في يديه سلطات القائد الأعلى للجيش الرومانية وصلاحيات التريون أو القاضي الأكبر .

ثم التفت أوكتافیان إلى الجوانب الاجتماعية ، فوجد أن الطبقات العليا كانت عازقة عن الانجاب ، ولذا فإنه فرض ضريبة على الأزواج الذين يمتنعون عن الانجاب ، بينما منح بعض الامتيازات للأسر المنجبة . ومن إصلاحاته أيضاً

أنه شدد من العقوبة لجريمة الزنا ، وحد من الغلو فى الترف والدعة وتوزيع القمح بالمجان على غوغاء روما . كذلك عمل أوكتافيان على ترسيخ التقاليد الدينية والأخلاقية فى المجتمع الرومانى ، فأشاع مفهوم « السلام بين الناس والآلهة » (Pax Deorum) ، وبلغ عد المعابد فى عصره اثنين وثمانين معبداً ، وصار هو عضواً فى كلية الكهنة والمنجمين ، وفى سنة ١٣ ق . م اتخذ لقب « الكاهن الأكبر » (Pontifex Maximus) ، وهكذا جمع فى شخصه السلطتين الزمنية والدينية .

ومع الإحساس بالسلام فى الإمبراطورية ، ازدهرت الفنون والآداب على يد عديد من كتاب العصر وعلى رأسهم فرجيل وليفى وهوارس وأجربيا وماكياناس . وقد أنتج فرجيل ملحمة الخالدة « إنياس » مؤسس مدينة روما ، وجعل من بطله إنياس المثل الأعلى للكفاح ومغالبة تقلبات الأوقات وللحكمة والتقوى والتفانى من أجل الواجب . أما ليفى فقد تقفى تاريخ روما منذ البدء حتى عصر أغسطس ، معرجاً على لحظات الفخار والبطولة فى سجلاتها . وخاطب فى « أناشيده » فضائل الرومان وبأسهم ، موصياً بضرورة الرجوع إلى طرائق البساطة الأولى . أما أوفيد فقد انصرف إلى شعر الغزل الحسى ، الأمر الذى أغضب أغسطس فأمر بنفيه خارج البلاد .

كذلك ارتقت الفنون التشكيلية ، ومن روائع العصر « مذبح السلام الرخامى » ، وميادين السوق ومعبد قيصر ومعابد جوليا وإميليا ومنصة الخطباء (Rostra) . هذا إلى جانب المسارح والحمامات العامة والمتنزهات والبحيرات الصناعية والمكتبات . ونظراً لاستخدام الرخام بكثرة فى أعمال البناء والترميم فى

عصر أغسطس ، فإن كاتب سيرته سيوتونيوس قد لاحظ أن سيده قد تسلم روما وهي مبنية من الطوب ثم تركها وهي من الرخام .

وعمل أغسطس على استتباب الأمن في العاصمة ، فألى جانب الحرس البرياتورى انشأ قوة بوليسية قوامها ثلاثة آلاف رجلاً (Cohortes Urbanas) ، بالإضافة إلى سبعة آلاف من الخفر (Vigiles) ، كما عين موظفين للإشراف على توفير المياه للمواطنين (Curatores Aquarum) وآخرين لمعالجة خطر الفيضانات من نهر التيبر (Curatores Riparum Tiberis) ، وغيرهم للتموين (Annonae) ، هذا إلى جانب مسرح كبير للعاصمة ، وقد سخر الكاتب جوفينال بعد ذلك بقرن بان امبرطورية أغسطس كانت امبراطورية «رغيف الخبز والمسرح» .

وفى علاقاته بالشعوب الجرمانية المتحفزة من وراء الدانوب والراين ، اختار أغسطس سياسية الدفاع بدلاً من سياسة الهجوم خاصة بعد أن منيت كتائبه بقيادة فاروس بهزيمة فادحة سنة ٩م على يد الجرمان . وأدرك أغسطس آنذاك أن لا سبيل لدمج العالم الجرمانى فى اطار الحضارة الرومانية .

توفى أغسطس سنة ١٤ م فخلفه فى الحكم ابنه بالتبني طيبيريوس^(١) (١٤ - ٣٧ م) ، وكان جندياً ماهراً وشجاعاً وسار على درب أغسطس فى سياسته الخارجية والداخلية . ولكن خلفاء طيبيريوس الثلاثة كانوا سبةً فى جبين البيت الحاكم ، فقد كان أولهم مجنوناً (كاليجولا ٣٧ - ٤١ م)^(٢) ، وكان الثانى نافها (كلوديوس ٤١ - ٤٥ م) ، والثالث معتوها متوحشاً (نيرون ٥٤ - ٦٨ م) ، وبمقتل نيرون انتهى بيت قيصر - أغسطس ، فظهر على المسرح أربعة

قادة يتكالبون على العرش ،وهلك فى الصراع خمسون الف نسمة فى مدينة روما وحدها فى عام واحد . وانتهى الصراع بفوز فسباسيان (٦٩ - ٧٩م) ، وبدأ سلسلة من الابطرة الأقوياء وهم تيتوس ودوميتيان ونيرفا وتراجان وهادريان وانتونينوس بايوس ثم ماركوس أوريليوس (٧٩ - ١٨٠ م) . غير انه فى سنة ١٩٣ م فرض الحرس البرائورى ضابطا اسمه برتيناكس للجلوس على العرش الامبراطورى ، وبذلك بدأت سابقة خطيرة فى الحكم الرومانى ، ويلاحظ أنه من بين الثلاثة وعشرين امبراطوراً الذين حكموا فى القرن الثالث حتى مجيء دقلديانوس (٢٨٤ م) هلك عشرون منهم فى الصراع على كرسى الحكم . وخلال هذا الصراع دمرت مدن أنطاكية وبيزنطة وليون ، وأعدم عدد من اعضاء السيناتو .

بعد هذا جاءت سلسلة من الأباطرة الذين اثاروا إعجاب المؤرخ ادوارد جييون صاحب كتاب « إضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية » فأطلق على حكمهم العصر « الذهبى » للإمبراطورية ،وهؤلاء الأباطرة هم : أنتونينوس بيوس ، وماكروس ، وانتونينوس الجابالوس ثم سفيروس اسكندر ، وقد امتدت فترات حكمهم جميعا من سنة ٢١١ حتى سنة ٢٣٥ م . وقد تميز هذا العهد بتخفيف الضرائب على الشعب وازدهار فى الآدب ، وبتمتع مدن الولايات بالحكم الذاتى ، كما خفت ضراوة اسواق النخاسة وصار ممكنا لبعض العبيد المعتقين ان يعملوا ببعض الوظائف كالتدريس مثلاً . هذا عن الجانب المشرق الذى إنبهر به ادوارد جييون . على انه ينبغى ملاحظة أن نفس العصر قد شهد أيضا تخلص بعض الاسر من مواليدهم ، وزيادة فى الدعة والترف عند معظم

طبقات المجتمع ، وزيادة الاوثة ، واهم من هذا كله لجوء الاباطرة إلى استخدام الجند المرتزقة من الشعوب الجرمانية لحراسة حدود الامبراطورية . وليس غريبا بعد ذلك أن نجد بين الأباطرة اسماء غير رومانية ، فهناك امبراطور من أصول سورية ، وآخر من أصول عربية ، وثالث من أصول إفريقية بونية ولم يكن يجيد اللسان اللاتيني .

ويلاحظ على فكر هذا العصر أن الناس قد عزفوا عن القضايا الميتافيزيقية وراحوا يتلمسون إجابات عن اسئلة تههم واقعهم التعيس . ولذا فإن كتابات سنيكا وموسونيوس وابكتيتوس وحتى بلوتارخ لم تهتم بالمثل العليا المجردة بقدر الإهتمام بمعناها العملى أو البرجماتى ، فسنيكا مثلاً قد حاول تحويل الفلسفة الرواقية إلى سلوك عملى يبعد الناس عن الرذيلة وسوء استخدام المال والدعة ، موضحاً أن الهدف الأسمى لاية فلسفة ينبغى أن يكون البحث عن الحياة الطيبة . أما موسونيوس فقد دعا إلى استعمال الرأفة مع المخطئين وتقدير معنى العفو عند المقدرة وعدم التفرقة بين الذكور والإناث ، ولذا فإن نيرون قد نفاه إلى خارج البلاد ، أما ابولونيوس من تيانا فقد دعا إلى الاخوة بين بنى البشر وإلى التسامح ، وقد اتهم نيرون بأنه مخنث وداعر وحض على الثورة ضده . كما هاجم ديموناكس المصارعة والمجالدات بين البشر والحيوانات فى السيرك .

وانتقد ديو خرايز وستوم فجور الأغنياء وانانية الغوغاء وعنفهم ونادى بسيادة القانون ، ونبه المؤرخ بلوتارخ معاصريه إل درس التاريخ وبأن البؤس الإنسانى كان من صنع الإنسان نفسه . وأما اتباع الفلسفة الكلبية (Cynics) فكانوا يعمدون إلى الوقوف فى الطرقات كى يوبخوا الناس على سلوكهم الشائن ، وقد

عرف عن زعيمهم بروتوريوس انه عنف الإمبراطور انتونينوس بيوس بسبب غروره الشديد ، والمعروف أن هذا الفيلسوف الكلبى قد مرّ بأزمة نفسية شديدة فانتحر .

من التغيرات التى طرأت ايضاً أن عدداً وافرأ من ابناء الطبقة الوسطى تحت وقع الضرائب الثقيلة قد تدنوا إلى مستوى الطبقات الدنيا (Humiliores) ، وهكذا بعد أن كان المجتمع الرومانى يضم طبقات ثلاث عليا ووسطى ودنيا ، لم يعد هناك غير طبقتين العليا والسفلى واختفت تماماً الطبقة الوسطى .

يلاحظ أيضاً أن اعداداً غفيرة من العبيد قد اعتقوا ، واشتغلوا بالصناعة والتجارة ، وبعد أن كونوا الثروات انشأت لهم السلطات الرومانية ما عرف باسم « الاوغسطالس » (Augustales) وهى هيئة تضم العبيد المعتقين ، والتى كان من اهم واجباتها المحافظة على عبادة الإمبراطور ، والمشاركة فى الإحتفالات والرياضة والمآدب العامة ، وكانوا اشبه ما يكونون « بمحدثى النعمة » (٤) .

من التحولات الخطيرة ايضا فى القرن الثالث للميلاد انهيار دويلة المدينة (Polis) ، وسقوط سماتها الحضارية من دستورية وعدالة إجتماعية وسيادة السلام ، وإختفاء دور الحاكم الذى يمثل الرابطة بين سكان المدينة (Pro-states Tou Demou) . وقد كان طبيعياً مع هذا التدهور أن تتحول أمور الشعب الرومانى إلى الغوغائية وتحكم البرابرة المرتزقة فى مصير الحكم والحكام .

ولعل اخطر التحولات جميعاً ما حدث للمواطن الأول أى الإمبراطور نفسه ، ففي أيام مجده الأولى كان يملك كل السلطان الدينوى والدينى ، وكان نصيب من يجرؤ على مخالفته القتل أو مصادرة الأملاك ، أو الأنتحار .

على أنه عندما تحلل نظام الحكم وصارت الأمور بيد الحرس البرائتورى من الجند المرتزقة، صار الأباطور مجرد دمية فى أيدى هذا الحرس الذى بات يخلع ويقتل ويعين من يشاء من الجنرالات واعضاء السيناتو للجلوس على العرش ، وذلك مقابل رشوة دسمة لقادة الحرس . ومع هذا التحول أو التدهور انقطعت الصلة تماماً بين الحاكم والرعية ،وانتهزت المجالس المحلية فى الولايات الفرصة للنهب والسلب واكتناز المال . ومع هذا التدهور السياسى والاقتصادى والإجتماعى لجأ الناس إلى الملذات الحسية هروبا من الواقع المر الأليم .. وغص المجتمع الرومانى بالانتهازيين والمرابين والعاطلين ومحدثى النعمة ، وهذه جميعا علامات انفصام ومؤشرات إلى اقتراب النهاية .

وليس غريبا فى هذا المناخ من الإحساس « بالغبرة » وخواء الروح أن تجد الديانة المسيحية ارضا خصبة على التراب الرومانى ، فقد جاءت المسيحية من المشرق تدعو الناس إلى نبذ هذا العالم والتطلع إلى « ملكوت السموات » حيث يكون الجميع من حر وعبد شركاء فى مدينة الخلاص والانعقاد .

ولكى نستشف روح العصر علينا أن نقلب فى آداب العصر وفلسفاته المتنوعة : فى حديثه عن رياضة المجالدين (Gladiatores) وهى الرياضة التى ملكت على قلوب الرومان من عامة وخاصة ، يقول ترتوليان (قرن ٣ م) (٥) بأن الرومان باتوا يشتهون الموت ، فالرجال يضحون عبثاً بأرواحهم ، والنساء يضحين أيضا بأجسادهن ، وفى الحالين امتهان لكرامة الإنسان روحاً وجسداً .

والمجالد فى الاصل عادة تروسكية بدأت بتقديم اضحيات بشرية ارضاءاً للآلهة ،ويذكر أن أول هذه التقدمات قد تم سنة ٢٦٤ ق . م عندما اقدم عليها

ابناء يونيوس بروتوس لروح والدهم المتوفى . وفى سنة ١٧٤ ق. م تجالد اربعة وسبعون رجلاً على شرف روح والد تيتوس فلافيوس . وبعد انتصار قيصر على بومبى فى واقعة فرسالوس اقام قيصر حفل مجالدات بين ستمائة من الرجال ابتهاجاً بالنصر ، وكان قيصر يريد المزيد من المجالدين لولا اعتراض السيناتو على ذلك . وأما أغسطس فقد كان المجالدون فى عهده عشرة آلاف من الرجال ، كذلك فعل تراجان بعد أن ضم ولاية داكيا إلى حظيرة الأمبراطورية ، وقد ظل الاف المجالدين يقتلون واحدهم الآخر فى احتفال دام اربعة شهور كاملة .

كانت المجالدات تتم فى أول الأمر فى الساحة العامة للمدينة ، وكان ضحاياها من المحكوم عليهم بعقوبة الإعدام أو من الاسرى من غال واسبان وتراقيين وجرمان واغارقة وسوريان واسيويين . ومع انهيار الجمهورية الرومانية وقيام العصر الأمبراطورى بدأ الرومان انفسهم يتطوعون للمشاركة فى المجالدة . ويعكس هذا التحول شعوراً باليأس واشتهاء للموت لدى الرومان ، كما عبر عن ذلك الكاتب كبريان من القرن الثالث^(٦) . وكان على المجالد أن يقسم يمينا (Sacramentum Gladiatorium) بأن يتحمل أن يُجرأ أو يُوثق أو يضرب أو يقطع إربا بالسيف . ولم يكن هذا القسم موجهاً للآلهة الكابيتولينية وإنما للآلهة السفلية من سادة الموت وأمراء دروب الظلمات (Dii inferni)^(٧) .

هذه الروح ، روح اشتواء الموت لدى الرومان والتي عبر عنها تيرانس (قرن ٢ ق م) ظلت لصيقة بالآداب اللاتينية ، فقد استخدمها بعد ذلك بستة قرون القديس اغسطينوس عندما شبه الخاطيء اليائس من الرحمة الالهية بهؤلاء المجالدين الذين كتب عليهم الهلاك^(٨) .

ومع تفشى هذه الروح الانتحارية فى المجتمع الرومانى ، صار على المجالد أن يبدى ثباتا للجأش واقبالا على الموت فى غير وجل ، بل إن البعض كانوا يتوجهون من قلب الحلبة الى مقصورة القيصر أو السيد لسؤاله عن الكيفية التى يرغب السيد أن يتم من خلالها قتل المجالد . ومع هذا الاستخفاف بآدمية الإنسان وكرامة جسده وروحه ، عبداً كان أم رجلاً حراً ، أخذ كتاب العصر فى نظم المديح للمجالد الذى يحاول إدخال السرور على قلب سيده وعلى قلوب الجماهير المشاهدة . أما المجالد الذى يتألم أو يتوسل إلى جلاده بألا يقتله فإنه يثير الإستياء فى جمهور المتفرجين والقيصر نفسه . وعندما يحاول مجالد ما الهرب من ضربات السيف أو النار ، يصيح الجمهور مستنكراً على المجالد هذا الجبن ، ويصرخون فى الهواء بأن إحرقوه واقتلوه - علام يخاف هذا الجبان من الموت ؟ .

وقد فسر الرومان خوف المجالد أو ارتعاده أمام جلاده خرقاً للعقد بينه وبين الموت ، تماماً كما تتمرد الأضحية أمام مذبح الأرباب . وهكذا تحول جمهور السيرك الرومانى وقيصرهم جميعاً إلى جلادين ، وصار « استعذاب الموت » (amor mortis) وباءاً رومانياً . ومع ترسخ هذه العلة من السادية والماسوكية فى نفوس الرومان رفع الرومان من قدر إهدار الكرامة الإنسانية والتلذذ بهذه المهانة حتى صارت واحدة من فضائلهم !

وجرياً وراء هذه القسوة اللآدمية صار مألوفاً عند الرومان إعدام اسرى الحرب بالجملة ، وقتل الفارين من ميدان القتال دون محاكمة ، وتعذيب الشهود فى قضايا المحاكم . والتطور الآخر فى هذا المجال أن الكثيرين من أبناء

الشيوخ الرومان وطبقة الفرسان قد تخيلوا على القوانين ودخلوا ساحة المجادلة ولكنهم يشتهون العار والموت معا ، وهذا دليل دامغ على تسرب روح القنوط واليأس إلى نفوس المجتمع الرومانى من عامة وخاصة .

ويرجع لوكان هذا التدهور الأخلاقى إلى أيام الصراع بين ماريوس وسوللا (قرن ١ ق . م) وما تبع ذلك من حمامات الدم بعد سيطرة ماريوس على روما^(٩) . ويمثل عام ٣١ ق . م ، سنة انتصار اوكتافيانوس اغسطس على خصومه وخروجه سيداً أوحده على الأمبراطورية ، بالنسبة للبعض حرباً غير متكافئة بين معسكرين غير متكافئين ، وبأنه بعد انتصار اغسطس وانتحار انطونى وكليوبترة ، صار التقليد فى المجتمع الجديد الركوع ارضاً لتقديم قدم المواطن الأول ، إذ بات النفاق السبيل الأمثل للتسلق على سلم القيصر . وقد عبر عن هذا التدهور والإنحطاط خير تعبير الفيلسوف ابكتيتوس بقوله : « كم من المهانة بات على المرء أن يتحملها كى يصبح مرموقاً فى روما - لقد بات علينا أن نقبل القدم ، وان نلثم ايدي العبيد من حشم وخدم حتى ينعم علينا بالوظائف العليا والقاب الشرف فى الدولة » . ثم يوجه الكاتب حديثه إلى واحد من ارستقراطية روما الذى كان قد شغل منصب القنصلية مرتين قائلاً له : إنك لا تعدو أن تكون عبداً كأى عبد آخر بيع مرات ثلاث فى أسواق النخاسة ، رغم أنك لم تعرض سلعة فى الاسواق بعد ، ورغم انك قد تحدرت من اب وام من الاحرار - ولكنك الآن لاتملك إلا أن تصبح واحداً من كثيرين تحت مظلة السيد القيصر .. وهذا الشعور بالامان الكاذب هو العبودية نفسها - ان سيدكم يمسك بالسوط تماماً مثلما يفعل تاجر النخاسة^(١٠) .

ويلاحظ تاكيتوس^(١١) أنه كلما ازداد ارتفاع الشخص فى روما على سلم الترقى فى الوظائف كلما ازداد نفاقة وإدمانه على النفاق . وقد أمسك لوسيان ديموناكس ذات مرة بالشريط الأرجوانى الذى تزدان به عباءة أعضاء السيناتور وهمس له فى أذنه « ان هذه العباءة الفضفاضة بشريطها الأرجوانى لم تجعل منك أكثر من واحدة من قطعان الغنم » . ويدين الفيلسوف سنيكا هذا التدنى لدى أعضاء مجلس الشيوخ ، كما أنه لا يخفى شعوره بالاحتقار للملك جزيرة رودس نفسه المدعو تلسفوروس لأنه قد ضحى بشرفه ووقاره من أجل الإبقاء على حياته ذليلاً ، وينتهى إلى القول بأن الحكمة القائلة « حيثما توجد حياة يوجد أمل » هى حكمة بائسة تنم عن انحطاط وخنوثة (effeminatissima) ، منبهاً ايضاً إلى أن « اسوأ صنوف الموت أكرم للإنسان من افضل أحوال العبودية » .

ليس غريباً إذن فى هذا المخيف أن يقبل الجميع على ساحة المجادلة ، فهى أصدق الساحات للتعبير عن حال المجتمع الرومانى وهو فى مهبط الريح ، وقد وصل الحد فى السيرك إلى أن الجلادين كانوا يستعينون بقضبان من الحديد الملتهب (Cauterium) لمطاردة المجالدين الذين يهربون من جلاديهم فى الساحة أو الذين يرتعدون خوفاً من ضربات السيف . ويمكن تفسير المجادلة ايضاً على أنها ضرب من ضروب الالهاء الرومانى لانتزاع التصفيق من الغوغاء فى السيرك لشجاعة زائفة بعد أن فشلت الفياق الرومانية فى ميادين القتال ضد البارثيين وجحافل الجرمان على الراين والدانوب ، فهى على حد تعبير ترتوليان متعة للمشاهدين وعزاء للمجالدين ، (Oblectatio et solacium) ، مضيفاً

بأن الموت فى ساحة المجادلة بات أفضل من الحياة التعيسة^(١٢) .

من ناحية اخرى يرى شيشيرون فى المجالادات هروباً من اتون الحرب الأهلية بعد سقوط الجمهورية واستبداد القيصر المطلق ، فى حين أن سنيكا يشبه المواطنين الرومان عن بكرة أبيهم بحشد وافر من المجالدين الذين لا أمل لهم فى الحياة الكريمة ، فليس ثمة وطن مأمون ولا قضية يكافحون من أجلها ولا عدو واضح المعالم امامهم ، وإنما بات المواطن يقتل مواطناً آخر دون سبب معقول إلا شهوة فى الموت^(١٣) .

ولقد فسر المعاصرون سفك الدماء الغزيرة فى السيرك فى الاحتفالات التى أقامها يوليوس قيصر سنة ٤٦ ق . م على أنها خبيثة لتعطش قيصر للمزيد من الدماء ، كما أن نهاية شيشرون ، فى ٧ ديسمبر سنة ٤٣ ق . م فى أعقاب مهاجمته لاستبداد قيصر ، قد جاءت شبيهة بطقوس المجادلة ، فعندما هاجمه الجلادون من أتباع قيصر وهو فى محفته فى شوارع روما ، مدّ لهم شيشيرون عنقه طواعية لتطيح بها السيوف فى استسلام كامل^(١٤) . كذلك فسر البعض هذا الدم المهرق فى السيرك والشارع الرومانى على أنه طقس دينى ترتوى من خلاله ربة الأقدار المنتقمة (Nemesis) التى لا ينطفىء ظمأها ابداً .

ولما أن جاءت المسيحية وحل عصر الاضطهاد ، سار المسيحيون ايضا على درب المجادلة ، وباتوا يستعذبون الموت والاستشهاد الزائف ، واقبلوا على جلادهم بنفس الطريقة التى ذكرناها فى حال شيشيرون وأمثاله الكثيرين .

ويلاحظ أن روما ابتليت بعدد وافر من الاباطرة المتهوسين بداء جنون العظمة ، وكلما ازداد جنون القيصر ازدادت معه رذيلة النفاق الإجتماعى

المستمدة طقوسه من ساحة المجالدة : ويروى لنا سيوتونيوس كيف أن اثنين من منافقى البلاط فى عهد الامبراطور المختل كاليجولا وهما سيكوندوس وافرانيوس أقسما عندما إعُتلت صحة الامبراطور بأن يدخل ساحة المجالدة ان منت الالهة بالشفاء على صاحب الجلالة . وحدث أن شفى صاحب الجلالة من وعكته ، فطلب من الاثنين المبادرة بتنفيذ وعديهما ، وكان له ما أراد !

من سياق تلك الأحداث يمكن للمرء أن يصل إلى نتيجة مؤداها أن الرومان باتوا يغالبون شعورهم باليأس بطرائق انتحارية اشد هلاكاً من اليأس نفسه، أى أن الدواء صار اشد فتكا من الداء نفسه^(١٥) .

ويعد أن تغلغل اليأس فى نفوس الرومان ، نمت فى ضمائرهم مشاعر شبه رومانسية مع الموت نفسه ، وصار المجالد يرمز إلى عدة أمور : فهو عند الطبقات المغلوبة على أمرها يرمز إلى الأمل الضائع ، وعند الخاصة من الأحرار والميسورين يمثل حالة من الانتحار الرواقى بعد أن مل اصحابه حياة الدعة والفجور .

وهكذا فإن لفظة « مجالد » قد ذاعت وانتشرت ودخلت فى الفصحى والعامية على حد سواء ، وباتت تستخدم مجازاً للدلالة على الإحتمال ، اشتقاقاً من حال المجالد الصامد وهو يدير ظهره للحياة يأساً مستلهماً شجاعة لحظية موقوتة أمام ضربات السيف ، وقد شوهد الكثيرون منهم يضحكون ضحكات هستيرية وهم ينزفون دماً غزيراً فى ساحة المجالدة . كذلك استخدم الكتاب نفس اللفظة للإشارة إلى العدو الجرمانى الشرس الذى يقاتل حتى الانتحار . كما وإن الشعراء استخدموا اللفظة ذاتها لوصف حال العاشقين الذين غرقوا فى الحب

حتى أذنيهم ، مثلما كانت حال انكولبيوس مع عشيقته كوارتيللا ، وحال جيتون مع مدلهته الشاردة . وقد استهوت هذه الرومانسية القاتلة افعدة الكثيرات من صبايا المجتمع الرومانى ، وباتت عذارى روما يتنهذن حسرة على المجالد الشاب الهالك على الساحة (Suspirium Puellarum) ، بل وصار المجالد ايضا المثل الأعلى فى الحب المحرم عند المراهقات (Paparum Dominus) .

وعندما كتب بترونيوس قصة « أرملة افيوس » وذلك فى عهد الامبراطور المختل نيرون ، كان يشير بطريقة خفية إلى حال المجتمع الرومانى انذاك . وتطور القصة حول تلك الزوجة الجميلة التى مات رجلها ، وعندما دفن فى قبره رفضت أن تبرح القبر ، وعندما باتت رائحة الجثة المدفونة تزكم الانوف ، إرتمت الخادمة على سيدتها الحزينة تتوسل إليها بالخروج من عالم الموتى وألا تدفن نفسها حية هكذا . ثم قدمت الخادمة لسيدتها كسرة من الخبز لتفتح شهيتها من جديد . وفجأة حدث تحول رهيب فى سيكولوجية الأرملة : إذا بادرت بهجران القبر ، واقبلت على الحياة فى نهم زائد وانغمست فى كل ما هو حسى ولذيد وفاجر حتى غدت امرأة كل عرييد فى المدينة . وانتهى بها المطاف بقيامها برحلة إلى قبر زوجها ، فأخرجت عظامه من التراب وراحت تنثر عليها الأشواك وتوحلها بالتراب والسباب (١٦) ! .

ويتفق المعاصرون من ناحية اخرى على أن الحرب الأهلية هى المسئولة عن الشرخ الذى أصاب الشخصية الرومانية فى صميمها ، فبعد مقتل كراسوس لم يعد العالم كله كافيا لطموحات وشهوة بومبى وقيصر ، ولذا فإن الحرب اشتعلت بين الأثنين من جديد ، وهكذا كانت الحال مع أنطونى واكتافيانوس .

ويعنى هذا كله أن أوصال الأمبراطورية قد مزقت بحد السيف ، ولم يعد البر أو البحر ليكفى لأطماع رجلين ، حتى نصل إلى البطل الأوحده أو الأبد الأكبر^(١٧).

ومن هذا الواقع السياسى المضطرب استلهم الشاعر اوفيد شخصية اسطورية اشار بها من طرف خفى إلى أحوال المجتمع الرومانى ، وهى شخصية الملك أريسيختون (Erysichthon) ، الذى اشتهر بالجشع المفرط ، فهو مهما اكل أو شرب لا يشبع ولا يرتوى . وقد باتت حاله كالنار كلما زودت بالوقود ازدادت جشعاً ، وهذا الملك الذى يقيم المآدب ليل نهار ، يظل يأكل حتى بعد ان يتخم ، فهو يتحسس ملمس اللحوم حتى بعد الإنتهاء من وجباته شرهاً . وتدور الأيام وتكون بطن الملك سبباً فى افلاس خزانته ، ويصل به الأمر إلى أن يبيع ابنته فى سوق النخاسة ليشتري بثمانها لحماً لبطنه . وفى النهاية يتحول هذا الملك إلى مسخ بشرى ينهش لحم جسده واعضائه (Auto cannibalism)^(١٨).

لقد قهر القياصرة البر والبحر ومدارات الشمس والقمر ، ولكنهم لم يشبعوا أو يقنعوا ، وهم فى هذا ايضا يشبهون البطل المأساوى تانتالوس الذى سقط غريقاً فى لجة من الماء العذب ولكنه يموت عطشا . وهم ايضا كذاك البخيل الذى يرقد على كنز هائل ولكنه لا يعرف كيف يتمتع به أو يفيد بجزء منه احدا من الآخرين^(١٩) . وحصيلة هذه الشهوات الفجة هى الغثيان (Taedium Vitae) والشعور بالسأم ، إذ لم يعد شىء فى الحياة يثير السعادة أو حتى الاهتمام . ويشبه سنيكا معاصرة من الرومان يقوم مؤرقين جافاهم النوم ، فاستحوذهم القلق ، ولذا فإنهم يتحركون جيئة وذهابا دون هدف واضح « حتى ييلوا كالحذاء القديم » .

وهنا تشعر الروح بالخواء فيسعى صاحبها إلى دروب من الشذوذ والعشية بحثاً عن الإثارة الغريبة : من قبيل ذلك ما يروى عن الإمبراطور قتليوس الذى كان يعد لنفسه طبقاً غريباً من الطعام أسماه « خلطة منيرفا » ، وهى مؤلفة من كبدة الحداة ، ومخ الطاووس ، ولسان البلب ، وطحال الغنم . وقد جمع القيصر هذا العجب من أركان الامبراطورية من حدود فارس حتى مضائق اسبانيا^(٢٠) . وجاء الطباق الذى كان يعده الإمبراطور الاجابالوس أشد غرابة وعجبا ، فهو خليط من حوافر الخيل ، وعرف الديكة ، واعناق البغاوات ولسان العنديل .

ويروى سيوتونيوس فى سيرته عن الإمبراطور كاليجيولا أنه كان يهتاج عندما يكتمل القمر بدرأ ، وبأنه يعتلى سطح القصر لمغازلة القمر ولكأنه يغازل امرأة ، بل ويدعو القمر إلى فراشه أيضاً^(٢١) . وقد سمع كاليجيولا أيضاً وهو يهدد جوبيتر نفسه صارخاً : « خذ بيدي وإلا » . كذلك كان كاليجيولا يشيد معماراً يستحيل اقامته هندسيا لشذوذه وخروجه عن كل عقل . وكان الإمبراطور نيرون على نفس القدر من الهوس ؛ فهو يحفر ممرات فى الصخور دون هدف واضح ، ويسعى لاقامة تحصينات فى بطن البحر ، ويفكر فى إقامة طرق على قمم الجبال ويأمر بازالة بعض التلال ، ويقيم واحدة من قبالاته وسط أكوام القمامة .

وكان كاليجيولا يشكو بأن عهده خال من المصائب الكبرى والأوبئة أو الهزائم المروعة وكوارث الزلازل ، ومذابح الحرس الامبراطورى ، ويود لو أن حكمه شهد هذه المصائب جميعاً حتى يشعر بالإثارة والسعادة وحتى يذكر التاريخ اسمه مقرونا بهذه الأحداث العظام^(٢٢) .

أما عن الرواية المتواترة عن حرق نيرون لمدينة روما فهي ليست افتراء أو ادعاء اذ يذكر لنا سيوتونيوس صراحة أن نيرون قد دبر فعلا احراق المدينة لكي يشيد على رمادها قصراً ذهبياً وأيضاً كي تثير اللهب المستعرة في خياله المريض اشجاناً كتلك التي كابدها بريام ملك طروادة وهي تَحترق على يد اليونان .. وقد ألمح سنيكا في روايته « ميديا » إلى هذا المعنى بقوله « كم هو جميل أن أجر العالم معي عندما تنتهي أيامي » (٢٣).

في هذا المناخ المضطرب قلباً وقالباً كان من الطبيعي أن يشعر القياصرة أنهم وحدهم دون سواهم على المسرح ، وأصبح وقع الموت هنا وهناك مجرد تمثيلية على خشبة هذا المسرح ، وتبلدت مشاعر القوم حتى باتوا يتلهون بالموت نفسه تماماً كما يتمضغون الطعام ويرشفون الشراب أو حتى يثرثرون . وهذا الشعور السلبي تجاه الآخر هو الذي زاد من هوس الناس بالمجادة والاستمتاع بمنظر الدم وهو يراق ، وهو الذي جعل الموسرين يبحثون عن اندر الحيوانات في غابات افريقيا واسيا بأسعار خيالية ، تحملها السفن وهي مقيدة في أقفاصها لمجرد إطلاقها في السيرك ذات يوم لتفترس إنساناً سيء الحظ ، وذلك وسط هتاف ورقص العامة والخاصة وسيدهم القيصر في مدينة المدائن روما .

ويتفق الكتاب من معاصرين ومحدثين على أن قصراً الإمبراطور الروماني نفسه قد انتهى به الأمر ليصبح قفصاً كبيراً يخطو داخله الطاغية جيئةً وذهاباً وهو متورم بنوبات الغضب والجنون . وبعد أن تأله الأباطرة ولم يعد أحد يجرؤ على انتقاد أفعالهم المخبولة ، راحوا يبحثون عن سبل شاذة لاثارتهم وتلهيتهم . ويروى عن كاليغولا أنه كثيراً ما كان يقبض على أعضاء مجلس الشيوخ ويأمر

بجلدهم أمام عينيه دون أى سبب يذكر إلا للتسلية ، وبلغ به الحد أن اطاح برقاب العديد من الناس على ضوء المشاعل ذات ليلة وهو يتبختر مع بعض حريمه فى ردهة فى قصر والدته^(٢٤) . ويتوافق مع هذه التحولات شيوع ظاهرة الانتحار بالسم ، ويروى البعض أن انتحار كليوبترا وأنطونى كان واحداً من سبل الانتحار الجماعى هروباً من واقع الأمبراطورية المير^(٢٥) .

وهنا ينبغى القول بأن الرومان حكاما ومحكومين ، ضحايا وجلادين صاروا فى قفص واحد حيث صار الفاعل مفعولاً به . ويروى أن نبلاء روما كانوا فى وسط المآدب التى يقيمونها ينفجرون فجأة بالبكاء والنحيب ، وأن البعض كان يقف وسط ضيوفه يرثى نفسه باحدى المراثيات . وكان الشذوذ واحداً من دروب الهروب من الواقع القاتم ، بل أن البعض قد قاموا بقطع اعضائهم الجنسية (galli) ، والبعض الآخر من الرجال قد دخلوا فى بيوت دعارة للذكور (ludi) ، ويعلق بترونيوس على ذلك قائلاً : « هكذا كان احتقار الشباب لشبابهم »^(٢٦) ، وحفلة مجالس القوم بعث الكلام وافرط الجميع فى الشراب والسهرة ، وراحت النساء تفاخر بعدم العفة خاصة من بين الطبقات العليا فى المجتمع الرومانى من امثال فولفيا ، وجوليا ، واجريينا ودوماتيلا وغيرهن كثيرات ..

وقد صاحب هذا التدهور اعجاب الرومان بمناظر الرعب والفرع ، حتى أنه فى مزادات اسواق النخاسة كان النبلاء لا يهتمون بشراء العبيد الاصحاء أو أصحاب الطلعة البهية ، وإنما كان غرامهم بالمشوهين والممسوخين وذوى الخلقة الغريبة من أصحاب العيون الثلاثة أو ذوى الرؤوس التى تشبه رأس النعامة والأيدى كأيدي السلاحف .. ويحكى أن بعض الآباء قد عمدوا إلى تشويه

خلقة الأبناء كى يباعوا بسعر خاص فى اسواق العبيد المخصصة
للمسوخين (Teraton Agora) ..

ومع هذا المزاج الانكد راجت نخاسة الاقزام والعماليق بل والهيكل
العظمية ، وكان الأباطرة اشد الناس حرصاً على اقتناء هذه المخلوقات المسوخة ،
فقد أمر الأمبراطور كلوديوس أن ينادى المنادون فى شوارع روما ليقبل العامة
على السيرك على وعد بأن يروا ما لم تره عين من قبل (٢٧)

لقد غرقت الأمبراطورية الرومانية فى مستنقع اختلطت فيه الأشياء
بأضدادها : ما بين تخمة ومجاعة ، تواجد وغياب ، ذات وآخر ، قبح وجمال ،
تقوى وفجور ، ثرثرة وصمت رهيب ، اثاره وتبلد ، حركة وسكون ، سلب
وإيجاب ، فرح وحزن ، إحباط وإشباع . وعن هذا التشوش يقول مارتىال فى
وصفه لواحد حكم عليه باحراق يده اليمنى بأنه كان المتفرج الوحيد على
مشهد احراق ساعده الأيمن ، وكان عليه أن يصفق باليد اليسرى فى جنازة
اليد اليمنى !!

فى محاولة تشخيص الداء لابد من الاعتراف صراحة بأن طغيان القيصر
وحاشيته هو الذى جر الخراب على المجتمع الرومانى .. لقد كان الخوف من
الحاكم الأبد سببا فى الشلل الإجتماعى ، ويروى عن يوليوس قيصر ابن روما
المدلل بأنه كان يأمر بعض النبلاء بالقيام بدور « المهرج » لإدخال السرور على
نفسه المكتئبة (٢٨) . وانعدمت الثقة بين الناس ، ولم يعد سادة الأمس يأمنون
على أنفسهم ، فهم لا ينامون فى عمق خوفاً من غدر عبيدهم بهم وهم
نيام (٢٩) . وازداد النفاق والتملق ، حتى أن تاكيتوس يشبه حاشية القيصر

«بلاعقى الاحذية بلسان مسموم» فى حين أن سنيكا يصف المديح المتزايد
«بالدعاة الكلامية» (Fasclinae Lingua) .

ولم يكن توزيع قيصر القمح بالهجان والسماح للعامة بدخول السيرك مجاناً
إلا ضرباً من ضروب النفاق والهاء الناس عن مشكلات الفقر والبطالة والهوة
السحيقة التى باتت تفصل بين من يملكون ومن لا يملكون . ومن نفس
القبيل كانت المآدب العامة التى كانت تقدم للفقراء والمساكين ، والتى وصفها
المعاصرون « بولائم المهائيل » (Festa Stultorum) . وفى هذه المآدب كانت
ألسنه المحرومين تعلق الطعام الدسم وتلعن فى نفس الوقت جشع الأغنياء ، فلقد
سخرؤا من أغسطس نفسه وأحؤا إلى أنه « الخصى الذى يحكم العالم » كما
اشارؤا إلى طيبريؤس بأنه « كالماعز » الطائشة . أما عن الأمبراطور ماركؤس
اوريليؤس فقد عرف عن زوجته فاوستينا أنها كانت على علاقة أئمة بشاب
يدعى ترتوللؤس ، وفى واحدة من المآدب العامة وفى حضور الأمبراطور نفسه
ظهر أحد المهرجين يمثل دور «المغفل» وراح يسأل من حوله : « مع من
تخوننى زوجتى » فيرد القوم عليه « مع توللؤس - مع توللؤس . مع توللؤس » ،
ولكن « الغبى » لا يفهم ، فيصيح القوم « لقد أخبرناك اسمه مرات ثلاث :
توللؤس ، توللؤس توللؤس - أى ترتوللؤس .. هلا فهمت ايها الذكى » ؟

لقد جن جنون الرومان واختلت الموازين تماماً : لقد كان من عادة نيرون
أن يغلق بوابات المسرح ويبقى هو على الخشبة ليقوم بالتمثيل منفرداً ، ويظل
هكذا ساعات طوال ، والويل لمن يجرؤ على مغادرة القاعة .. وأما كاليجولا
فكان يصبر على بقاء الجمهور لمشاهدة تقطيع اوصال ضحاياه حتى يصاب

الناس بالاغماء . كذلك عرف عن نيرون ايضا أنه فى احدى حفلاته الماجنة أمر أحد العبيد بأن يضاجع زوجة سيده على مشهد من الأضياف والسيد نفسه، كما أنه أمر أحد المجالدين باغتصاب إحدى الفتيات على مشهد من الضيوف ومن والديها (٣٠) .

من هذا العرض يتضح دون لبس أن المجتمع الرومانى كان فى حالة إنتحار جماعى ، وفى حالة إضمحلال وسقوط من داخله ، وهذه حقيقة تؤيدها كل شواهد العصر .

ولم تكن الامبراطورية الرومانية تستند فى نظمها الإقتصادية إلى مبادئ سليمة ؛ فالفتوحات الكبرى فى الغرب والشرق لم يكن يحركها هدف واضح كفتح اسواق خارجية لانعاش التجارة مثلاً أو بغرض توطين العاطلين من رعاى المدينة ودهماء الريف على سبيل المثال . فالذى حدث أن سلمت هذه الولايات المفتوحة للقناصل السابقين والجنرالات المتقاعدين الذين انحصر همهم الأكبر فى إكتناز الثروات حتى عن طريق الربا وذلك على حساب أهالى الولايات وبطبيعة الحال على حساب دخل^١ خزانة الإمبراطورية ..

ويلاحظ أن هذه الإمبراطورية الكبرى لم تكن تعتمد فى الحصول على رغيف الخبز لعاصمتها من الريف الإيطالى المجاور ، وإنما كانت لقمة العيش تشحن للعاصمة من شمال افريقيا أو من مخازن الغلال فى الاسكندرية . كما وأن العملة فى القرن الثالث أخذت فى الإختفاء من الأسواق ، ليحل محلها نظام المقايضة البدائى ، وصارت رواتب الجند تدفع لهم حصة من القمح بدلاً من العملة .

إلى جانب هذا أغفلت رروما قوتها البحرية ، ولم تؤمن مجالات نشاطها
البحرى فى البحر الأحمر والبحر الأسود وسواحل بلاد الغال الشمالية ، ثم ان
البحر الأبيض نفسه سرعان ما بات نهباً للقراصنة اليونان .

وإذا نظرنا إلى الريف الرومانى حيث الزراعة وتربية الماشية والتعدين ، نجد أن
العبء كله كان يقع على كاهل العبيد ، وكان أقل صغار الملاك يملك عبداً
أو عبيدين ، فى حين أن كبار الملاك كانوا يملكون آلافاً من العبيد . وعندما
تُحل ضائقة بأحد صغار الملاك فإنه كان يلجأ إلى الإستدانة من كبار الملاك
والمرابين الذين كانوا يتقاضون ربا على الديون تتجاوز نسبة ١٢ ٪ أو يزيد . وفى
القرن الثالث بوجه خاص صار الأهالى يضجون من وطأة الضرائب الثقيلة التى
فرضتها الدولة لتغطية نفقات الفياق المنتشرة فى ولايات الامبراطورية ولسداد
أعباء الأجهزة البيروقراطية المتعددة . وقد ازداد الأمر سوءاً فى عهد الأمبراطور
دقلديانوس الذى ابتدع نظام الحكم الرباعى (tetarchy) وقسم الامبراطورية
إلى اثنتى عشرة ولاية تضم ستا وتسعين مقاطعة ، ولكل من هذه الأقسام
وتوابعها حاكمها وأجهزتها وجيوشها . وقد وقعت أعباء تمويل كل هذه
الأجهزة على كاهل دافعى الضرائب من أبناء الطبقة الوسطى وصغار ملاك
الأراضى الزراعية . وحتى هذا النظام الإدارى الصارم سرعان ما تصدع بسبب
تناطح القياصرة والباطرة فى النصفين الغربى والشرقى للإمبراطورية ، كل يتآمر
للانفراد بالسلطة ولو على جثث الآخرين من رفاقه . ومع هذه الفوضى والحرب
الأهلية زاد عدد الساسة العاطلين الذين باتوا يلقون بتأييدهم تارة مع هذا الفيلق
وأخرى مع تلك الفرقة ، وذلك فى مقابل رشوة دسمة . وهكذا اشتعلت الحرب

الأهلية حتى إن أباطرة تلك الفترة عرفوا باسم « أباطرة المعسكرات » . أما موظفوا الادارة فى الولايات فقد فرضوا « إتاوة » على الموسرين من أهل البلاد فازدادت الأحوال سوءاً على سوء .

يضاف إلى هذا أن العائلات السيناتوروية كانت معفاة من الضرائب ليس فقط على ضياعها فى إيطاليا وإنما ايضا على الضياع التى كانت تملكها هذه العائلات خارج حدود إيطاليا . وفى القرن الرابع صارت عضوية السيناتو مجرد لقب شرفى يمن به الاغسطس على من يشاء من أتباعه وخلصائه ، وقد كان سخيا فى هذا الصعيد .. وشرف السيناتوروية يقى صاحبه من دفع الضريبة عن ضياعه ، وهكذا وقع عبء دخل الخزانة الأمبراطورية كله على الطبقة الوسطى . كما أن الحكومة الرومانية فرضت على صغار الملاك ضريبة أخرى لمواجهة عبء الإدارة المتزايدة تعقيداً ، ثم ألزمت كل مدينة بالتضامن فى دفع مجمل الضريبة المقررة عليها كاملة ، وألقت بهذه المسئولية فى توفية الدفع على هيئة من مواطنى المدينة المنتخبين (Curiales) .

وقد أدى هذا النظام الضريبى إلى قصم ظهور الطبقة الوسطى ، مما أدى بالكثيرين من أبناء هذه الطبقة إلى العزوف عن الزواج حتى لا يرث أبناءهم تعاسة الآباء . ولقد اهتبل السناتوريون فرصة الخراب الذى حل بالطبقة الوسطى ، وابتلعوا الملكيات الصغيرة فى القرنين الرابع والخامس ، وبهذا تدنت اعداد وفيرة من أهل الريف إلى فلاحين معدمين تماماً . والادهى من ذلك بالنسبة لخزانة الامبراطورية أن تحايل الكثيرون على جامعى الضريبة بأن تنازلوا عن اراضيهم للسادة أعضاء مجلس السناتوكى لا تجبى عليها الضريبة ، وفى مقابل ذلك كان

السيناتور يحصل مبلغاً محدداً من المال من صاحب الأرض ليسمح له بالاستمرار في زراعتها والاستفادة بمحصولها ، وقد عرف هذا « التحايل » باسم « Patrocinium » . ومع أن الدولة كانت تكافح هذا التحايل ، إلا أن أفراد الطبقة الارستقراطية الزراعية كانوا يعرفون كيف يحشون جيوب القضاة وجامعي الضرائب برشوة دسمة . وهكذا استشرى الفساد بين رجال العدالة أيضا ، حتى أن أحد المتنكرين قد جاهر بضرورة إصدار قانون يحرم على القضاة قبول دعوات حفلات العشاء على مآدب السيناتوريين . والمحصلة أن قرى بكاملها قد خضعت تحت سطوة الارستقراطية الرومانية الجشعة ، وضاعت على خزانة الحكومة كل الضرائب التي كانت تجبى عليها سابقاً . وألهبت الحكومة ظهور من تبقوا من صغار الملاك بضرائب جديدة لتعويض ما التهمته بطون الشيوخ .

ولما أن وصل الامبراطور قسطنطين الكبير إلى الحكم منفرداً بعد قتل جميع خصومه من قياصرة وأباطرة (٣٢٤ - ٣٣٧ م) ، أظهر إنحيازاً نحو المسيحية ثم أصدر مرسوماً بإعفاء أراضى وأوقاف الكنائس من دفع الضريبة ، فراحَت الكنيسة تبسط جناحيها هي الأخرى على أراض شاسعة لتعفيها من دفع الضريبة للدولة . ولم يتعفف التاج نفسه عن هذا الإثم ، إذ كان الامبراطور - وهو لا يدفع ضريبة عن وسايه - كثيراً ما يضع أراض شاسعة تحت لوائه كي تعفى من دفع الضريبة ..

وعندما قلَّ دخل الخزانة أثقلت الحكومة على دافعى الضرائب ، ولكن الناس كانوا قد أرهقوا بما فيه الكفاية ، فلم يتورعوا عن أن يمتطروا جامعي الضرائب إذا ما حلوا بالقرى وبابل من السباب والحجارة . ولكن الحكومة ردت

بفرض القوانين والإجراءات المجحفة لتمتص دماء الطبقة الوسطى وصغار الملاك ، ولم تدر السلطات أن البقرة الحلوب قد جف ضرعها من اللبن . ومضت الحكومة الرومانية فى سياساتها المتعسفة فحرمت على صغار الملاك بيع أراضيهم أو التنازل عنها ، كما منعتهم من ممارسة حرفة أخرى غير الفلاحة ، ثم أغلقت فى وجوهم باب الدخول فى الجندية . ولا ندهش إذا علمنا أن الكثيرين من أبناء الريف قد هربوا سرّاً من ذوبهم وبيوتهم وعملوا عبيداً عند الموسرين والنبلاء والادهى من ذلك أن الحكومة أصدرت قانونا جعل الأعباء الضريبية على أبناء هذه الطبقة وراثية يتحملها الابن عن الاب (Decurio) ...

إن هذه المأساة التى حولت أبناء الطبقة الوسطى وصغار الملاك - التى هى عماد الدولة - إلى وضع أشبه ما يكون بالعبودية كان واحداً من العوامل الكبرى فى هدم بنية الامبراطورية الرومانية ..

ولم تكن الأمور بأحسن حالاً مع التجار وأرباب الحرف ، ففى نهاية القرن الثالث صدر قانون يثبت هذه الفئة من المجتمع الرومانى فى حرفتها حتى تصبح كادراً وراثياً ووضعاً اجتماعياً ثابتاً (Status) يرثه الأبناء عن الآباء رغبوا فى ذلك أم كرهوا ..

فى عصر الازدهار الامبراطورى كانت ظاهرة وفرة أعداد العبيد دليلاً على التميز وبحبوحة العيش وضماناً لسير العمل فى مختلف القطاعات ، ولكن الملاحظ أن عدد العبيد أخذ يتناقص بشكل ملحوظ فى القرنين الثالث والرابع ، مما يشير إلى أن عدد الموسرين قد تناقص بالفعل بحيث لم يعد أصحاب الأراضى قادرين على شراء العبيد ولا حتى على إطعام أفواه القلة من الذين بقوا فى

حوزتهم. واختفت جماعات العبيد الذين كانوا يعملون في الضياع السيناتورية في كل من إيطاليا وغالة واسبانيا . ولقد نتج عن هذه الظاهرة تطور هام ظل صفة مميزة للحياة الاقتصادية والأوضاع الإجتماعية في غرب أوربا على مدار العصور الوسطى : فلقد لجأ أصحاب الأراضي الزراعية إلى إبرام اتفاقات مع فقراء الفلاحين في قراهم ومع العبيد أيضا على أن يقوم هؤلاء بفلاحة الأرض مقابل حصة هزيلة لانكاد تسد الرمق من غلة الأرض ، مع السماح للبعض الآخر بشريط هزيل من الأرض يفلحونه لحسابهم مقابل خدمات أخرى ، وقد عرف هؤلاء الفلاحون باسم « Coloni » أى معمرى الأرض وهم النواة الأولى للأقنان (Serfs) الذين ارتبطوا بالأرض لا يرحونها في ظل الهرم الإقطاعى. كذلك استقدم نفر من أصحاب الأراضي في القرن الخامس بعض المتبريرين الجرمان لفلاحة الأرض بنفس الشروط السابقة ، وعرفوا باسم « Inqui- lini » ..

وإذا نحن نظرنا إلى الشعب الرومانى فى كليته من خاصة وعامة فى أواخر القرن الثالث لوجدنا شعبا متقلب المزاج ، وعلى درجة بالغة من الجبن والإنحلال الخلقي سواء على مستوى طبقات النبالة أو العامة (Plebs) ، كما وان شرف عضوية مجلس الشيوخ لم يعد يمنح لجدارة يحرزها هذا النبيل أو ذاك ، وإنما باتت السيناتورية هبةً يمن بها الامبراطور المهيب على المنافقين من إتباعه وبطانته ..

ومن الناحية الثقافية ظلت الصفوة تلوك تراث الأغريق القدامى أو تحاول تقليده ، وسرعان ماغزت الفلسفات الانهزامية من أبيقورية ورواقية قلوب السادة

الرومان. والحق أن الأغريق قد نجحوا بخبثهم فى ابهار سادتهم الرومان « الأغبياء » ، وهكذا عمل البرغاميون والمقدونيون والسلوقيون والبطالمة على إنهاك حيوية روما وامتصاص دماء الرجولة اللاتينية .

هذا عن الوجه القبيح للسجلات الرومانية ، على أنه رغم هذه الافات التى لحقت بهيكل الامبراطورية الرومانية ، فلا بد من الاعتراف بان الرومان فى وقت ما كانوا يملكون بعض الصفات الطيبة التى تركت بصماتها على صفحات التاريخ الأوروبى . ويأتى فى المقام الأول من فضائل الرومان ذلك الإحساس الباكر بقيمة الذات عن وعى متأصل فيهم مشفوع بشعور من التسامح قبالة نقائص شعوب أخرى عديدة من أغارقة وكلت وغال . لقد كان الرومان يوم سعادهم يؤمنون بأن عليهم رسالة حفظ السلام فى ولايات الامبراطورية . ولا تستطيع أوروبا أن تنكر أنها مدينة فى بقائها فى الدرجة الأولى إلى هذا المفهوم الرومانى : من يدرى المصير الذى كان سيحل بأوروبا لو أن روما لم تقاتل حتى الموت عدوها العملاق العنيد هانيبال القرطاجى وأفياله ، وبرابرة الغال قريشها وبعيدها ، والفرس ثم الهون والجرمان. ومن يمكنه أن يتنبأ بما كان سيؤول عليه الحال لو أن روما لم تحتضن تحت جناحيها بقايا الحطام الذى استنقذته بالدم المهرق من مخالب المتبربرين ؟ .

كانت تلك المفاهيم وذاك الاعتزاز برسالة روما هى أمل الرومان جميعا ، وهى أيضا عقيدة الصفوة المستنيرة من المثقفين . ويتضح هذا جلياً عندما ندرك أنه لا الآلهة الاعزاء فى لاتيوم (Latium) ولا شىء على وجه الأرض كان يسوى شروى فقير عند الرومان إلى جانب « الربة روما » (Roma Dea) . ولم

تكن عبادة « البطل » فى ظل الحكم « المواطن الأول » سوى تجسيد لفكرة العبقريّة التي ترقى بصاحبها من رتبة البشر إلى مصاف الآلهة ، تماماً مثلما كانت الحال مع الاسكندر الأكبر . ومهما قيل عن أحوال الولايات الخاضعة لروما من تعاसे وابتزاز ، فلا شك أنها كانت أسعد حالا من العاصمة ذاتها . حقيقة أن بعض الولايات مثل شمال افريقيا ومصر قد امتصت حتى نخاع عظامها من فرط جشع الفرسان والجنرالات السابقين وعصابات المرابين ، ولكن ما أن أرسى الحكم الرومانى قواعد « السلام » وسيادة القانون حتى خفت مدعاة الشكاية والضجر .

لقد توصلت الامبراطورية إلى حدودها الجغرافية الكبرى عشية ظهور المسيحية فى عهد طيبريوس (١٤ - ٣٧ م) خليفة اغسطس ، ومنذ ذلك التاريخ بدت الأحوال فى الولايات أحسن حالاً إذ سمحت لغالبية ولاياتها بقدر من الحكم الذاتى ، وأعفيت بعض الولايات من التجنيد والجزية ، وسمح لكل ولاية بإقامة مجلس محلى يضطلع بتصريف شئون الولاية ومراجعة أوامر الحكومة الرومانية . ولم يكن الامبراطور يملئ قرارات على احدى الولايات إلا بعد أن تكتشف الحكومة الرومانية أن السلطة المحلية قد اغرقت الولاية فى الديون . كما ترك الرومان دويلات المدن الاغريقية والمتأغرقة تدبر امورها وفق الأسلوب الذى اعتادته منذ القدم ، فى سلام لم تعرفه هذه المدن لفترة طويلة من الزمن . أما فى الغرب فلم تكن هناك ثمة حضارات قديمة اللهم إلا فى بعض المستعمرات اليونانية على كعب الحذاء الإيطالى ، ولذا فإن الرومان هم الذين أدخلوا فى أدغال الغرب الأوروبى مبادئ الحياة والنظم المتمدنة من طرق ممهدة ومؤسسات

إدارية وغيرها ، وعلى التدريج نمت من قلب التحصينات العسكرية الرومانية التي كانت تغطي غرب أوروبا النواة الأولى لأجمل المدن فى إيطاليا واسبانيا وغالة وبريطانيا وجنوب المانيا . .

كذلك كانت أراضى الأمبراطورية تربة خصبة لنماء وأزدهار الفكر اليونانى، ولا بد أن نتذكر أن أكثر من نصف الأمبراطورية الرومانية كان فى الأصل أرضا يونانية ورثها الرومان بعد افول نجم الأسكندر المقدونى وبنائه الكبير ، وإن النصف الآخر صار مسرحا لنشاط التجار اليونان ايضا حتى ان مدنا مثل مرسيليا صار لها اكروبول ، كما وإن جزيرة صقلية كانت عامرة بجالية ضخمة من اليونانيين الذين صبغوها بصبغة هلينية صارخة ، واتضح نفس الأثر فى الجنوب الإيطالى ، فمدينة نابلى مثلاً ؛ وهى التى تحوى قبر فرجيل شاعر الرومان العظيم ، ظلت مدينة يونانية الطابع . وسرعان ما غزت الفلسفة اليونانية بمختلف مدارسها قلوب الصفوة من الرومان ، فلقد ملكت المدرسة الرواقية^(٣١) الآثنية على قلوب بعض الاباطرة مثل كلوديوس وهادريان وماركوس أوريليوس حتى ان الأخير سجل « تأملاته » الرواقية باللسان اليونانى ..

وإلى جانب الفلسفات الوافدة من بلاد اليونان ، أصبحت روما تستقبل يوما بعد يوم عدداً لا يحصى من الأرباب والريات يزاحمون أرباب الكايتول وسيدهم جوبيتر فى روما ، فعرف الرومان إيزيس المصرية ، والأم العظمى (Magna Mater) الفريجية ، ومثرا الفارسى وغيرهم . ومع هذا السيل الذى لا ينقطع من الوافدين على روما تسللت عبادة جديدة عرف أصحابها وقتئذ « بأتباع خريستوس » أى المسيحية . وكان هؤلاء فى أول الأمر قلة من Büsää المجتمع من

بسطاء الناس والعبيد والنساء . والذي دفع هذه الفئات المضيفة إلى إعتناق هذه الرسالة الوافدة من فلسطين أنها كانت تحتضن في رحابها الفقير كما تحتضن الغنى ، والعبد مثل الحر ، والمرأة مثل الرجل .

ولقد وجد العبيد ، الذين بلغ عددهم عدد المواطنين الأحرار تقريبا ، أن هذه العقيدة الجديدة لاتقييم وزنا للرق والنخاسة في ملكوت السموات ، ولم تتردد في المجاهرة بأن عبدا صالحا يحق له أن يصبح ابا روحياً للجميع من الأمير إلى الفقير . أما النساء فقد وجدن في سيرة العذراء مريم تكريماً للمرأة ، في حين أن المجتمع الروماني كان يضع المرأة دوماً في مرتبة دونية بالنسبة للرجل . هذا وقد جاءت الرسالة الجديدة في وقت تدهور وإنحطاط النظم الرومانية المختلفة واشتداد وطأة السادة على الطبقتين الوسطى والدنيا ..

كان طبيعياً أن يتمتع السادة الرومان من هذه العقيدة الغريبة التي تطاولت على آلهة الكابيتول ونهت عن تقديم الاضحيات لهم ، ثم ما لبثت أن استخفت بملوك هذا العالم ومن بينهم « المواطن الأول » والمؤهله ابن روما البار . ومن ثم فإن الحكومة الرومانية شعرت بناقوس الخطر يدق على الأبواب ، فسارعت بمطالبة رعاياها أن يبرهنوا على الولاء والطاعة للامبراطور بأن يقوم كل مواطن بإحراق حفنة من البخور عند قدمي تمثال الأمبراطور الحاكم دلالة على الولاء والخضوع .

ولكن المسيحيين رفضوا أداء هذه المراسيم الوثنية خاصة في الولايات ، فجن جنون حكام الولايات ، وظنوا أن هؤلاء القوم باتوا يتآمرون بالسوء ضد روما وسيد الرومان . وبالنسبة للبلاط الامبراطورى فإن هذا الموقف الرافض كان

يرقى إلى درجة الخيانة العظمى .

وهكذا بدأت موجة الاضطهاد التي ابتدأها الامبراطور دقلديانوس سنة ٢٨٤ م والتي اكتوت بنيرانها ولايات المشرق على وجه خاص . ورد الكهنة المسيحيون على ذلك بأن دعوا أتباعهم في الدين الجديد إلى الامتناع عن خدمة الدولة وعن الدخول في الجندية في موجة من العصيان والتمرد (٣٢) ...

وازدادت مشاعر الشك والريبة في قلوب الرومان خاصة وأن أبناء هذه العقيدة الجديدة كانوا يلجأون إلى الكهوف وجحور الأرض يمارسون فيها شعائهم الغريبة ويترنمون بالحن وأدعيات غير مفهومة . وراحت غوغاء المدن تروج عن هذه الجماعة روايات مختلفة ومختلقة عن ممارسات سرية تثير التساؤل، وعليه فإن الحكومة الرومانية ضربت هذه الجماعات بالحديد والنار ، بل أن أعداداً كبيرة منهم قدمت فريسة للأسود المجموعة في الحلبة الرومانية وسط صياح وهتافات الجماهير المخمورة .. ووجد في روما من يقول بأن أرباب الكابيتول أضحوا أشد عطشاً لدماء هؤلاء المارقين ، وكان لابد من ارتواء الآلهة واطفاء ظمأها وغضبها بدماء الذين كانوا لهم من المنكرين .

ولم تهدأ الحال إلا بعد أن أصدر الامبراطور قسطنطين الكبير مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م بوقف اضطهاد المسيحية والسماح لاتباعها بممارسة شعائهم جنباً إلى جنب مع الوثنيين دون أن يتحرش طرف بالآخر (٣٣) . على أنه انصافاً للحقيقة التاريخية في هذا المقام لابد من التأكيد على أن مجموع عدد الشهداء الذين سقطوا في القرون الثلاثة الأولى في عصر الاضطهاد لم يبلغ جزءاً واحداً على المائة من أعداد المسيحيين الذين أمرت الكنيسة الرومانية

ابتداءً من القرن الحادى عشر بإحراقهم بتهمة « الهرطقة » والخروج عن التعاليم القويمه ، وذلك بواسطة محاكم التفتيش ، كما سنبين فى فصل لاحق .

يبقى بعد هذا العرض أن نتوقف قليلاً عند اسباب سقوط الحضارات ومن بينها الحضارة الرومانية معرجين على رؤية كل من العلامة عبد الرحمن بن خلدون ، والفيلسوف هيغل ، وماركس ثم أرنولد توينبى :

يرى العلامة عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) فى «مقدمته» أن للدول أعماراً تماماً كالكائن الحى « من التزايد إلى سن الوقوف ، ثم إلى سن الرجوع .. وإذا ما شاخت الدولة لن تقوم لها قائمة ، وهكذا شأن كل دولة لابد أن يعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة وتقلص ظل الغلب ، فينقسم اعياصها أو من يغلب من رجالها ودولتها وتتعدد فيها الدول ... ولكل أجل كتاب » (٣٤) . ومن عوامل إنهيار الحضارات ايضا عند ابن خلدون اتساع رقعة الدولة مما يحول بين الحاكم وفرض سلطانه على الأجزاء النائية . هذا إلى جانب إئقال كاهل المحكومين بالضرائب أو الجباية . وجميع هذه العوامل التى عددها ابن خلدون تنطبق على أحوال المجتمع الرومانى فى أواخر القرن الثالث للميلاد كما بينا سلفاً . .

أما جورج فلهلم هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١ م) فإنه يعزى مأساوية الحضارات على مدار التاريخ إلى التعارض بين الهوى والواجب . لقد عجز الإنسان على درب التاريخ عن حل هذه الإشكالية من الصراع ، لأنه لم يملك الشجاعة التى تعينه على تجاوز هذا التعارض بارتفاع حر يصل به إلى تلكم

النفس الجميلة الزكية التى تهزم التناقض والصراع بالحب .. حب المصير والمصلحة الإنسانية - هنالك يكون السمو وغفران الخطايا حيث يلتئم الكلى بالخاص (٣٥).

ولم تكن روما بمواطنها الأول الأبد وبشييوخها الفاسدين وارشتراطيتها الزراعية الجشعة ، وقناصلها المرابين ، وعامتها المتنطعة الكسولة بقادرة على هذا « التجاوز » ، ومن ثم باتت روما أسيرة لسراب قديم صوره لها فرجيل فى ملحمة اينياذ الأسطورية ، غير مدركة لخطورة حاضرها وما يهدد مستقبلها ..

وطبقا لمقولات كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣ م) يمكن القول بأن الإنسان الفرد فى اوقات المحنة الرومانية الكبرى فى أواخر القرن الثالث سواء فى العاصمة أو فى الولايات لم يملك حيلة للفرار من شعور « الإغتراب » الذى بات يستحوذه دون أمل فى الانعتاق . وهكذا فان رجالات الجيش وأبناء المعسكرات والطبقات الكادحة من الفلاحين وأرباب الحرف والعبيد الذين بلغ عددهم نصف سكان روما والعامة اللاهية المخمورة ، لم يتمكنوا من مغالبة هذا الشعور القاتل ، ولم تمارس فئة واحدة من هذه الطبقات « فاعلية » تسمح للمجتمع الرومانى أن يتجاوز اللحظة الحرجة والتفاعل إيجابيا مع الأخطار المحدقة بالامبراطورية ، ومن هنا كانت الحال شبيهة بحالة الانتحار (٣٦) . والأمثلة على ذلك قد سقناها فى موضعها .

وإذا وصلنا إلى المؤرخ أرنولد توينبى (١٨٨٣ - ١٩٧٥) ، نجده يحلل أسباب انهيار الحضارات بصفة عامة ، معرجاً بطبيعة الحال على الأمبراطورية الرومانية ، وهو يرى أن التدهور هو محصلة الفشل فى محاولة الإنسان العلو

بإنسانية من درك الحيوان إلى المستوى الآدمى بالمعنى الحضارى . ويتمثل هذا الفشل فى فقدان القدرة على الخلق ، وفى إفلاس القادة ، وفى ذبول القوة الدافعة عند الجماهير .

ويأتى التمزق دواما من داخل المجتمعات ، وليس من الخارج ، وذلك عندما تشعر الأقوام بأن السحر البراق الذى كان يزدان به القادة قد علاه الصدا ولم يعد يخدع أحداً . ولا يأتى التصدع ابداً من الخارج على يد قوة فتية غازية ، وإنما ينحصر ماتقوم به الجماعة الغازية فى توجيه الضربة الأخيرة لكيان انتحر مسبقاً . من أسباب الأنهيار ايضا - عند نفس الكاتب - فقدان الإنسجام بين عناصر المجتمع ، مما يؤدى إلى فقدان البصيرة وما يتبع ذلك من إصابة الجماعة بالعجز عن تقرير مصيرها ..

هذا إلى جانب أن القلة التى كانت قبلاً تتسم بشيء من الخلق أو المبادأة تسمى مع مرور الوقت جامدة على ما هى عليه ، عاجزة عن الإستجابة للتحديات الجديدة (Challenge Response Argument) ، بل ان هذه القلة الحاكمة تتشجع على مكاسبها ومناصبها القيادية التى اهتملتها هى وزمرتها من المتفعين ، وبذلك فإن هذه القلة تتخذ من كل جديد موقفا سلبيا جامداً ، وهذا موقف لا أخلاقى يتسم بالانانية وعبادة الذات ...

كذلك يلاحظ فى مسار الحضارة أن بعض المجتمعات يطيب لها أن تتوقف عند لحظة تاريخية مواتية فى عهد قديم إلى حد الافتنان أو التحجر ، دون النظر إلى المتغيرات الدينامية التى تجدد كل يوم والتى تفرض تحديات جديدة تستوجب استجابات بأسلحة وتقنيات تكافىء هذه التحديات الجديدة ، وهذا العجز

ينطوى على خطورة بالغة قد تؤى ببعض الجماعات إلى ضرب من ضروب عبادة الأصنام القديمة ، من بطولات بادت ولحظات ذهبية قد ولت ، وهذا وضع آثم وقعت فيه اثينا وروما ، ومن ثم ينطبق عليهم القول : « لا يوضع النبيذ الجديد فى الزجاجات القديمة البالية ، ففى هذا هلاك للإناء البالى وانسكاب للنبيذ أيضاً (٣٧) » ..

وبعد الإنهيار يأتى دور الاحتضار فى المجتمعات ، ومن مظاهر ذلك انتشار الفصام فى جسم المجتمع ، مثلما كانت الحال فى المجتمع الرومانى بطوائفه وطبقاته وسادته وعبيده وجنده المرتزقة من الجماعات المتبربرة . ويواكب هذا الخلل انفصام فى الروح حيث تظهر الفلسفات الانهزامية مثلما كانت الحال مع الرومان الذين كانوا تارة ابيقوريين وأخرى رواقيين أو كليبيين . ومع اعتراف قسطنطين الكبير بالمسيحية تسربت إلى المجتمع الرومانى اتجاهات مغالية فى رواقيتها باتت تستعذب الموت تحت شعار « الاستشهاد » وما هذا فى حقيقة الأمر إلا ضرب من ضروب الإنتحار هروباً من تحديات الأوقات .

وتنعكس مظاهر الإنحطاط فى نتاج المجتمع ، فترى اللغة وقد اعتلت اسلوبية واجرومية ، والأدب وقد غث ، والفن وقد صار سوقياً غوغائياً ، والفن وقد وصل إلى درك الإسفاف ، وتلك هى علامات النهاية !

الفصل الثانى

عالم متبرير

هجرات الشعوب المغولية والجرمانية - الهون - القوط

الوندال - صورة للعصر من آداب العصر

ظلت الشعوب الجرمانية فيما وراء الدانوب والراين فى سلام مع الامبراطورية الرومانية خوفاً من فيالقها التى لانهزم ، ولكن هذا لم يمنع من حدوث صدامات بين الحين والآخر بين الطرفين ، وجاء أول صدام فى نهاية القرن الثانى قبل الميلاد وذلك عندما تحرك قبائل الكمبرى والتوتون من شواطئ بحر الشمال قبالة حوض البحر الأبيض المتوسط مهددة فى هجراتها ولايات الامبراطورية خاصة فى غالة . وقد وقع صدام بين فيالق الجيش الرومانى بقيادة ماريوس وبين جماعة الكمبرى سنة ١٠٢ ق . م عند بلدة إكس - إن - بروفانس ، ثم عند فرسيل سنة ١٠١ ق . م ، ولم تكن النتيجة حاسمة لأى من المعسكرين . وفى سنة ٥٨ ق . م استنجد زعماء غالة بيوليوس قيصر لحمايتهم من هجوم زعيم جرمانى اسمه اريوئست فى منطقة الألزاس . وقد لى قيصر النداء وتصدى للزعيم الجرمانى الجديد واجبره على التقهقر وراء الراين^(٣٨) . وتابع قيصر حملاته على منطقة الراين سنة ٥٥ ق . م وتبعه بعد ذلك أغريبا سنة ٣٨ ق . م ، ثم دروسوس زوج ابنة الامبراطور أغسطس الذى نجح فى إخضاع المناطق

الواقعة بين نهر الراين واللب وإن كان قد قتل أثناء المعارك . بعد مقتل دروسوس خلفه فى القيادة شقيقه طيبيريوس الذى عبر نهر الدانوب وانقض على منطقة يوهيميا . غير أنه فى العام التاسع ق.م زحف الجرمان مرة أخرى تحت قيادة ارمنيوس ، فتصدى له الرومانى فاروس ، ولكن الجرمان أوقعوا بالرومان هزيمة ساحقة فى موقعة تيتوبرجرفالد ، واضطر الرومان إلى أخلاء الشط الأيمن لنهر الراين . ولما أعتلى طيبيريوس العرش الأمبراطورى قرر اتباع سياسة دفاعية فى تلك المناطق بدلاً من السياسة الهجومية السابقة ..

وتعكس كتابات المعاصرين الشعور العام فى الامبراطورية الرومانية تجاه الخطر الجرمانى الذى بات يهدد كيان « السلام » الرومانى : فلقد عبر أوغيد وبلينى الأكبر ، والفيلسوف سنيكا ، والمؤرخ تاكيتوس عن مخاوفهم من زحف القبائل الجرمانية ، مع الإشادة بشجاعتهم وأخلاقهم التى كانت - فى رأيهم - كافية للقضاء على المجتمع الرومانى الذى استشرى فيه الفساد^(٣٩) .

على أن الحدود مع الجرمان قد شهدت هدوءاً نسبياً فى القرن الثانى للميلاد ، خاصة بعد أن نجح الامبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧ م) فى إخضاع منطقة داكيا ، وبعد أن أرسى الأمبراطور انطونينوس ييوس دعائم السلم على حدود الدانوب (١٣٨ - ١٦١ م) ، حتى ان الخطيب اليوس ارستيدس امتدح حصافة الأمبراطور ، مفاخراً بعودة السلام الرومانى ، ومهدداً بالعصا الرومانية الغليظة لكل من تسول له نفسه التناول على مدينة المدائن روما فهى الأم العظمى والموئل لسائر شعوب الأرض ، والتى بوسع الأغريقى والمتبرير جميعا التعايش تحت مظلتها سواء بسواء^(٤٠) .

ورغم هذا فإن الحقيقة الثابتة هي أن شوكة جرمانيا كانت آخذة في القوة، فلقد تحركت جماعة من القوط من على ضفاف نهر فستولا قبالة شواطئ البحر الأسود، وتبعتها جماعات مختلطة الهوية من القواضي (Quadi) والماكرومان الذين عبروا نهر الدانوب وحاصروا المدن ، حتى أن أهالي روما نفسها قد شعروا بالفرع رغم جهود الإمبراطور ماركوس اوريليوس (١٦١ - ١٨٨ م) في تعزيز نقاط الحدود على نهر الدانوب^(٤١) . ولم تنقطع تخرشات الجرمان على حدود الدانوب والراين، ففي عهد الإمبراطورين فاليريان (٢٥٣ - ٢٦٠ م) وجاليان (٢٦٠ - ٢٦٨ م) تمكنت جماعة من الفرنجة من تخطيم حواجز الراين والعبور إلى غالة ومنها إلى اسبانيا حيث استولت على بعض السفن الراسية في البحر المتوسط وأبحرت بها إلى شواطئ مورتانيا. كذلك هجمت جماعة أخرى من الجرمان على إيطاليا عبر ممرات جبال الألب ونهبت مدن الشمال الإيطالي وصولاً إلى مدينة رافنا ، إلى أن تصدى لهم الإمبراطور جاليان عند مدينة ميلانو .

وفي سنة ٢٦٩ م إجتاح القوط مناطق الدانوب واشتبكوا مع الإمبراطور كلوديوس (٢٦٨ - ٢٧٠ م) عند بلدة نيش في البلقان . وفي نفس الوقت زحفت جحافل أخرى من الفرنجة والألماني على غالة وخربت قرابة ستين مدينة من بينها باريس وبواتييه وبوردو ، ورغم جهود الإمبراطور بروبوس (٢٧٦ - ٢٨٢ م) إلا أن غالة صارت نهباً للجرمان فعمت فيها الفوضى والجماعات ... ولقد هدأت لحين جبهة الراين في عهود الأباطرة دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) ، وماكسميان (٢٨٦ - ٣٠٥ م) ، وقسطنطين الكبير (٣٢٤ -

٣٣٧ م) ، ولكن الجرمان ظلوا يتسللون إلى قلب شبه الجزيرة فى البلقان ، واضطر الأمبراطور قسطنطين الثانى (٣٣٧ - ٣٤٠ م) إلى قبول هؤلاء القوط « كمعاهدين » (Foederati) فى خدمة الامبراطورية . ثم ارسلت السلطات الرومانية بالمبشرين الذين نشروا المسيحية بين هؤلاء القوط على المذهب الاربوسى الذى كان الأمبراطور منحازاً إليه (٤٢) .

وعندما زحفت حشود من مغول آسيا يعرفون باسم الهون (Huns) على شرق أوربا اربها القوط بسياطهم وخناجرهم ، فاستصرخ القوط السلطات الرومانية كى تسمح لهم بعبور الدانوب هروباً من الهون . ولقد سمح امبراطور النصف الشرقى للأمبراطورية فالنس (٣٦٤ - ٣٧٨ م) للقوط بالعبور سنة ٣٧٦ م ، الأمر الذى أثار هياجاً شديداً بين المعاصرين ، عبر عنه الكاتب المعاصر اميانوس مارسلينوس بقوله « إن مطلب القوط لا ينم عن خطر يتهددهم بقدر ما يفصح عن أمل يراودهم ... إن رجال البلاط المنافقين قد صوروا لصاحب الجلالة أن شعبا تعيساً من أهل الأرض يستصرخة طلبا فى الرحمة القيصرية والسماح لهم بالاستقرار على تراب تراقيا ، وهم بهذا يحققون آمال شعب متوحش ... ان تلك الزخوف الجرمانية لا تصلح بحال للخدمة كجند مرتزقة ، بل انهم يوما ما سوف يكونون السبب فى تحطيم الامبراطورية (٤٣) . ويقارن اميانوس عبور القبائل الجرمانية لنهر الدانوب بعبور الميديين - فى القديم - لمضيق الدردنيل ، ولا يخفى الكاتب سخطه الشديد على السلطات المسئولة فى الامبراطورية بسبب تقاعسها عن ردع الخطر قبل فوات الأوان .

من جانب آخر نجد نفراً من حملة المباخر وخصيان القيصر يمتدحون
الأمبراطور فالنس لتسامحه وحكمته فيخلعون عليه لقب « الأمبراطور المحب
لجنس البشر » ، بل إن الشاعر ثيمستيكوس يلقبه « بالقوطى » الذى جمع بين
الرومان والسكيزيين^(٤٤) ، ويقدر عدد القوط الذين عبروا نهر الدانوب إلى قلب
البلقان بحوالى مائتى ألف ، دون حساب عدد ذريتهم وعبيدهم^(٤٥) .

كان من ضرب المستحيل تزويد هذه الأعداد الغفيرة بما يسد رمقها ، ولذا
فإن القوط انقضوا على أهالى القرى ينهبون ويسلبون فخربوا مناطق مؤزىا
وتراقيا ، وضج الأهالى من غلظة القوط . أمام هذا الموقف المتدهور أفاق
الأمبراطور فالنس من غيبته وسارع بإعداد حملة قادها بنفسه لتقليم أظافر
القوط . والتقى الطرفان عن مدينة أدرينوبل فى ٩ أغسطس ٣٧٨ م ، وانتهت
المعركة بكارثة مهولة ، فلقد حلت الهزيمة كاملة بالجيش الرومانى ، وقتل
الأمبراطور فالنس فى أرض المعركة . وبعدها دانت البلقان للقوط فنهبوا البلاد ،
وزحفت جماعة منهم حتى شارفت أسوار القسطنطينية نفسها . .

أثار مقتل امبراطور النصف الشرقى للامبراطورية على أيدي القوط ردود
فعل عنيفة فى النصف الغربى للأمبراطورية ، وعلت الأصوات تطالب امبراطور
الغرب جراتيان بضرورة التحرك للانتقام من القوط . ومن بين الأصوات التى
دوت كان امبروز اسقف ميلان الذى صاح يقول : « تلك هى علامات الساعة ،
لا بل هى نهاية العالم ... ها هو صليل السيوف يدق كل مكان .. لقد مالت
علينا شعوب القوط والآلان (Alans) ، وانتهكت حرمت إليريا ، ولن ينتهى
الأمر عند هذا الحد »^(٤٦) .

واتساقا مع روح العصر فإن جميع المصادر الكاثوليكية المعاصرة تعلق سبب الهزيمة المنكرة التي لحقت بالامبراطور الشرقي فالنس باعتناقه للمذهب الأريوسى « المهترق » أى المخالف لجوهر العقيدة الكاثوليكية^(٤٧).

بعد مصرع فالنس اختار الامبراطور الغربى جراتيان جنديا مرموقا ليحكم النصف الشرقى للأمبراطورية وهو ثيودوسيوس الذى لمع نجمه بعد أن حقق عدة انتصارات على قبائل السرماتيين . واتفق على أن يتولى جراتيان تأمين حدود الراين ، وأن يقوم ثيودوسيوس بتجميع فلول الكتائب المنهارة فى الشرق لطرد القوط من سالكونيكا ومؤنيريا العليا . ونجحت هذه السياسة فى إيقاف زحف القوط ولو إلى حين . وقد لجأ امبراطور القسطنطينية الجديد ثيودوسيوس (٣٧٨ - ٣٩٥م) إلى سياسة الدبلوماسية فرحب فى بلاط بيزنطة بملك القوط أثانارك بعد أن خلعه شعبه ومنحه حق اللجوء إلى القسطنطينية لعله يفيد به فى معالجة المشكلة القوطية التى باتت تهدد كيان الأمبراطورية فى الشرق والغرب على حد سواء . ولكن هذه السياسة المهادنة قوبلت باستنكار شديد ، إذ كيف ترحب القسطنطينية بعدوها اللدود الذى كان بالامس يتوعدها بالغزو والدمار ؟ وفى نهاية الأمر نجح ثيودوسيوس فى إبرام اتفاق مع القوط على أن يسمح لهم بالاستقرار فى منطقة تراقيا مقابل تزويد الجيش الامبراطورى ببضع كتائب قوطية . وهنا نسمع صوت الشاعر ثيمستيكوس يرتفع من جديد فى مديح ثيودوسيوس وحكمته ، مبرراً خطة الامبراطور لأنها تجعل القوط يفلحون أرض تراقيا بدلاً من قتلهم للفلاحين هناك . وقد عبر عن نفس رأى الخطيب الوثنى باكانوس فى قوله بأن الامبراطور الحبيب قد نجح فى تحويل أعداء الأمس إلى

خدم للامبراطورية وإلى عمال لفلاحة الأرض أو إلى جند يسهرون على حراسة الحدود (٤٨) ...

إن الخطر الذى بات يهدد العالم الرومانى ، رغم المحاولات اليائسة لاحتواء هذا الخطر من جانب الامبراطور ثيودوسيوس - قد ولد شعوراً من القلق والكآبة فى وجدان مفكرى القرن الرابع : فلقد ظهرت آراء تشكك فى فكرة الخلود التى خلعها الشاعر فرجيل على مدينة روما ، وراح الكثيرون يستشعرون مكروها يحل من السماء على أرض المدينة الخالدة . ومن البارزين فى هذا التوجس الشاعر يوفنقوس من جماعة « الأناشيد السبيلينية » التى نادى بأن لا خلود لشيء على وجه الأرض ولا حتى لروما ذهبية المولد نفسها . على أن امبروز اسقف ميلان وقف مناهضاً لهذه الروح المتشائمة القاتمة ، فكتب مقالاً بعنوان « الواجبات » سنة ٣٨٩ يحث فيه المواطنين الرومان على مناهضة البرابرة أعداء الإنسانية الذين يسومون العذاب لمن يقع فى أيديهم من الرومان أسيراً . وهو أيضاً يحث المواطنين على التحلى بفضيلة حب الأرض وتراب الوطن وافتداء الأسرى بالمال ، إذ لم يعد الأمر مجرد دفاع عن روما فحسب وإنما توجب على الكل أن يتصدى لقوى البغى والعدوان التى باتت تهدد الإنسانية جمعاء سواء كان ذلك فى القسطنطينية أم فى روما أم على حدود الراين أو الدانوب (٤٩) ...

وقد تحققت هذه المخاوف جميعاً ، فبعد أن استخدم الأمبراطور ثيودوسيوس كتيبة من القوط فى صراعه ضد خصمه يوجنيوس المطالب بالعرش ، ازدادت شوكة القوط فى العاصمة نفسها إلى حد أن الأمبراطور قد اضطر فيما بعد إلى إبعاد هذه الكتيبة إلى أراضى الدانوب . ولكن هذا الإقصاء من العاصمة أغضب

القوط فتجمعوا حول زعيم جديد خطير يدعى الارك ، وراحوا يغيرون على أراضي تراقيا وتساليا واتيكا والمورة . وأصبحت بلاد اليونان بخراب أتى على الأخضر واليابس . ولقد فسر الكتاب الوثنيون المعاصرون هذا الدمار الذى أوقعه القوط ببلاد اليونان على أنه مؤامرة دنيئة حاكها الأمبراطور الشرقى ثيودوسيوس مع القوط للقضاء على بقايا الحضارة الهلينية الوثنية^(٥٠) . والمعروف أن ثيودوسيوس كان شديد الوطأة على الوثنية ومعابدها وكهنتها فى مختلف الولايات الخاضعة للنصف الشرقى للإمبراطورية ، فلقد أصدر سنة ٣٩٢ م مرسوما امبراطوريا بتحطيم معبد السيرابيوم الشهير فى مدينة الأسكندرية ، كما أمر بإيقاف تقديم الأضحيات فى المعابد ، ونعت الوثنية صراحة بأنها « شعوزة سوقية » (Gentilicia Superstiti) . سقطت مدن اليونان الواحدة تلو الأخرى فى أيدي آلارك وباتت كورنثة وارجوس وميغارة واسبرطة وبيريه خرابا ياباً . ولم تملك أثينا إلا أن تفتح بواباتها للغازى القوطى الجبار ، ويقال أن ألارك قد أمر رجاله بعدم تخريب أثينا لأنه قد أصيب بالذعر عندما وجد نفسه يحملق فى تمثال الربة أثينا ومن ورائها البطل الملحمى آخيل سيد الشجعان فى حرب طروادة ...

لقد فزع المعاصرون أمام ذلك الخراب الشامل الذى حل بأرض اليونان على أيدي المتبريرين ، فكتب جيروم سنة ٣٩٦ م رسالة تفيض حزنا وأسى ينعى فيها بلاد اليونان بقوله : « أن لى أعداد المآسى التى حلت بزماننا والحزن يعصر قلبى ، فعلى مدى عشرين عاما متتالية والدماء تسفك بين القسطنطينية وجبال الألب اليوليانية .. لهفى على العذارى والأمهات ، وعلى كل مواطن حر

أصيل سيق عبداً فى أيدى البرابرة الشقر .. لقد قيد الاساقفة والقسيسون بأغلال المذلة والمهانة ، ودمرت بيوت العبادة وحولت جوانبها المقدسة إلى اسطبلات للخيول .. لقد تدنست ايقونات القديسين ، وعمت الاحزان فى كل مكان ، وعلا النحيب فى مختلف الأركان ورائت على الكل علامات الموت .. أين شجاعتك كورنثة ، وابن انتم يا أبطال اثينا وصناديد الأركاد (٥١) ؟ .

غير أننا نجد عند زعيم الفلاسفة الوثنيين آنذاك وهو ليبانوس تفسيراً لتلك الأحداث المهولة ؟ فهو يرجع البلاء كله إلى غضب الآلهة الوثنية التى استشاطت غضبا عندما اغتال المسيحيون الامبراطور جوليان الذى نبذ المسيحية وارتد إلى الوثنية . فلو أن المعابد القديمة بقيت مفتوحة الأبواب تتقبل الأضحيات للأرباب لما سمحت الآلهة بأن تمس روما بهذا الجحيم من الحديد والنار (٥٢) .

توفى الامبراطور ثيودوسيوس سنة ٣٩٥ م بعد أن قسم الامبراطورية بين ولديه : أركاديوس للنصف الشرقى ، وهونوريوس للنصف الغربى . ولقد استفحل خطر القوط فى القسطنطينية فى عهد اركاديوس إذ تزوج هو من ابنة لأحد ضباط الجرمان ، بينما تغلغل القوط فى قلب الجيش الرومانى وملأوا أجنحة القصر الامبراطورى ، وعلا نجم زعيمهم غايناس الذى أصبح يقبل ويعين الوزراء كيفما يشاء . وثار الرأى العام فى القسطنطينية ضد هذا الوضع الخطير والمهين . وتحرك اسقف مدينة قورينا ويدعى سينسيوس من اراضى ليبيا قاصداً الامبراطور على السفور لكى يوقظ الامبراطور الصبى الغافل من غفلته ، والقى أمامه وعلى مسمع من رجال بلاطه مقولة جريئة هاجم فيها تسلط القوط

على أمور الدولة ، ساخرأ فى نفس الوقت من مظاهر الترف والدعة التى تردى فيها الامبراطور وبلاطه من زمرة المنافقين :

« هل يدان المرء فى هذا القصر لأنه يقول قولة الحق ، أم لأنه يتعفف عن أساليب النفاق التى تدغدغ آذان الجالس على العرش ؟ ... وما تلك الصورة التى أنت عليها يا صاحب الجلالة .. غريب هذا الذى أنت عليه كالطاووس المصفد باحمال من الحجر الكريم ، غير مدرك أن وهج الياقوت يسلب سلطان العقل ، وهو بعد سجين ... ليس غريباً والحال كذلك أن تصبح الأرض وترابها خشنة الملمس على قدميك الناعمتين أيها الأمير ، لأنك لاتستطيع السير إلا على بسط موشاة بخيوط الذهب الناعم ... قم أيها الراعى واحترس من الذئاب فهى وإن احتضنت من صغرها وبدت مستأنسة فلا بد يوماً أن تكشر عن أنيابها لتلتهم القطيع ، ثم لا تلبث أن تنقض على الراعى نفسه لتأتى عليه تماماً كما فعلت مع القطيع ... » (٥٣) .

لقد أتت مقولة سينسيوس أكلها فاثارت المشاعر فى العاصمة الشرقية ضد القوط وزعيمهم غايناس ، وفى نهاية سنة ٤٠٠ م دبرت السلطات مؤامرة تم فيها إغتيال غايناس وأتباعه فى ضربة واحدة . وقد هلل الناس فرحاً ، وكتب الشعراء قصائد طوالاً بهذه المناسبة . وتصور الناس أن الغمة قد انقشعت وما كانوا يعلمون أنه بعد غايناس سوف تبتلى الامبراطورية بقوطى آخر أشد وأنكى ألا وهو آلارك ..

لقد جاهد النصف الشرقى من الامبراطورية الرومانية لكى يعايش الخطر القوطى دون أن يصاب بالانهيار . وساعد على ذلك الصمود موقع بيزنطة

الاستراتيجى المتميز ، إلى جانب اسوارها العالية الحصينة ، كما لعبت الدبلوماسية البيزنطية الذكية دورها فى التخفيف من غلظة الزعماء الجرمان تارة بالهديا وحفلات الاستقبال فى القصر الامبراطورى وأخرى باستضافة أبناء الزعماء ضيوفاً فى القصر الامبراطورى حيث تلقنوا أساليب الحضارة وبروتوكولاتها ..

بعد أن قسم الامبرطور ثيودوسيوس الامبراطورية إل قسمين جاء النصف الغربى من نصيب ابنه هونوريوس الذى كان بدوره يستعين بزعيم جرمانى خطير اسمه ستيليكون كقائد أعلى للجيش الرومانى . وكان ستيليكون يخطط للاستيلاء على إقليم إيليريا على حساب النصف الشرقى للامبراطورية . ولهذا فإن السلطات فى النصف الشرقى لم تجد غضاضة فى تشجيع الزعيم القوطى آلارك على التصدى لخطط ستيليكون ، بل وأنعمت عليه بلقب « سيد الجند الأعلى فى إيليريا » (Magister Militum Illyicum) .

أما آلارك فقد قرر أن يزحف غربا ليستولى على إيطاليا نفسها ، فعبر برجاله جبال الألب اليوليانية ، وخوفا من الحصار والمجاعة اضطرت مدن الشمال الإيطالى إلى فتح بواباتها للغازى القوطى الجديد ، بينما جمع الموسرون كنوزهم ولاذوا بالفرار بحرا إلى جزر سردينيا وصقلية اتقاءً لغائلة المتبررين^(٥٤) .

فى هذا الجو المخيف نشطت صنوف شتى من الأراجيف ، فهرع الكهان لاستشارة آلهة المعابد ، ولكن وحيها نطق بسوء المصير . وقد واكب ذلك الشعور بالهلع علامات طبيعية من خسوف للقمر ونشوب للحرائق وهبوب للعواصف هنا وهناك ، وفسر الناس كل ذلك بنذير للسوء القادم . وانتقلت

حمى الفرع إلى القصر الامبراطورى الذى نقل من روما إلى ميلان ، وفكر أفراد الحاشية فى الهرب . ولكن ستيليكون أقنع الامبراطور هونوريوس بضرورة البقاء فى ميلان لرفع معنويات الشعب ، ثم روج ستيليكون رواية خيالية مؤداها أن الذئبين قد هاجما الامبراطور هونوريوس وهو يتجول فى ضواحي ميلان ولكن الذئبين قد قتلا بمعجزة ، وعندما بقرت بطنا الذئبين عثر بداخلهما على كفين آدميتين . وقد بادر عرافو القصر بتفسير تلك العلامة بأن يدى زعيمى القوط والوندال سوف تقطعان بواسطة الجيش الرومانى ..

وقعت مناوشات بين الزعيم الجرمانى آلارك وبين الجيش الرومانى بقيادة الزعيم الجرمانى ستيليكون ، وفى آخر الأمر اتفق الزعيمان على غزو اقليم إلبيريا سويا . ولما أن فاحت أخبار هذا الاتفاق ارتفعت الأصوات فى الغرب تتهم ستيليكون بالخيانة ، وقد عبر عن ذلك صراحة القديس جيروم مؤكدا أن هذا المتبربر قد جر الخراب على روما^(٥٥) .

كما أن الجند الرومان عبروا عن تذرهم بسبب ازدياد أعداد الجرمان فى صفوف الجيش الرومانى ، واضطر الامبراطور هونوريوس إلى تدبير مؤامرة تم فيها اغتيال ستيليكون فى ٢٢ أغسطس ٤٠٨ م . وبعد انقضاء عشرة أعوام من اغتيال ستيليكون كتب الشاعر الوثنى روتيليوس ناماتيانوس أن المجرم الحقيقى الذى ساهم فى تدمير الامبراطورية الرومانية والذى كان يخفى فى طوية نفسه خلاف ما يظهر هو ستيليكون نفسه الذى وضع روما رهينة فى يده قبل أن تسقط فى أيدي آلارك^(٥٦) . وخير دليل على خيانة ستيليكون أن الفرق الجرمانية التى كانت تخدم فى الجيش الامبراطورى سرعان ما هجرت المعسكر

الرومانى وانضمت علانية إلى معسكر الارك ،وفى اثناء ذلك كانت تعزيزات قوطية تفد من وراء الدانوب على معسكر آلارك ، وأخيراً وصلت فرقة أخرى بقيادة صهره أتولف . وقرر آلارك الزحف على مدينة روما ...

إستولى القوط على مدن اقويليا وبادوا وكريمونة ، وقطعوا على العاصمة سبل الاتصال بالعالم الخارجى بضرب حصار حول اسوارها . وسرعان ما شحت المؤن وانتشرت الوبئة ، وسقط الكثيرون من الجوع أو الخوف أو منهما معا ، واضطر بعض الأغنياء إلى التبرع ببعض ما لديهم لشراء الخبز من السوق السوداء وتوزيعه على المجوعين فى المدينة المحاصرة ، وكان على رأس المتبرعين أرملة الامبراطور الراحل جراتيان ، غير أن أرملة القائد الجرمانى ستيليكون لم تتبرع بشئ للفقراء ، فحات حولها الشبهات وسرت إشاعة بأنها على اتصال سرى بالعدو القوطى ، فقبض عليها وتم إعدامها ..

أدرك أهل روما أن الكارثة واقعة لا محالة ، فأوفدوا سفارة إلى معسكر آلارك يفاضونه فى تسليم المدينة إليه على أن يؤمنهم على حياتهم وأملاكهم ، ولكن الزعيم القوطى رد على السفراء بقول ساخر : « اعلموا أنه على قدر ما يشتد صلب العود يسهل جزه بالمنجل »^(٥٧) ثم طلب إلى السفراء أن يسلموه ما تحتويه المدينة من كنوز ذهبية وفضية إلى جانب الاسرى الجرمان ..

وعندما تأزم الموقف إلى هذا الحد طالب نفر من الوثنيين فى روما بضرورة تقديم الاضحيات للآلهة القديمة ، ووجد محافظ روما نفسه مضطراً إلى أن يلفت نظر البابا انوسنت الأول بأن يغمض عينيه عن قيام الشعب الرومانى بتقديم الاضحيات للآلهة الوثنية بشكل علنى . ثم وجه الرومان سفارة جديدة

إلى معسكر آلارك يعرضون عليه خمسة الاف قطعة من الجلود الارجوانية اللون، وثلاثة الاف رطلاً من التوابل . ولسداد كل هذا فرضت السلطات ضريبة خاصة على أغنياء المدينة ، ولقد استجاب البعض بينما تخايل الكثيرون للتهرب من الدفع .

ولما أن طال الحصار وتعشرت المفاوضات واشتد الجوع هاجت العامة وهجموا على محافظ المدينة وامطروه بوابل من الحجارة حتى هلك . واختلط الحابل بالنابل ، واقتحم الدهماء بيوت العبادة ينهبون تماثيلها الفضية والذهبية وألقوا بها فى النار لتصهر فيحولونها إلى عملات (٥٨) ..

بعد أن تسلم آلارك جزءا من الفدية المطلوبة ، سمح لأهل روما بالخروج من الحصار لمدة ثلاثة أيام عبر بعض البوابات المحددة وذلك للتزود بالمؤن .

ولم يفوت جند آلارك هذه الفرصة ، فأخذوا يبيعون للناس بعض أغراضهم بائمان خيالية . هذا وقد استجابت السلطات فى روما لمطلب آلارك فأطلقت سراح ما لديها من اسرى جرمان ، فجاء هؤلاء ليرفعوا من عدد الجند فى المعسكر القوطى المتحفر .

تراجع آلارك بعد هذا إلى منطقة توسكانيا لكى يراقب مدى التزام السلطات الرومانية بتنفيذ ما اتفق عليه بين الطرفين ، ويبدو أن الامبراطور هونوريوس لم يكن جاداً فى مراعاة تنفيذ الاتفاق المبرم ، فلقد اختار شريكا له فى حكم النصف الغربى للامبراطورية اسمه قسطنطين شريطة أن يزوده ببعض الفرق العسكرية للتصدى لآلارك . وعليه فإن آلارك أخذ يشدد من موقفه مرة أخرى ، فطلب من هونوريوس مزيداً من الفضة وأن يسمح له بإقامة معاقل قوطية فى

البندقية واستريا ودلماشيا ، وأن ينعم عليه بلقب « سيد الجند الأعلى » لسائر جيوش الامبراطورية في الغرب . وكانت هذه المطالب بمثابة القاء القفاز في وجه الامبراطور ، وعليه ففى نهاية سنة ٤٠٩ م زحف آلاك لحصار روما مرة ثانية ، فاستولى فى طريقه على ميناء بورتو على نهر التيبر كى يحرم روما من وصول المؤن ، ثم وجه طلبا إلى السيناتو بضرورة خلع هونوريوس عن العرش وتنصيب شخص يدعى اتالوس بدلاً منه ...

وكان اتالوس هذا ابنا لمحافظ سابق لروما ، وكان على المذهب الاريوسى ، كما كان على علاقة طيبة مع آلاك . وبالفعل نصب اتالوس نفسه امبراطوراً على روما ، وراح يوزع مناصب الدولة على اتباعه ، وأفصح أمام السيناتو عن أمله فى توحيد الامبراطورية شرقها وغربها تحت صولجانه بمؤازرة القوط وسيدهم آلاك ...

فى أثناء ذلك كان الامبراطور الشرعى هونوريوس حبيساً فى أحد القصور فى رافنا ، ولما كان عاجزاً عن التصدى لآلاك ولغريمه أتالوس فإنه عرض على الاخير أن يعترف به شريكا له فى الحكم ، ولكن أتالوس رفض العرض وهدد بالقبض على هونوريوس وتشويه خلقتة ثم نفىه إلى احدى الجزر ، وفزع هونوريوس وفكر فى الهرب إلى القسطنطينية للاحتماء بجوار ابن أخيه ثيودوسيوس الثانى . ولكن امبراطور القسطنطينية كان هو أيضاً يرتعد خوفا من آلاك ، إذ باتت الامبراطورية الرومانية بنصفها المنعزلين « ألعية » فى أيدي معتصب معتوه هو أتالوس ومتبربر فاجر هو آلاك^(٥٩) ، على حد تعبير المصادر المعاصرة ..

وسرعان ما دب الخلاف بين الزعيم القوطى آلارك وحليفه الرومانى
مغتصب العرش أتالوس ، ولذا فقد قبض آلارك على أتالوس وابنيه واحتجزهم
جميعا رهائن فى معسكره ، وقرر آلارك بعد ذلك أن يشق طريقه بالسيف ثم
ضرب حصاراً حول روما للمرة الثالثة فى اغسطس سنة ٤١٠ م ..

اشتدت وطأة الحصار على أهل روما فهلك الكثيرون منهم جوعاً ، وتروى
المصادر أن نفراً من الجوعى قد جن جنونهم فأقدموا بالفعل على أكل لحوم
البشر : « لقد أتتنا انباء مفرعة من الغرب ، وإن تفاصيلها جد مخيفة . لقد
باتت روما مهیضة الجناح ، وأمسى المواطنون يساومون على حياتهم بما تبقى
عندهم من متاع . إن صوتى ليختنق وإن دمعى ينسكب وأنا أسجل إليك هذه
السطور . لقد أذلت المدينة التى كانت يوما سيدة للعالم أجمع . وماذا تبقى لنا
أن نقول ؟ إن روما تتضور جوعاً وتهلك أسى قبل أن ترديها رماح العدو الذى
لا يرحم . ولم يبق من البشر من يصلح للأسر . إن جنون المجاعة قد أدى بالبعض
إلى التماس الطعام بأكل لحوم البشر ، كما أن بعض الأمهات قد التهنن
مواليدهن الجدد (٦٠) » ...

فى ليلة الرابع والعشرين اغسطس لسنة ٤١٠ م قام بعض العبيد الذين كانوا
فى خدمة سيدة نبيلة تدعى أنيشيا بروبا بفتح بوابة سالاريا لقوات آلارك
القوطى ، ويقال إن هذه السيدة أمرت عبيدها بفتح البوابة بدافع الشفقة على
أهالى مدينة روما الذين بلغ بهم اليأس حد الجنون والهوس (٦١) ..

اقتحم القوط بوابات روما وهم يتصايحون ، ويقرعون الطبول ، وأشعلوا
الحرائق فى المباني ، والتهمت ألسنة النيران بعض القصور الفاخرة ، ثم اطلق

آلارك رجاله لنهب المدينة .. وتتحدث المصادر عن حالات اغتصاب عديدة للصبايا والعذارى والراهبات^(٦٢) .. ويؤكد المؤرخ بروكويوس أن بعض البنايات قد سويت بالأرض ولم يبق منها أثر ينمى من بناء ، وإن القتل كان جماعيا للشيب والشبان وللنساء والأطفال ، ومن المباني التى التهمت النيران قصر فالوريوس وقصر أفنتين ومعبد يونو والمذبح الفضى من قصر اللاتيران وهو الذى كان الامبراطور قسطنطين الكبير قد قدمه هدية للبابا سلفيستر ، وكان وزنه ٢٠٤٥ رطلاً من الفضة الخالصة ، كما التهمت ألسنة النيران صالة الكيوريا البابوية ...

وبعد نهب و سلب دام ثلاثة أيام قرر الارك الخروج من مدينة روما وعبور البحر الأبيض لارساء قواعد مملكة قوطية على الساحل الافريقى . وقد جر آلارك فى موكبه جالالا بلاسيда شقيقة الامبراطور هونوريوس إلى جانب عدد كبير رجال الدين ..

لم تنته محنة روما عن هذا الحد ، ففى كل فجر جديد كانت أمواج من البرابرة تجرف الناس من كل صوب . وهذه المرة جاءت من جوف اسيا ؛ من رعاة منغوليا المعروفين باسم الهون (Huns) . ويحدثنا المؤرخ اميانوس مارسلينوس (نهاية القرن الرابع) عن وحشية الهون ، وكيف انهم عندما يولد لهم وليد فإنهم يقومون بجرح وجنتيه كى لا ينبت له شعر فى ذقنه ، وهو يشبه بنيتهم الجسمية بجذوع الشجر المشوهة ، وهم لا يطهون طعامهم بل يجففون اللحوم تحت افخاذهم على ظهور الخيل التى يندر أن يترجلوا عنها ، وهم يغطون اجسادهم بجلود الفئران ولا يخلعونها حتى تبلى تماما ، وهم ايضا

يغطون سيقانهم بشعور الماعز . ولا تلمس أقدامهم الأرض حتى وقت الطعام والشراب ، بل انهم ينامون على ظهور جيادهم وقد مالوا على رقابها قليلاً ، كما أنهم يعقدون مؤتمراتهم مع رؤساءهم فى دائرة على ظهور خيولهم^(٦٣) ...

وليس أدل على روح اليأس والقنوط التى أصابت الناس زمن تلك الغزوات المتبريرة من جرمانية ومغولية من تلك الحادثة التى يرويها شخص يدعى برسكوس الذى كانت السلطات فى القسطنطينية قد أوفدته سنة ٤٤٨ م إلى بلاط آتيللا زعيم الهون فى منطقة بانونيا (بودابست الحالية) التى أقام فيها معسكره بعد أن دمر القوى الجرمانية التى صادفته من بحر قزوين إلى البحر الاسود إلى شواطئ الدانوب ..

فلقد لقي برسكوس فى معسكر الهون شخصا يحادثه باللسان اليونانى ، واتضح له أن محادثه هذا كان نبيلاً رومانيا من منطقة مائيزيا كان وقع فى اسر الهون ، ثم قدرت له الظروف أن يغنم غنيمة فى إحدى الغارات فافتدى بالغنيمة نفسه ثم تزوج من امرأة مغولية وانجب منها أطفالاً . ، ولما أخذ برسكوس يذكره بتراث الآباء والأجداد لم يتمالك هذا اللاجئ الرومانى نفسه وراح يبكى كالأطفال وهو يتمتم من خلال دموعه : « نعم ان قوانين الرومان عادلة وان دستورهم لقويم ، ولكن الاثم كله يقع على ضمائر حكامنا وقضائنا من أبناء اليوم الذين لا يملكون من خلق القدامى شيئاً يذكر »^(٦٤) ...

لقد تمكن الهون منذ ان استقروا فى منطقة بانونيا من إرهاب سائر الزعامات الجرمانية على اختلاف اسمائها ، كما أن البلاط الرومانى سواء فى القسطنطينية أو فى ميلانو بات يتملق آتيللا الجبار خوفاً من سوطه الذى

لايرحم. وكان آتيللا يتربع على عرش امبراطورية مغولية كبرى امتدت من جوف آسيا إلى قلب أوربا ، وكانت ترقد تحت قدميه كنوز من الذهب لا حصر لها ولاعد . والهون هم الشعب الوحيد من بين الجماعات المتبربرة الذى لم يدخل كجند مرتزقة فى خدمة الرومان . وقد اثار اسمهم الرعب فى قلوب سكان اوربا ، حتى أن صلوات الناس قد أخذت صيغة جديدة تضمنت الابتهاال إلى السماء بأن تنجى العالم من « كيد ابليس وفعل آتيللا » . وكان آتيللا قد أسر آلافا من القوط وجرحهم معه فى موكبه كعبيد ، ثم زحف بهم جنوب نهر الراين لاقتحام أرض الغال . وقد وصلت جحافل الهون إلى مدينة ممتنر فى ٧ ابريل سنة ٤٥١ م ودمرت المدينة تماما ، ثم زحف الهون صوب باريس ، ولكن آتيللا سرعان ما عدل عن خطته ويمم جنوبا شطر مدينة أورليانز ..

وجدت السلطات الرومانية الغربية نفسها فى موقف حرج للغاية ، فكلّف الامبراطور فالنتينان الثالث (٤٢٥ - ٤٥٥ م) قائد جيوشه أتيوس بالتصدى لآتيللا وجحافلّه . ولم يجد القائد الرومانى حلاً إلا بمخاطبته ود الزعماء الجرمان - الاعداء التقليديين لروما - لمجابهة العدو الاسيوى المشترك ، وهكذا فإن الجيش الرومانى الذى تصدى لآتيللا فى غالة كان يضم عناصر معاهدة أومرتزقة من مختلف القبائل الجرمانية ؛ من برغنديين وآلان وفرنجة وسكسون وقوط غربيين وشرقيين . وأطبق الجميع على معسكر الهون فى حقول قطالونيا على مقربة من بلدة تروى (Troyes) فى غالة ، ولأول مرة تلحق الهزيمة بجيوش آتيللا الجبار . وقد هلك فى هذه المعركة ملك القوط الغربيين الجديد ثيودريك وذلك تحت لواء العلم الرومانى . واضطر آتيللا بعد هذه الهزيمة المرة

إلى التفهقر قبالة مقر قيادته فى بانونيا . وفى طريقه عرج على ايطاليا وضرب
حصاراً حول مدينة أقويليا ثم دمرها بعد أن هجرها أهلها جميعا ، ثم مال على
البندقية وضربها ثم هبط على سهل نهر پو ودخل ميلانو ...

ويروى أنه شاهد فى قصور ميلانو لوحة تمثل الاباطرة الرومان على
عروشهم الذهبية ، وقد ألقى بالسكيزيين (الشعوب الاسيوية كما ورد فى
الاساطير القديمة) المقهورين تحت أقدامهم ، فجن جنون آتيللا وأمر الرسامين
من بين الاسرى اليونان والرومان برسم لوحة كبيرة تمثل آتيللا جالسا على
العرش وهويتلقى الجزية من الاباطرة الرومان المغلوبين (٦٥) ...

ازداد خطر ايتللا على ايطاليا واضطر الامبراطور فالنتينيان إلى الفرار من
رافنا إلى روما ، بل ان القائد أتييتوس نصح الامبراطور بأن يهرب إلى غالة ؛ لأن
آتيللا كان عازما على شق طريقه بالسيف إلى روما نفسها . ثم تقرر ايفاد سفارة
من روما مؤلفة من البابا ليون الكبير والقنصل افيانوس للتوسل إلى ايتللا كى
يعدل عن مهاجمة روما مقابل جزية مهولة من الذهب والفضة . وبعد أن
وصلت كنوز الذهب والفضة إلى معسكر آتيللا ، قرر الإنسحاب إل بلاطه فى
بانونيا . وفى الطريق انتشر وباء بين رجاله ، وفى صبيحة أحد الايام إكتشف
اتباعه أن نوبة جنونية قد أتت عليه وهو ثملٌ اثناء الليل ، وكان ذلك فى سنة
٤٥٣ م .

وتنفس القوم الصعداء ، وفسر المعاصرون هذا الحدث بمعجزة عليا أنقذت
روما والرومان من مخالب التنين الاسيوى الرهيب ! .

فى أثناء ذلك كانت جماعة جرمانية أخرى تعبت بأقدار الناس فى غالة ،
فبعد أن اصطلى الوندال بسياط آتيللا لاذوا بالفرار من غالة إلى اسبانيا . وفى

اسبانيا هجم الوندال على الكنائس الرومانية المرابطة هناك وصاروا سادة عل البلاد . وما لبث الوندال أن شيدوا لهم أسطولا بحريا ، ويقال أن نفرأ من الخبراء الرومان قد نقلوا اسرار بناء الأسطول للوندال مقابل رشوة دسمة^(٦٦) . ولقد ارتبطت سيرة الوندال فى اسبانيا بتخريب الكنائس ونهبها خاصة تحت حكم ملكهم جونديريك . وبعد موت جونديريك تولى الحكم على الوندال زعيم جديد اسمه جنزريك ، الذى كان مقلأ فى الكلام ، غضوبا إلى حد الجنون ،تواقاً للون الذهب وملمسه ، ماكرا فى زرع الخصومة بين منافسيه ،جباراً فى كبح جماح رجاله الاشداء^(٦٧)...

تمكن الوندال بأسولطهم البحرى وبالسفن الرومانية التى استولوا عليها من غزو جزر البليار واكتشاف شواطىء موريتانيا . وكان جنزريك مقتنعاً بأن مستقبل أمته لن يكتمل إلا بالسيطرة على حوض البحر الابيض وتحويله إلى بحيرة وندالية ... ومن ثم فقد خطط الوندال للسيطرة على الشمال الافريقى لكى يحرمو الرومان من الغلال حتى تصبح كل من روما والقسطنطينية تحت رحمتهم ..

وعندما تسربت أخبار المشروع الوندالى إلى بلاط القسطنطينية ، اشارت أصابع الاتهام إلى بونيفاس حاكم ولاية افريقيا الرومانى بالخيانة .. وبأنه يتآمر مع الوندال مقابل أن يسمحوا له بالانسلاخ بجزء من ولاية افريقيا يحكمه لحسابه . وقد بادرت السلطات الرومانية بارسال حملة تأديبية ضد بونيفاس ، وهكذا تمزق الصف الرومانى . كما أن المنازعات المذهبية الدامية بين فرقة عرفت باسم الدوناتيين وبين الكاثوليك فى قرطاج قد خلقت جواً من الفوضى

والمشاحنات العقائدية فى الشمال الإفريقى ..

شجعت هذه الأحوال المضطربة جنزريك على الإبحار من جنوب اسبانيا
قبالة الساحل الإفريقى ، وقبل رحليه انقض على قبيلة جرمانية من جماعة
السويث وابادها تماماً .. ثم أبحرت أمة الوندال وفى ركاها آلاف من الأسرى
والعبيد ، ويقدر عدد أفراد هذه الهجرة بحوالى ٨٠,٠٠٠ من رجال ونساء
الوندال . رسى الأسطول الوندالى فى طنجة ومنها تحرك الجند الوندال نحو
موريتانيا القيصرية ومنها قبالة العاصمة قرطاج . وكانت مسيرة الوندال تتراوح
بين ستة إلى ثمانية كيلو مترات فى الساعة ، ويرجع السبب فى بطء الحركة
إلى ثقل العربات وأحمالها على الخيول التى تجرها ، وأيضاً بسبب انشغال
رجال الحملة فى نهب وسلب جميع البقاع التى مروا عليها (٦٨) ..

كان مجرد ذكر اسم الوندال كافياً لاثارة الذعر فى نفوس الناس ، فلقد آت
الأخبار من غالة واسبانيا وإيطاليا تتحدث عن وحشية هؤلاء القوم وبربريتهم التى
فاقت كل وصف . وكان أشد الناس هلعاً رجال الدين الكاثوليك بسبب
ما عرف عن الوندال من تعصب مهووس لمذهبهم الأريوسى ومن كره بالغ
للكثلكة . وقيل عن الوندال انهم تفردوا فى سلب فروة رؤوس ضحاياهم ليزينوا
بها سروج جيادهم وقت المعركة ..

بينما كان الأعصار الوندالى يجتاح الساحل الإفريقى ، كان الفيلسوف
اغسطينوس معتكفاً فى مدينة هيو (عنابة) وهو فى حيرة شديدة من أمور هذا
العالم : فلقد أصيبت الرعية من خاصة وعامة بالهلع ، واختفى الرعاة من
منابرهم ، وخرست النواقيس ، واشتعلت السنة النيران فى الكنائس . وفر صغار

الكهنة من وجه العدو يضربون الطرقات والبرارى كالشحاذين . ودوت صرخة صاحب « مدينة الله » (Civitas Dei) تقول : « إن الإنسان الفاضل هو الذى لا يفتن على انهيار عمود من الخشب ، ولا على انهيار كوم من قرميد الحجر ، ولا حتى على موت يصبه ، لأننا جميعا مخلوقات ذائقة كأس الموت لا محالة ، فعلام الأحران إذن ؟ » (٦٩) .. ولا يملك هذا الرواقى العملاق إلا أن يعلن لسامعيه وتلاميذه بأن كأس الموت حق على الجميع ، وأن آلام الجسد تطهر الأرواح ، وأن على الناس أن يبتهلوا إلى السماء وقت الضيق لاجتياز مرارة الكأس التى لا مفر من تجرعها ، وأنه على الراعى ألا يفر هاربا من القطيع المروع ، لأنه لا يليق بربان السفينة أن يهجر سفينته وهى تغرق (٧٠)

لقد بلغ جرم الوندال فى الشمال الافريقى حدا بشعا للغاية ، فنحن نعلم من رسالة للبابا ليون الكبير أن أعداد الراهبات اللائى هتكت اعراضهن وتم اغتصابهن على ايدى الوندال كانت اعداداً مهولة ولذا فإن البابا يطلب فى رسالة إلى اساقفة شمال افريقيا وموريتانيا القيصرية أن يعاملوا هؤلاء الضحايا ولكأنهن « عذارى أرامل من غير ذنب أتينه » ..

وفى نوميديا ضرب الوندال الحصار حول سائر المدائن ، فانتشرت المجاعات وتفشت الوبئة بسبب كثرة الجثث ، وامتألت الطرقات بأمواج من الخلق وهم يولولون . ولما أن أقتربت جحافل الوندال من بوابات قرطاج ، أصيب الناس من وراء الأسوار بالفرع الشديد ، وهربت أعداد منهم إلى الجنوب ، ولكن الوندال تصيدوهم وقتلوهم عن بكرة أبيهم . ولقد قام الوندال على مرأى ومسمع الجميع بإحراق بعض الاساقفة أحياء ، ومن بينهم بامنيانوس ومانسيوتيوس . فى

أثناء ذلك كان الكونت بونيفاس - الذى اتهم بالخيانة - يعسكر مع رجاله خلف أسوار مدينة هيو التى اغتصت باللاجئين . وفى نفس الوقت كان القديس اغسطينوس يرقد داخل نفس المدينة التعسة وهو فى حالة مرض شديد . ورغم شدة الاعياء وحمل السنين ، ظل الرجل يلهم تلاميذه ومريديه بجميل العزاء كى يجتازوا معه التجربة المرة .. ولما أن دنت ساعة الخلاص من أوزار هذا العالم ، صرخ أغسطينوس على مسمع من تلاميذه « اللهم أطلق عبدك بسلام » وتلقف الجميع الصرخه الاغسطينية ودوت بها الحناجر . وبعد قليل فاضت روح الرجل إلى باربها ، وكان ذلك فى ليلة الثامن والعشرين من شهر اغسطس لسنة ٤٣٠ للميلاد . وسقطت مدينة هيو ، وكان نصيبها النار والدمار عن آخرها .

وفى التاسع من أكتوبر لسنة ٤٣٩ م ، اقتحم الوندال اسوار قرطاج ، وسقطت العاصمة سقوطا مروعا : إذ استولى البرابرة على كل ما فيها حتى الاخضر واليابس ، ونهبوا الكنائس من نفائسها وأدوات طقوسها ، كما اعتدوا على الحرمات دون تمييز ، ومالبثت معاول الهدم والتخريب أن اجتاحت آثار قرطاج القديمة وكاتدرائياتها ، كما حولت بعض كنائسها إلى إسطبلات للخيول .. وبعد السقوط أصيب رجال الدين الكاثوليك بحال من الجبن الشديد، ففى مواضعهم أيام الآحاد تجنبوا الاشارة من قريب أو بعيد للكارثة الكبرى التى حلت بقرطاج ، ولئن حدث فى ذات موعظة أن اشار أحدهم من على منبره - ولو بطريق السهو - إلى اسم فرعون أو نبوخذ نصر ، فإن جنزريك كان يفسر ذلك بأنه هو المقصود من وراء ذكر هذا الاسم أو ذلك ، فيأمر

بالقبض على الكاهن الواعظ ويسام العذاب ألوانا(٧٢) .

فرض الوندال سيطرتهم على الشمال الافريقي بقبضة من الحديد ، كما هيمن اسطولهم على حوض البحر الابيض ، وهكذا فإنه بعد سقوط قرطاج فى إيدي جنزريك باتت كل من روما القديمة وروما الجديدة (القسطنطينية) فى خطر داهم . ولقد عمل الامبراطور الغربى فالنتينان على اصلاح اسوار روما التى تهدمت وعلى اقامة التحصينات لحماية ميناء نابلى . وفى سنة ٤٤٠ م قام جنزريك بحملة بحرية من ميناء قرطاج ، ولكنه لم يعلن عن هدف الحملة مكتفيا بالقول : « نحن نقصد قوماً أغضبوا السماء » .. غير أن الامبراطور فالنتينان شعر بأن الحملة موجهة ضده ، فطلب إلى رعاياه التحلى باليقظة ومقاومة العدو حيثما ترسى سفائنه إلى أن تصل اليهم النجدة الامبراطورية ..

رست سفن جنزريك أول الأمر على شواطئ بلدة ليليا ، ومنها هبط الجند على جزيرة صقلية فنهبوها تماما ... ولما أن علم جنزريك بقرب وصول اسطول من القسطنطينية إلى صقلية ، أبحر مسرعا بالعودة إلى قرطاج ..

اضطر الامبراطور الغربى فالنتينان إلى فتح باب المفاوضات مع العدو الوندالى الذى لا يرحم ، وقد عرض الامبراطور أن يزوج شقيقته الاميرة يودوكسيا من ابن لجنزريك ، غير أن هذه الصفقة لم تتم ، إذ قام قائد يدعى بترونيوس ماكسيموس باغتيال الامبراطور والجلوس على العرش ، ثم زوج الاميرة يودوكسيا من ابنه المدعو اثتيوس . وقد كانت هذه الاحداث ذريعة كافية لجنزريك كى يجرد حملة يؤدب بها بترونيوس مغتصب العرش ..

أبحر الاسطول الوندالى إلى ميناء بورتو ، ورست الكتائب لتزحف براً قبالة

مدينة روما . وفى الطريق اشعل الوندال الحرائق فى كل مكان ، فأصيب أهل روما بالفرع الشديد ، فهرب الكثيرون لا يلوون على شىء ، وكان من بين الفارين الامبراطور بترونيوس ماكسيموس نفسه ، ولقد كان هذا الهروب المخزى مدعاة لأن يقوم واحد من رجال حرسه الخاص بقذفه بحجر فأرداه قتيلا ، ثم هجم الجمهور الغاضب على جثة الامبراطور ومثلوا بها ثم القوا بها فى نهر التير . وبعد ذلك الحادث بأيام ثلاثة اقتحمت كتائب جنزريك مدينة روما ، ولم يكن فى المدينة من يتولى التوسل من أجلها سوى البابا ليون الكبير ؛ الذى قصد بنفسه إلى معسكر جنزريك عارضا أن يسلم له كنوز كاتدرائية القديس بطرس مقابل العفو عن المدينة (٧٣) ..

وافق جنزريك على التماس البابا ليون ، واصدر أوامره بإيقاف الحرائق وقتل الانفس ، ولكنه أذن لرجاله بنهب المدينة وسفك الدماء . واستمر النهب الوندالى لمدينة روما اسبوعين كاملين ، ثم خالاهما تفرغ القصور من كل محتوياتها النفيسة ، كما استولى جنزريك على النياشين والعلامات الامبراطورية ، والأعجب من هذا كله أنه أمر رجاله بإقتطاع جزء من سقف جوبيتر فى الكابيتول ظناً منه أنه من الذهب الخالص .. وهو فى الحقيقة من البرونز الأصفر. هذا وقد استولى الوندال أيضا على كم وافر من التماثيل القديمة والكنوز التى كان القائد تيطوس قد حملها إلى روما بعد تخريبه لهيكل سليمان فى بيت المقدس ..

وحمل الوندال تلك الكنوز والآثار النادرة على ظهر احدى سفنهم ، غير أن هذه السفينة بالذات قد غرقت بما كان على ظهرها من كنوز ونفائس ،

وهكذا ابتلع اليم حضارة بأكملها .

وقد حمل جنزريك معه عددا من الرهائن ؛ من بينهم اثتيوس ابن الامبراطور بترونيوس ، وأرملة الامبراطور فالنتينيان وابنتيهما ، إلى جانب نفر من أعضاء السيناتو والكتبة وخبراء السلاح . وتفيض المصادر باخبار مؤسفة عن أحوال الاسرى الرومان الذين اقتادهم الوندال إلى قرطاج : فعند وصولهم إلى الشاطيء الافريقى ، قام القادة الوندال باقتسام هؤلاء الاسرى فيما بينهم ، بعد أن عزلوا النساء عن أزواجهن والآباء عن أطفالهم . وقد رأى المعاصرون فى هذا الوندالى « الأعرج » صورة لما ورد فى الكتب عن « المسيح الدجال » Anti-christus () ، ونموذجاً لما ورد فى وصف الحيوانات البشعة فى سفر الرؤيا (٧٤) ..

بعد هذه الحملة راح جنزريك يرهب اراضى النصف الشرقى للامبراطورية ، فأرسل حملات بحرية نهبت الجزر اليونانية واسرت العديد من أهلها . وقد حاولت السلطات فى القسطنطينية التصدى لاسطول الوندال ، كما جردت حملة من مصر للهجوم على طرابلس ، ولكن الأسطول الوندالى دمر هذه الحملة (٤٦٨ م) (٧٥) ...

وهكذا باتت كل من روما القديمة وروما الجديدة عاجزتين تماماً أمام جبروت الوندال . وفى اثناء ذلك كان جنزريك قد اطلق سراح الامبراطورة الاسيرة ولكنه استبقى ابنتها يودوكسيا ثم زوجها بالقوة من ابنه هونريك ، وظلت هذه الاميرة التعيسة زوجة لهونريك لمدة ستة عشر عاما ، ثم هربت سرّاً إلى بيت المقدس ...

بعد وفاة جنزريك سنة ٤٧٧ م ، خلفه عدد من ابنائه واحفاده هم :
هونريك (٤٧٧ - ٤٨٤ م) ؛ جونتاموند (٤٨٤ - ٤٩٦ م) ؛ ترازاموند
(٤٩٦ - ٥٢٣ م) ؛ هلدريك (٥٢٣ - ٥٣١ م) ؛ واخيراً جلمير (٥٣١ -
٥٣٤ م) الذى قدر له ولدولته السقوط النهائى على أيدى الامبراطور الشرقى
جستينيان العظيم (٥٢٧ - ٥٦٥ م) وقائده المرموق بلزارىوس وذلك فى
ديسمبر لسنة ٥٣٣ م .

الفصل الثالث

بقايا الحطام الروماني

الفرنجة – الكارولنجيون وبعث

الأمبراطورية الرومانية من الأكفان

المزيج الجرمانى – الرومانى الوليد

فى سنة ٤٨٦ م اقتحم كلوفس الزعيم الجرمانى لقبيلة الفرنجة حدود نهر الراين واحتل منطقة باريس فى غالة . وكان كلوفس قبل ذلك يخدم هو وأتباعه كجند معاهدين فى الجيش الرومانى . وفى غالة أخذ كلوفس وأتباعه يتمثلون بالسلادة الرومان فى الملبس والعادات ، إذ رأى فى نفسه ممثلاً للإمبراطورية الرومانية فى بلاد الغال . ومن مظاهر التمثل بالرومان كان كلوفس يخترق شوارع باريس وقد رفعه رجاله على دروعهم ، ثم وقع اختياره على اميرة على المذهب الكاثوليكى وتزوج منها ، وظل يحتفظ بصورة رأس الامبراطور الرومانى على وجه العملة التى أمر بصكها . أما البلاط الفرنجى فكان غاصاً بموظفين يحملون ألقاباً رومانية ، كما وأن كبار الموظفين فى الأقاليم كانوا يحملون لقب « الكونت » (Comes) وهو لقب رومانى قديم بمعنى النبيل المحارب. كذلك سار جامعو الضرائب الفرنجة على نفس التقاليد والقواعد الرومانية .

ورغم هذه المظاهر الرومانية ، فإن حقيقة الأمر أن الأسرة الميروفنجية (نسبة إلى جد أسطوري للفرنجة اسمه ميروفتش) كانت أسرة جرمانية لحماً ودماً ، وكان أبناء هذه الأسرة يعتقدون انهم قد تحذروا من نسل الآلهة الجرمانية القديمة ، ومن ثم فإنهم كانوا يرخون شعور رؤوسهم حتى تتدلى تحت أكتافهم علامة على أصولهم الآلهية (٧٦) ..

وكان نظام الحكم عند الفرنجة انتخابياً ، وكان اختيار الملك الجديد يتم برفع المختار للعرش على درع الاتباع والجند . وكان ملوك الفرنجة ينظرون إلى غالة على أنها ملك خاص لهم ولأولادهم ؛ فعندما مات كلوفس قسم المملكة بين أبنائه الأربعة : مملكة أوسترازا الواقعة على ضفتى نهر الراين ؛ ومملكة نوستريا الواقعة شمالى غالة ؛ ومملكة برغنديا فى وديان الرون الساءون ؛ ومملكة بروفانس فى جنوبى غالة . وقد دخل الابناء الأربعة (ثيودريك ، كلودير ، شلدبرت ، كلوتار) فى صراع دامى كل يسعى لتوسيع رقعة مملكته على حساب الأخوة الآخرين . ورغم هذه المشاحنات فإنه كان ينظر إلى مملكة الفرنجة رغم أقسامها الأربعة على أنها وحدة متكاملة باسم « أرض الفرنجة » (Regnum Francorum) .

وقد شهدت مملكة الفرنجة صراعاً مريعاً بين اثنين من أحفاد كلوفس وهما الأخوان سجبرت وشلبريك ، وقد هلك فى هذا الصراع عشرات من امراء البيت المالك ومن كبار النبلاء . كان المحرك لهذه المؤمرات والاغتيالات الاميرة برونهلدة زوجة سجبرت التى دبرت سلسلة من الأغتيالات ضد خصومها ، والتى كانت

نهايتها غاية فى البشاعة ؛ إذ قبض عليها اعداؤها بعد أن قتلوا جميع أحفادها ، ثم وضعت على ظهر جمل ، وفى آخر المطاف قيدوها بشعر رأسها وأوثقوا ذراعيها وقدميها بذيل حصان جامع وألهبوا ظهره بالسياط فمزقها إرباً ، وكان ذلك فى سنة ٦١٤ م .

والحق أن أحفاد كلوفس صاروا ملوكاً ضعافاً من أمثال سيجرت الثالث ، وداجوبرت الثانى ، وشلدفيج الثانى ، وقد خضع هؤلاء جميعاً لسطوة « حاجب البلاط » . (Major Domus) ، حتى أن التاريخ قد شيع هؤلاء الملوك الضعفاء باسم « الملوك العاطلين » (Les Rois Faineants) .

وسرعان مانسبت الخلافات بين حاجبى البلاط فى مملكتى نوستريا واسترازا ، ودارت معركة بين الطرفين فى بلدة تسترى (Testry) سنة ٦٨٧ م ، والتى انتهت لصالح استرازا وحاجب بلاطها بين هرتزال الأكبر (٦٨٧ - ٧١٤ م) .

وكان لهذا الحاجب ابن غير شرعى اسمه كارل ، وحفيد يدعى ثيدوالد ، ولقد قامت أرملة بين (بلكتروديس) بالوصاية على هذا الحفيد ثم ألقت بكارل فى السجن . غير أن النبلاء ثاروا ضدها ، وساعدوا كارل على الهروب من السجن ، ثم اعترفوا به حاجباً على بلاط استرازا . وكان عهد كارل الملقب « بالمطرقة » (Martel) مليئاً بالحروب ضد السكسون والفريزيين والبافار والألماني . وفى سنة ٧٣٢ م اشتبك كارل مارتل مع عرب اسبانيا تلبية لاستنجد الكونت يود (Eudes) صاحب أقطانيا ضد الأمير عبدالرحمن الغافقى^(٧٧) ، ووقعت بين الطرفين المعركة المعروفة فى المصادر العربية باسم « بلاط الشهداء »

أو بواتيه أو تور .

توفى كارل مارتل سنة ٧٤١ بعد أن قسم مملكة الفرنجة بين ولديه كارل ، وبين ، ولم يعبأ بتعيين ملك للمملكة لمدة أربع سنوات ، إذ كانت جميع مقاليد السلطة في يده ، ولم يشعر أحد أن المملكة بحاجة إلى دمية أخرى من البيت الميروفنجي للجلوس على العرش الشاغر . أمضى الأخوان كارل وبين الأعوام السبعة عقب وفاة والدهما في حروب ضد أقطانيا وبافاريا وسكسونيا وبعض الجماعات السلافية . ولكي يمعن الأخوان في السخرية من البيت الميروفنجي فقد اختارا واحداً من هذا البيت يدعى شلدريك الثالث وأجلساه على العرش ، ولكنه ظل مجرد شبح متوج وهو بحق آخر الملوك العاطلين . وفي سنة ٧٤٧ تنازل كارل عن السلطة لأخيه بين والمكنى «بالقصير» (Le Bref) ، واعتزل شئون العالم ثم ارتدى مسوح الرهبان منزوياً على قمم جبل سوراكت على مقربة من روما .

ولما أن انفرد بين القصير بحجابه البلاط الفرنجي في مملكتي توستريا واسترازا أخذ يفكر في وضع تاج الملك على رأسه هو ، فأرسل سفارة إلى روما يطلب من البابا زكريا الفتوى في سؤال ماكر : أيهما أحق أن يكون ملكاً - ذاك الذي يحمل اللقب والتاج وليس له حول ولا قوة ، أم هذا الذي بيده كل السلطات فيما عدا اللقب ؟ ولما كان البابا زكريا في حاجة ملحة إلى حليف قوى ينصره على أعدائه اللومبارد في الشمال الإيطالي ، فقد بادر مجيباً بأن صاحب السلطة الحقيقية هو الأجدد بأن يتوج ملكاً ! وعليه فقد انعقد مجلس في مدينة سواسون سنة ٧٥١ م ، واقتيد الملك الميروفنجي شلدريك الثالث إلى

قاعة المجلس حيث اجتز شعره وأجبر على ارتداء لباس الرهينة ثم ألقى به فى أحد الأديرة النائية . ثم قام كبير أساقفة الفرنجة بونيفاس بإعلان بين ملكاً على الفرنجة وقام بمسحه بالزيت المقدس علامة على التفويض الإلهى له فى الحكم .

وكان اللومبارد وهم من عتاة القبائل الجرمانية قد دخلوا إيطاليا سنة ٥٦٨م ، واتخذوا من مدينة باثيا عاصمة لهم ، ثم مالبثوا أن سيطروا على كل أراضى السهل الإيطالى الشمالى ودوقيتى سبولتو وبنيفنتو ، وقد تقلب على عرش اللومبارد ملوك كثيرون بلغ عددهم اثنان وعشرون ملكاً ، بدءاً بالملك ألبوين (٥٦٨ - ٥٧٢م) وانتهاءً بالملك دزديريوس (٧٥٦ - ٧٧٤ م) . وقد دخل اللومبارد فى صراع ضد بقايا المعازل البيزنطية فى رافنا وضد البابا الرومانى . وكان الملك استولف (٧٤٩ - ٧٥٦ م) من أشد المناهضين للبابوية ، وكان يخطط للزحف على مدينة روما ليخضعها للتاج اللومباردى ، وفى طريقه زاحفاً أرسل استولف بسفير إلى البابا ستيفن الثالث (٧٥٢ - ٧٥٧م) يطلب منه الاعتراف بسيادة التاج اللومباردى على الكرسى البابوى ، وغضب البابا من هذا التحرش بسلطانه ، فبادر بإنزال قرار الحرمان على استولف ، ثم التفت البابا إلى ملك الفرنجة بين القصير يطلب منه الحماية ضد عدوه استولف اللومباردى . ثم قرر البابا السفر بنفسه إلى مملكة الفرنجة (٧٥٤م) ليطلب بنفسه المساعدة العسكرية من الملك الفرنجى ، ولقد أقيمت للبابا استقبالات حافلة فى مملكة الفرنجة ، وخرج بين القصير ورجال بلاطه لملاقاة البابا لحظة وصوله ، وأمسك بلجام الجواد الذى كان يمتطيه البابا علامة على الولاء والود ، ثم استمع الملك الفرنجى إلى شكوى البابا وطيب من خاطره

ووعده بالمساعدة ضد اللومبارد . وفى أبريل ٧٥٤م عقد بين القصير مجلساً قرر فيه أن يعيد للبابوية أملاكها فى إيطاليا (Patrimonium) من أيدي اللومبارد ، كما تعهد بفرض الحماية على روما . ولقد بقى البابا ضعيفاً على ملك الفرنجة لبضعة أشهر حسم خلالها بعض القضايا التى كانت تشغل رجال الدين فى مملكة الفرنجة ، ولعل أهم عمل قام به أيضاً هو أنه أعاد مسح وتتويج بين ملكاً على الفرنجة فى بلدة سان دينيس ، كما أنعم عليه بلقب « باتريكيان » ..

لم يكن هنالك مايرر إعادة تتويج بين ملكاً على الفرنجة ، إلا أن مراسيم إعادة تتويجه على يد البابا بنفسه قد قصد بها تأكيد شرعية التتويج بواسطة الرأس الأكبر للكنيسة اللاتينية ، وبالتالى إضفاء صفة الحكم الإلهي المقدس على حامل التاج ، والأهم من هذا كله أن البابا قام أيضاً بتتويج برترادا زوجة بين وولديهما كارل وكرلمان ثم مسحهما بالزيت المقدس ، وطلب من كبار نبلاء المملكة فى هذا الحفل المهيب أن يقسموا يميناً بالولاء لبيت بين وألا يختاروا لهم ملوكاً إلا من هذا البيت . وبهذا أقرت الكنيسة الرومانية قيام ملكية مقدسة فى هذه الأسرة الفرنجية الجديدة . ولئن كان بين قد جنى من هذه الزيارة مكاسب وافرة ، فإن مكاسب البابوية من ورائها كانت بغير حدود : فإلى جانب الحماية التى ضمنتها البابوية من جانب ملوك الفرنجة ، أمكن للجالس على العرش البابوى فيما تلا من تاريخ أن يدعى لنفسه الحق فى تعيين وخلع الملوك ، مستنداً فى هذا الإدعاء بحق « الحل والربط » على هذه السابقة مع ملك الفرنجة .

فى أثنا ذلك عبرت كتائب الفرنجة جبال الألب ونزلت على السهل

اللومباردى ثم أجبرت الملك استولف على التعهد برد الأملاك التى كان قد استولى عليها من البابوية إلى جانب أداء يمين الولاء عن مملكته للملك الفرنجى. ولكن استولف سرعان ماتنكر لوعوده تلك ، وزحف بجيشه ليحاصر مدينة روما ، فاستنجد البابا بالملك الفرنجى مرة ثانية . وعبر الجيش الفرنجى جبال الألب مرة أخرى وأجبر استولف على رفع الحصار عن روما وإلى عقد صلح مع الملك الفرنجى والبابوية مع دفع جزية سنوية وتقديم بعض الرهائن لبين القصير . وفى أثناء المفاوضات وصل سفراء الإمبراطور الشرقى من بيزنطة يطالبون بإعادة رافنا للإمبراطورية الشرقية . ولكن بين صاح فى وجه السفراء بأنه لم يدخل الحرب ضد اللومبارد لحساب أحد ، وإنما هو قد حمل سيفه لحماية خليفة القديس بطرس أى البابا الرومانى ، مبيناً لهم أن الإمبراطور الشرقى لا حق له فى المطالبة بأية أملاك فى إيطاليا لأنه قد تقاعس عن الدفاع عن البابا من شوكة العدو اللومباردى من ناحية ، ولأنه هو وشعبه قد خالفوا مبادئ الكاثوليكية والتقاليد الرومانية . ويحدد هذا التاريخ بداية السلطان الزمنى لبابوية العصور الوسطى والتى ساهمت مع حلفائها الفرنجة فى بعث ما قد تبقى من حطام رومانى من الأكفان .

توفى الملك بين القصير فى ٢٤ سبتمبر ٧٦٨ م بعد أن قسم المملكة بين ولديه كرلومان على النصف الجنوبى ، وكارل على النصف الشمالى . ولم يكن الأخوان على وفاق ، ولولا تدخل الملكة الأم فى أكثر من مناسبة لاشتعلت الحرب بينهما : فلقد رفض كرلومان مساعدة أخيه كارل ضد كونت أقطانيا المتمرد . ولما أن تزوج كرلومان من ابنة الملك اللومباردى دزديريوس

واسمها جبرجعة ، سعى كارل بدوره إلى الزواج من شقيقتها ديزيدراتا حتى لا
ينفرد أخوه بالخطوة في بلاط باثيا اللومباردى . غير أن البابا انزعج عند سماع
تلك الأخبار ، فكتب إلى كارل يهمس إليه أن الأميرة ديزيدراتا عقيم عاقر ،
محذراً إياه من مصاهرة البيت الملكي اللومباردى ، ولكن كارل تزوج بالفعل
من ديزيدراتا اللومباردية . ولكن همس البابا ظل يستحوذ عليه فقام بطرد الأميرة
التي عادت بعد فترة زواج قصيرة كسيرة القلب ذليلة إلى بلاط والدها في باثيا .
ثم حدث أن توفى كرلومان سنة ٧٧١م فجأة ، فهربت أرملته جبرجعة وأطفالها
إلى بلاط أبيها تشكو إليه من تحرشات كارل ، ولتزيد من مشاعر البغضاء بين
أبيها وبين كارل ..

رفع ديزيدريوس (٧٥٦ - ٧٧٤ م) مظلمة ابنته الأرملة جبرجعة وأطفالها
إلى البابا هارديان (٧٧٢ - ٧٩٥ م) ، طالباً منه إجبار كارل على إعطاء أبناء
أخيه المتوفى حقوقهم المشروعة في مملكة الفرنجة ، ولكن البابا لم يكثر بهذا
الطلب ، فقام الملك اللومباردى بشن حملة على الأراضى البابوية وزحف
لضرب الحصار حول مدينة روما .

استنجد البابا بحليفه كارل الذى أرسل جيشه وحاصر مدينة باثيا سنة
٧٧٣م ، التى استسلمت إليه ، ثم قبض على الملك وأودعه أحد الأديرة ، فى
حين أن ابنه ادلخيس هرب لاجئاً إلى القسطنطينية ليتوفى بها بعد بضع سنين .
وهكذا وضع كارل نهاية للمملكة اللومباردية وأعلن نفسه ملكاً عليها ، فى
حين حصلت البابوية على نصيبها من الغنيمة بما فى ذلك مدينة رافنا التى
كان البيزنطيون يلحون فى استردادها .

فى هذه الفترة من تاريخ العصور الوسطى الأوربية ظهرت فى الغرب اللاتينى الوثيقة الشهيرة بإسم « هبة قسطنطين العظيم » (Donatio Con-stantini Magni) ، وهى وثيقة مزيفة من الألف إلى الياء ، ولا نعرف كاتبها وإن كانت فى أغلب الظن من فعل مسئول فى البلاط البابوى وربما بيد البابا نفسه . ويرجع الفضل إلى اكتشاف زيف هذه الوثيقة التى ظلت مقبولة فى غرب أوربا على أنها وثيقة أصيلة إلى العلامة الإيطالى لورنتيوس فاللا فى القرن الخامس عشر أى فى عصر النهضة الإيطالية . وتروى هذه الوثيقة المدسوسة أن قسطنطين كان مصاباً بمرض عضال هو مرض الجذام ، وأن الأطباء ، وكهنة الأوثان لم يجدوا له علاجاً ، فأشاروا عليه بأن يجمع عدداً من المواليد ليذبحوا ويقتسل الامبراطور المريض بدمهم كى يبرأ .

فأمر الإمبراطور بإعداد هذه المذبحة ، فجمع الأطفال الأبرياء رغم ولولة أمهاتهم استعداداً للمجزرة البشرية . غير أن قسطنطيناً أشفق على هؤلاء الصغار الأبرياء فجأة وأمر بإعادتهم إلى صدور أمهاتهم الملتاعات . وفى هذه الليلة زاره فى المنام القديس بطرس وأرشده إلى المخبأ الذى كان يتوارى فيه البابا الرومانى سلفستر ، وبشره بالشفاء من مرضه ان هو قابل البابا . ولبى قسطنطين النداء ، فقصده إلى مخبأ سلفستر الذى رحب بمقدمه وغسله بالماء المقدس وعافاه من مرضه الرجس . ولما أن عوفى قسطنطين من دائه اللعين أراد أن يكافئ البابا على حسن صنيعه له ، فقرّر أن ينسحب من مدينة روما للإقامة فى عاصمة جديدة فى الشرق ، وأن يترك روما وإيطاليا وولايات الغرب جميعاً تحت صولجان البابا وحده . كما سمح للبابا أن يقيم فى قصر اللاتيران ، وأن يزدان

كالإمبراطور بالتاج والعباءة الملكية ، وأن يمتطي جواداً أبيض (٧٨) ..

إن هذه الوثيقة المزيفة تعتبر أهم الركائز التي بنيت عليها نظرية السمو البابوى روحياً وزمناً على مدار العصور الوسطى ..

بعد أن قضى كارل على مملكة اللومبارد ، اشتبك سنة ٧٧٨ م مع عرب اسبانيا فى موقعة سراجوسا ، ثم مع قبائل الباسك حيث كان يعبر جبال البرانس عائداً إلى فرنسا ، ثم دخل فى حرب شرسة مع السكسون والبافار واجبر هذه القبائل الوثنية على الدخول فى المسيحية على المذهب الرومانى وذلك تحت وطأة الحديد والنار ، ثم اقام لهذا الغرض عدة اسقفيات فى بلدان مندن ، بادربون ، فردان ، برمن ، هالبرشتات ، مونستر ، وهامبورج ، وعندما تمرد عليه تاسيلو زعيم البافار سنة ٧٨٢ م ، قبض عليه واودعه وذويه فى أحد الاديرة ، ثم مال على يوهيميا واخضعها لسلطانه . كما شيد كارل اسطولا استولى به على سردينيا وكورسيكا والبليار . وأدخل تعديلا على الأراضى التى اقتطعها من اسبانيا عرف باسم « المارك » وهو وحدة عسكرية إدارية يحكمها نائب عنه بلقب « مارك جراف » ، ومن هذا الثغر بدأت عمليات التوسع جنوبا حتى نهر الابر فىما تلامن تاريخ .

وقد كان النجاح حليف كارل فى أغلب هذه الحروب ، واتسعت دائرة سلطانه الأمر الذى أعاد للاذهان ذكريات الأيام الخوالى والأمبراطورية ، ومن هنا تولدت فكرة إحياء الإمبراطورية الرومانية فى الغرب التى كانت قد سقطت نهائياً سنة ٤٧٦ م على أيدي الزعيم الجرمانى أودواكر . والحق أن فكرة الأمبراطورية كانت قد طمست فى مخيلة سكان الولايات بعد الغزوات الجرمانية

المتكررة والتي بنح زعماء هذه الغزوات فى سلخ تلك الولايات عن الحكومة المركزية وإقامة ملكيات مستقلة عن التاج الإمبراطور الذى وإن كان قد سقط فى الغرب إلا أنه ظل ولو من الناحية النظرية قائما على ضفاف البسفور فى روما الجديدة أو القسطنطينية . ولكن كنيسة روما وعلى رأسها البابا قد بقيت صلبة تدلل بمراسيمها وهيتها وسطوتها على فكرة الأمبراطورية الضائعة ، ولقد أيدها فى هذا الشعور مذهب عقائدى واحد وتمائل فى الطقوس فى شتى أصقاع الغرب اللاتينى . كذلك كان للجالس على كرسى البابوية اليد الطولى فى نشر المسيحية على المذهب الكاثوليكي بين شعوب الغرب الوثنية ، فصارت للبابوية هالة روحية كبرى وصار للبابا سمات الكاهن الأكبر على كل كنائس الغرب . ونظرت شعوب اوربا إلى البابا على أنه والقانون الرومانى يمثلان الرابطة التى تشد جميع بلدان الغرب اللاتينى تحت لواء واحد ، خاصة بعد أن استأصلت شأفة الاريوسية بين القبائل الجرمانية المختلفة . وعلى هذا باتت كنيسة روما بمثابة الامبراطورية الروحية الشاملة. على أنه فى نفس الوقت لم يغفل البابوات عن حقيقة أن الأمبراطورية الدنيوية الشرعية التى ارسى قواعدھا قسطنطين الكبير كانت لا تزال قائمة فى بيزنطة، ولذا فقد كان لزاماً على الجالس على كرسى البابوية أن ينظر فى حذر إلى الجالس على عرش قسطنطين العظيم، فهو الرأس الأكبر لهذا الجسد الدنيوى. غير أن البابوات قد امتعضوا من مواقف كنيسة بيزنطة فى اياصوفيا ومن أباطرتها ايضا: فلقد اھين بابوات كثيرون ونكل ببعضهم ونفوا عن كراسيهم بسبب استبداد امبراطور القسطنطينية ، كما وأن سلسلة من البدع والهرطقات وتحطيم الايقونات فى النصف الشرقى

من الإمبراطورية قد سبب الاما مبرحة لخليفة القديس بطرس ، ناهيك عن مزاعم بطريك القسطنطينية الذى لم يكف عن زعمه بانه صنو للبابا الرومانى .
واهم من هذا وذاك فإن صرخات البابوية المتكررة للنجدة لم تجد آذانا صاغية فى القسطنطينية عندما كان اللومبارد وغيرهم من الأعداء يضمرون الشر للبابا ويتربصون سوءاً للبابوية ..

والحق أن الأمبراطور البيزنطى كان منصرفا إلى دفع التهديدات التى لم تنقطع عن حدود امبراطوريته الشرقية تارة مع الفرس وأخرى مع العرب وثالثة مع السلاف والآفار ، وعليه فإن الأمبراطور الشرقى بدا عاجزاً العجز كله عن أن يمد يد العون للبابوية ولروما فى وقت محتتها . كذلك كانت التقاليد فى النصف الشرقى للإمبراطورية منذ عهد قسطنطين الكبير (٣٢٤ - ٣٣٧ م) أن يضطلع حامل التاج بمهمة حماية العقيدة من مخالب الهرطقة ومن ثم كان يرأس جميع المجامع المسكونية الخاصة بالجدل اللاهوتى ، كما أن بطريك بيزنطة كان يخضع لمشورة الامبراطور إن لم يكن لأوامره ، بل وكان من حق الامبراطور ايضا أن يخلع من البطارقة من يشاء وأن يرفع على عرش ايا صوفيا من يشاء ايضا . ولقد انزعجت البابوية تماماً بل واستنكرت هذا التدخل العلمانى البغيض فى شئون كان البابا يرى دوما أنها من صميم إختصاصه هو فقط كرأس للكنيسة المسكونية غربا وشرقا وكصاحب الحق الأوحد فى « الحل والربط » . كذلك عندما احتدم الجدل حول الايقونات وأخذ الأباطرة الإيسوريون فى بداية القرن الثامن فى تحطيم الايقونات على أنها أصنام وهدد هؤلاء الآباطرة بالزحف غربا لتحطيم ايقونات الكنيسة الرومانية فى عقر دارها ، فزع البابوات

من هذا التهديد وايقنوا أن الجالس على عرش قسطنطين قد تردى فى الكفر ، فكتب البابوات تباعاً إلى أباطرة القسطنطينية الايسوريين بحقيقة مشاعرهم منذرين بأن إن هم اقتربوا من ايقونات روما وحرمتها المقدسة ، فإن شعوب الغرب قاطبة وعلى رأسهم جماعة الفرنجة فى غالة سوف تحمّل دروعها وسيوفها للذود عن السيد البابا وعن الايقونات المقدسة فى بيوت العبادة فى روما.

ومن الحقائق الهامة التى ينبغى ملاحظتها فى هذا الصدد أن مراكز الفكر اللاهوتى فى القرن الثامن قد انتقلت من الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس إلى مراكز جديدة فى غالة وبريطانيا وأسبانيا ، وهكذا فإن الإلهام العقائدى الذى كان يفد من الشرق قد نضب ، ولم يعد يفد - فى نظر الرومان - من المشرق إلا سلسلة من الهرطقات والتجديف والتطاول على ايقونات القديسين وآثارهم. كذلك فإن الغرب اللاتينى قد أنجب عمداً لاهوتين أمسوا يغذون الخاصة والعامة بغذاء روحى لاتينى جديد بدلاً من السفسة اليونانية العقيمة ، وأصبح فى مقدور روما أن تفاخر برجالاتها من أمثال جيروم وامبروز واغسطينوس ، وجريجورى الكبير وكولومبا وبونيفاس وغيرهم كثيرين . كما أن عدة مراكز ثقافية قد ترعرعت فى الغرب الأوروبى وأصبحت مناراً للعلوم اللاهوتية والفلسفة الافلاطونية ، ولم يعد هناك مبرر فى الغرب لتلقف ما يتساقط من على موائد الاسكندرية وأنطاكية وغيرهما من المراكز الثقافية القديمة ، خاصة بعد أن انسلخت هذه المراكز عن جسد الامبراطورية بعد الفتح العربى . وراح الرومان فى القرن الثامن ينظرون إلى مدارس باريس وتور وريمز

وكانتربرى ويورك ومينز وكولون ليتلقوا عنها المفاهيم اللاهوتية الصحيحة بلسان يفهمونه ..

من هذا السياق كله فإن البابوية أخذت تفكر جدياً فى التمرد على الأمبراطور الشرقى أو « اليونانى » وفى البحث عن بديل كاثوليكي قوى فى الغرب يشد ازرها وييسط عليها الحماية ، حتى وان كان من دم جرمانى ، شريطة أن يكون هذا البديل قد تشرب بالعقيدة الكاثوليكية وتأثر بالتقاليد الرومانية . ولقد وجدت روما ضالتها فى الجالس على عرش الفرنجة فى غالة ، فى شخص كارل الحليف المخلص الذى نجأها من مخالب اللومبارد والذى نشر لواء الكاثوليكية بحد السيف بين السكسون والبافار الوثنيين وبين العناصر السلافية التى سيطرت على وسط أوروبا ..

هذا وقد ظهر فى مدينة روما حزب قوى راح يفكر جدياً فى إعادة الأمجاد القديمة إلى العاصمة القديمة التى كانت ذات يوم سيدة حوض البحر الأبيض المتوسط جميعاً . إلا أن أعضاء هذا الحزب كانوا ساخطين على شخص البابا الجالس على عرش القديس بطرس آنذاك ألا وهو البابا ليون الثالث بسبب طبعه الاستبدادى وتسلمه على شعب روما وبسبب بعض الشبهات التى حامت حول ثرواته المتضخمة هو وأفراد عائلته . ولذلك فانه فى سنة ٧٩٨ م ثار أعضاء هذا الحزب على البابا ووقعوا به فى أحد شوارع روما وطرحوه أرضاً من على ظهر جواده ثم اوسعوه ضرباً ولكماً وقيل انهم قطعوا جزءاً من لسانه . غير أن البابا قد نجح بمعونة أحد أفراد حاشيته فى الهرب من روما إلى غالة يستصرخ كارل ملك الفرنجة الذى استقبله فى معسكره فى بادربورن ، وتوسل البابا إلى كارل

أن يعيده إلى عرشه وأن يسط عليه حمايته . ولم يتوان كارل فى الاستجابة لمطلب البابا اللاجىء ، فأعادته إلى روما مكرما تحت حماية فرقة فرنجية . وبعد قليل قدم كارل بنفسه إلى المدينة العظمى ليحسم الموقف ، فعقد محكمة مثل أمام قضائها كل من الباب ليون الثالث وخصومه ، واقسم البابا أنه برىء من الاتهامات التى وجهت إليه . وقضى العاهل الفرنجى كارل ببراءة البابا وأودع جميع خصومه فى السجن تحت تهديد السيوف والخناجر ..

ثم حلت ليلة عيد الميلاد لسنة ٨٠٠ م وامتألت كاتدرائية القديس بطرس بالمصلين ، وايضا بعدد وافر من ضباط كارل الفرنجى المدججين بالسلاح . وبينما كان كارل يركع للصلاة إذ بالبابا ليون الثالث يطل على القوم ممسكا بتاج ذهبى ويضعه على رأس العاهل الفرنجى ، ثم انحنى له وفق عادات القدامى ، وسط صياح الجميع فى صوت واحد بلاتينية رصينة : « إلى كارل العظيم ... الاغسطس المتوج من قبل الله ... ناشر السلام - امبراطور الرومان .. له الحياة والنصر وطول العمر » (٧٩) ..

وهكذا أصبح كارل الفرنجى هو كارل العظيم « أو شلمان » . (karolus magnus) الذى بعثت على يديه الامبراطورية الرومانية من الاكفان . ورغم مزاعم إينهارد كاتب سيرة شلمان بان سيده قد فوجيء بالتاج الرومانى ، إلا أن الدلائل جميعا تؤكد أن شلمان كان راغبا الرغبة كلها فى أن تزدان رأسه بتاج أغسطس ، فنحن نعلم أنه قبل التتويج بوقت وجيز كان قد أرسل سفراء إلى بلاط القسطنطينية ليطلب يد الامبراطورة الارملة ايرينى الجالسة على العرش وصية على ابنها القاصر فى الزواج . وليس بمستبعد أن يكون قد طرح على

ايرينى مسألة الاعتراف به امبراطورا على النصف الغربى جنبا إلى جنب معها ،
مثلما كانت الحال فى القديم عندما كان للامبراطورية سيدان ، واحد فى روما
القديمة ، وآخر فى روما الجديدة . ونجد فيما كتبه واحد من رجالات بلاط
شرلمان وهو الانجليزى ألكوين ما يلقى المزيد من الضوء على هذا التوجه : فهو
يقول بأن العالم تحكمه قوى ثلاث : البابوية فى روما وهى التى انقذت من
الضياع بفضل همة شرلمان وحسن صنيعه ؛ والامبراطورية الشرقية فى روما
الثانية أو القسطنطينية وهى التى صارت أمورها تدعو إلى الاسى والشعور بالعار ؛
ثم الامبراطورية التى بعثت من الاكفان على يد شرلمان فى الغرب وهى أفضل
هذه القوى جميعا ، حيث تسود العدالة وتستأصل شأفة الشرور وترفع أركان
الخير والفضيلة (٨٠) ...

هذا وقد كانت لدى البابوية أسباب عدة للإقدام على نقل التاج
الامبراطورى من على رأس صاحبه الشرعى خليفة قسطنطين الكبير إلى رأس
زعيم فرنجى ينتمى إلى جموع المتبررين . وفى مقدمة هذه الأسباب حقيقة أن
حامل التاج الشرعى فى القسطنطينية آنذاك كان صبيا قاصرا عاجزا فقد بصره
على يد والدته ايرينى التى سملت عينيه لكى تزيجها عن العرش وتجلس هى بدلا
منه بمفردها ، وهذه سابقة شاذة فى التاريخ الرومانى لأن الناس لم يألفوا أن يروا
امراة ترتدى عباءة أرجوانية ، والأدهى من هذا أنها حملت لقب « بازيليوس »
أى « صاحب الجلالة » وليس لقب « بازيليسيا » أى « صاحبة الجلالة » .
كذلك لم تكن الكنيسة الرومانية على استعداد لأن تغفر لاييرينى جريمتها
النكراء التى ارتكبتها ضد ابنها القاصر ، ومن ثم فإن ايرينى بفعلتها البشعة التى

استاء منها البيزنطيون أشد الاستياء تكون قد سهلت على كل من البابا وحليفه شرلمان إيجاد الذريعة لاتمام هذه الدراما الفريدة فى كاتدرائية القديس بطرس فى روما . ومع أن ايرينى كانت قد اعادت عبادة الايقونات فى مجمع نيقيا المسكونى السابع سنة ٧٨٧ م ، إلا أن الأسرة التى كانت تنتمى إليها وهى الأسرة الايسورية كانت قد لطخت سيرة الأسرة برمتها بوصمة الهرطقة والتطاول على المقدسات والاثار الكنسية القديمة ، وذلك بطبيعة الحال من وجهة نظر الغرب اللاتينى .

كذلك كان البابا ليون الثالث مدركاً لحقيقة أن الامبراطور الشرقى ، حتى يوم أن كان رجلاً وليس امرأة ، كان عاجزاً كل العجز عن حماية البابوية من مخالب العدو اللومباردى فى شمال ايطاليا ، بل أن وقتاً قد جاء حينما عقدت بيزنطة وركيزتها اكزارخية رافنا فى ايطاليا حلفاً مع العدو اللومباردى ضد البابوية ذاتها . وكانت الحجة القوية لدى الحزب البابوى أنه طالما أن الامبراطور الشرقى عاجز عن الدفاع عن رعاياه فى روما ، فإنه من حق هؤلاء الرعايا أن ينقلوا ولاءهم لمن يستطيع بسط الحماية عليهم . ألم يكن الواجب الأول المقدس على خليفة قسطنطين الكبير أن يحمى كنيسة روما الامبراطورية (العالمية) وأن يصون لها هيبتها ويدافع عن قوامه إيمانها ؟ أو ألم يفشل الامبراطور الشرقى فى كل هذا جميعاً ؟ ثم ألم يضطلع شرلمان الفرنجى بكل هذه المهام التى كان خليقاً بالامبراطورالشرقى أن يقوم بها ؟ !

على ثقل هذه الحجج والأسانيد أقدم البابا ليون الثالث فى جرأة نادرة هو وكرادلته على التفرقة بين الخيال النظرى (De jure) وبين الواقع العملى

للأمور (De Facto) ، فقررروا تتويج شرلمان امبراطوراً للرومان ...

يضاف إلى هذا أن الشعور المتحفز في روما كان شعوراً لا يخلو من الغيرة من تلك المدينة الواقعة على البسفور والمسماة بروما الجديدة والتي لم تكن في نظر الرومان أكثر من مدينة محدثة النعمة . كذلك لم يغفر البابوات لبيزنطة أطماعها الرذيلة في منازعة روما في حقوق الإمارة على الكنيسة العالمية غربا وشرقا ، تلك الأطماع التي وضحت في جلسات المجمع المسكونية السبعة المتتابة . لقد كان لروما دوماً الحق في انتخاب الامبراطور وتتويجه ، فهي العاصمة الأولى للامبراطورية دون نزاع ، فكيف تستحل بيزنطة لنفسها اغتصاب هذه الحقوق التليدة ؟ لقد حان الوقت لروما كي تسترد حقوقها المغتصبة ، ولم يكن هناك سبيل لتحقيق ذلك إلا بأن تنفض روما عن كاهلها ذاك العبء البيزنطي الكريه « المتأغرق » وذلك بأن تلتمس لها امبراطوراً قوياً يجاورها جغرافيا ويؤازرها في الغرب اللاتيني . كما وأن البابا قد رأى بنفسه أن شرلمان هو رجل البابا الأول في الغرب الأوربي ، وهو الذي نشر العقيدة الكاثوليكية بحد السيف ، وهو الذي حفظ للبابوية كرامتها وحقوقها الدنيوية مثلما فعل والده بين القصير وجده كارل مارتل من قبل .

يضاف إلى هذا أن البابوية كانت ترغب في مقاومة توجهات الحزب الجمهوري الذي كان يسعى لإقامة قوميون (Commune) في المدينة يتحرش بالمصالح البابوية ، ولكي تؤمن البابوية نفسها تماما كان لابد من إيجاد حليف قوى يرهب هذا الحزب الجديد . وليس بمستبعد أن يكون البابا ليون الثالث قد تدارس الموقف من كل جوانبه مع مستشاري شرلمان اثناء تواجدهم في روما ،

وأيضاً مع بعض مواطنى المدينة من جماعة السيناتوريين وبعض الأسر النبيلة ، ذلك أنه لا يمكننا أن نتصور إقدام ليون الثالث على هذا العمل الخطير (التتويج) دون أن يكون قد ضمن تأييداً كافياً لمشروعه من جانب أغلبية من شعب روما .

أرسل شلمان سفراءه إلى البلاط البيزنطى ليلغوا السلطات هناك أن سيدهم قد توج امبراطوراً للرومان ، وكان يقصد من هذه السفارة الوقوف على ردود الفعل فى القسطنطينية ، ولقد أبدت ايرينى وحلفاؤها غضباً شديداً من فعلة البابا وحليفه المتبربر شلمان ، واعتبروا ذلك اغتصاباً للقب والتاج ، إذا أن الأمباطورية كانت قائمة بعاصمتها وجيوشها ومجلس شيوخها وكامل أجهزتها على ضفاف البسفور ، واتهم البيزنطيون البابا الثالث بأنه كاهن آثم قد تأمر ضد الحقوق الشرعية لخلفاء قسطنطين العظيم . كذلك هاجم الاسطول البيزنطى الشواطىء الإيطالية لتخويف شلمان ، ونشطت الأحزاب الموالية لبيزنطة فى إيطاليا خاصة فى مدينة البندقية ، كما تلقى شلمان اهانات بالغة فى رسائل مرسلة من الجالس على عرش القسطنطينية . ولكن شلمان لم يكن بحال ليتخلى عن اللقب والتاج ، وأخيراً فى سنة ٨١٢ م عقد الأمباطور البيزنطى ميخائيل رانجابه صلحاً مع شلمان واعترف بها امبراطوراً ..

بعد أن أعترفت بيزنطة بشلمان امبراطوراً لم يفكر فى اتخاذ خطوات عدائية ضدها ، ولكن أهل روما لم يشعروا بالارتياح لهذا الموقف الودى ؛ ذلك أن البابا واتباعه قد ظنوا أنهم بهذا التتويج قد انقذوا انقلاباً خطيراً ، وبأنهم قد خلعوا الامباطور البيزنطى نهائياً ، واعادوا السيادة الامباطورية غرباً وشرقاً إلى

امبراطور واحد فى الغرب اللاتينى الفرنجى . ولهذا فإن قوائم الاباطرة فى سجلات روما تسجل اسم شرلمان خلفا مباشراً للإمبراطور البيزنطى قسطنطين السادس ، وتضفى هذه السجلات على شخص شرلمان نفس الشرعية التى كان يتمتع بها اغسطس وقسطنطين العظيم . وكان البابا يعتقد اعتقاداً راسخاً أن شرلمان هو اصلح امراء الغرب لحمل التاج الرومانى ، ولم يكن هنالك فى الغرب من هو أهم من رأس الكنيسة الرومانية ليقنع الناس بهذا التغيير فى نقل التاج ...

لقد ابرز البابا ليون الثالث تاجا ووضعه فى حفل مهيب على رأس الزعيم الفرنجى ، ولم يكن من حق البابا أن يقتنى تاجا ولا أن ينعم به على أحد . ونحن لا نعلم من اين حصل ليو على التاج أصلاً . على أنه ينبغى القول بأن ليو الثالث قد استند فى فعلته هذه على موقعه كجالس على عرش الكاهن الأكبر ، وعلى الهالة التى كانت تحيط بمدينة روما ، وأيضاً على الشعور السائد فى الغرب اللاتينى آنذاك . ولولا أن البابا كان مطمئناً إلى أن ما سيقوم به سوف يقابل بالارتياح فى الغرب لما أقدم عليه .

كان هذا موقف الحزب البابوى ، أما الحزب الامبراطورى فقد جاهدوا صراحة بأن سيدهم شرلمان قد اكتسب التاج الرومانى بحد السيف ، ومن ثم فهو ليس مديناً لأحد بهذا التاج ، لأنه جائزة كفاحه . والحق أن هذا التفسير هو أوقع التفسيرات واقربها إلى منطق الواقع ، فلولا الفتوحات الضخمة التى انجزها شرلمان بحد السيف ، لما فكر فيه أحد كامبراطور .

على هذه الشاكلة أعيد احياء الأمبراطورية الرومانية فى الغرب اللاتينى بعد

أكثر من ثلاثة قرون ونصف من سقوطها على أيدي الجرمان . ولقد أحدث تنويع شرلمان تغيرات خطيرة فى خريطة أوروبا ، ومن أبرز هذه التغيرات الصراع الذى اندلع بين خلفاء شرلمان من الأباطرة وبين البابوية ، إذ برز على المسرح السؤال الخطير ، أيهما أسمى مقاما ، هذا الذى يمنح التاج أم ذاك الذى يتلقى التاج ؟ وأى السلطتين هى الاسمى : السلطة الدنيوية (Regales) التى يمثلها الامبراطور أم السلطة الروحية (Sacerdos) التى يمثلها البابا ؟ كذلك كان من نتائج التنويع أن ضمت إيطاليا والمانيا فى إطار امبراطورى واحد ، الأمر الذى جرّ الخراب على كل من الإيطاليين والألمان جميعا ، فقد ظلت إيطاليا عبئا على كواهل الاباطرة الألمان سبعمائة عاما تقريبا ، كما هلك من الدسائس وبعبوضة الملاريا الإيطالية عدد وافر من الاباطرة الالمان . كما أن سلسلة من البابوات قد هلكوا ايضا فى زخم هذا الصراع . ويقال أن بعض الاباطرة قد ماتوا بالسّم الذى دسه لهم الايطاليون المتمردون ليتخلصوا منهم .

أما المانيا فبدلاً من ان تتجه إلى تأمين رقعة اراضيها على الجبهة الشرقية ، فإنها أرهقت مالها ورجالها فى حملات مضنية عبر جبال الألب لترويض هذا «النوء» السياسى فى شبه الجزيرة الإيطالية وفى مملكة الصقليتين فى الجنوب الإيطالى . ولكم أضعاع الاباطرة الألمان زهرة شبابهم وهم يلهثون من سكسونيا أو بافاريا إلى روما أو كانوسا أو كلابريا أو بالرمو على حساب مصالح وهيبة التاج الألماني ، الأمر الذى جعل الاقطاع يعمق جذوره فى تربة الألمان تحت امرة الأدواق الأربعة فى سكسونيا وبافاريا وسوابيا وفرنكونيا .. ولا نبالغ أن قلنا أن إحياء الأمبراطورية الرومانية على يد شرلمان سنة ٨٠٠ م قد جعل الاتحاد الالمانى والوحدة الايطالية حلما بعيد المنال لم يتحقق حتى حلول أواخر القرن

استحدث شلمان بعض النظم التى تليق بخليفة الاباطرة الرومان ، فاصدر مراسيم عامة طبقها على كل رعاياه دون تفرقة ، وكلف مبعوثيه (Missi Do- minici) الخاصين بمراقبة تنفيذ هذه المراسيم ومعاقبة من يسىء استخدامها من الكونتات والافصال . كذلك عقد المجالس التى كانت تضم كبار رجال الدين ونفرا من وجهاء العلمانيين لتنظيم شئون الكنيسة . وكان على المبعوثين أن يوافقوا الامبراطور بتقارير مفصلة عن تنفيذ اوامره وتوجيهاته . ولم يكتف شلمان بإصدار القوانين بل اضطلع ايضا بمهمة القاضى الاكبر فى الامبراطورية ، واعطى لنفسه الحق فى اية قضية والفصل فيها ، وكان حكمه فيها نهائيا . هذا إلى جانب حقه فى النظر فى قضايا الجرائم الكبرى ، كما كان من حق المتخاصمين من عليا القوم استئناف النظر فى قضاياهم أمام محكمته سواء أكانت هذه القضايا مدنية أو كنيسية .

تركزت حكومة شلمان لامبراطوريته الواسعة فى بلاط قصره (Palatium) فى عاصمته إكس لاشايل (آخن) . وكانت سياسة الامبراطورية ترسم فى هذا القصر بواسطة شلمان نفسه مستعينا بمجلس خاص يتكون من خلصائه ومستشاريه . كذلك كان القصر بيتا للمال ، ففيه توجد الخزانة الامبراطورية ، وإليه كانت تعود الضرائب من الافصال والعوائد من الاتباع والمكوس من التجار والهدايا من متملقى حامل التاج من مختلف الطبقات ، إلى جانب رسوم النظر فى القضايا والأموال المصادرة والغرامات والجزية المفروضة على الشعوب المغلوبة وغنائم الحرب من ذهب وفضة وحرائر ثمينة ومجوهرات ومقتنيات نادرة .

وكانت نفقات القصر ومصروفات إقامة الحفلات واستقبال الضيوف

والسفراء تدبر من دخول الضياع الامبراطورية المنتشرة فى سائر أرجاء الامبراطورية . ولقد ورث شلمان هذه الضياع من الملوك الميروفنجيين ، ومع أنه وهب بعض هذه الأراضى للكنائس والأديرة ، إلا أن هباته كانت ضئيلة ان هى قيست بالهبات التى انعم بها الملوك الميروفنجيون على بيوت العبادة والاديرة من قبل ..

كذلك كانت هذه الضياع تمد القصر الامبراطورى بالغللال والثيران والخنازير والانبذة والجمعة وزيت الزيتون والاسماك إلى جانب الخيول لإسطبلاته الكبيرة . وقد جلبت فتوحات شلمان إليه ضياعا أخرى كثيرة فى لمبارديا وسكسونيا وبفارىيا ، وقد اقطع الامبراطور هذه الأراضى الجديدة لافصاله المقربين ولكبار موظفى بلاطه ..

وكان شلمان محباً للبناء والمعمار ، فشيد كنائس كبيرة اشهرها فى آخن وهى التى دفن فيها ، كما شيد قصراً رائعاً فى عاصمته آخن واخر فى مدينة انجلهايم وثالثا فى مدينة نجميجن ، كما اقام قنطرة على نهر الراين عند مدينة مينز . وكان مهندسو شلمان من الايطاليين المهرة الذين ابقوا فى العمارة على اسلوب المدرسة البيزنطية بطرزها الجمالية من الفسيفساء ..

ولعل أهم جهود شلمان تتمثل فى برنامج الطموح من أجل احياء الحياة الأدبية والتعليمية ، وهذا ما يطلق عليه عادة اسم « النهضة الكارولنجية » ، فلقد استقدم شلمان إلى بلاطه نفراً من مشاهير العلماء من مختلف البلدان الأوروبية وهم الذين ساهموا فى اقامة « مدرسة القصر » (Scola Palatina) . ولقد اتخذ كل من هؤلاء اسما كلاسيكيا شمل فيما شمل اسم هومر نفسه .

ولقد اهتم الشعراء فى مدرسة القصر بالشعر اللاتينى الكلاسيكى ، بينما اهتم آخرون بالنثر والخطابة . واشتغل فريق ثالث بالتاريخ والاساطير . ومن بين الاساتذة الذين استعان بهم شرلمان فى نهضته ألكوين الانجليزى الذى كان شاعراً متأثراً بشاعر فورتيوناتوس ، ولهذا الانجليزى عدة قصائد بعضها يتناول احداثا تاريخية قديمة وبعضها عن سير القديسين ، بينما يعالج البعض الآخر أهم المدن مثل يورك ومدينة لندرفان . ومن أشهر قصائد ألكوين تلك المساجلة بين الشتاء والربيع ، وهى من النمط الشائع آنثذ فى الاوساط الثقافية الانجلوسكسونية . ولألكوين ايضا مجموعة ضخمة من الرسائل النثرية تميل إلى الأسلوب الخطابى ، ومن بينها رسالة إلى صديقه آرنو أسقف ستراسبورج تخلو من التكلف والصنعة . ومن أعلام هذه النهضة ايضا ثيودلفوس اسقف اورليان وهو قوطى الاصل ، وكان بمثابة الشاعر الأول فى البلاط ، وقد تميز اسلوبه بالوقار والشجاعة وقولة الحق . ونجده فى احدى قصائده المطولة يقدم النصيح لقضاة الفرنجة وينهاهم عن الرشوة من ذهب مغربى وجلد قوطى وكؤوس فضية مزدانة بالرسوم . ويذكر أن هذا الشاعر قد تعرض فى شيخوخته لاضطهاد من قبل لويس التقى ابن شرلمان ، الذى القى به فى السجن واتهمه بالخيانة . ومن وراء القضبان راح الرجل الكهل يتذكر الشاعر اوثير وينهل من أفكاره ، فصور لنا ربة الحكمة وهى تتبنى قضيته وتدافع عنه وتطلب تبرأته . وقد تميز هذا الشاعر الشجاع بالنزاهة وحب الحق ، فهاجم نفاق رجال القصر ورذيلة التملق التى كانت متفشية فى البلاط ، كما أنه استخف بالالقب التى خلعتها الاساتذة على أنفسهم وعلى سيدهم الامبراطور ، فلقد اسموا شرلمان باسم « داوود »

وانجلبيرت باسم « هومر » .

ومن أعلام المدرسة أيضاً مؤرخ لومباردى اسمه بولس الشماس ، الذى كان قد أمضى بعض الوقت فى دير مونت كاسينو بعد سقوط مملكة اللومبارد فى أيدي شرلمان ، ولكن شرلمان دعاه للإقامة فى بلاطه ليفيد من علمه وقلمه . وفى أواخر سنى حياته عاد بولس اللومباردى إلى حياة الدير حيث سجل « تاريخاً للومبارد » إلى جانب سجل « للتاريخ العام » أكمل به ما كان قد بدأه المؤرخ الرومانى يتروبيوس من قبل ، كما كتب سيراً لبعض الأساقفة وللبابا جريجورى الكبير .. وكتاب بولس الشماس عن اللومبارد سجل تاريخى فى قصده ولكنه ملئ بالأقاصيص والأحاجى الخيالية المختلطة بين الواقع والميتولوجيا التوتونية وأدب البطولة ، وقد وضع هذا بشكل خاص فى تناوله لحياة كل من الملكين ألبرين وكوثنبرت^(٨١) ..

أما أشهر مؤرخى عصر شرلمان على الإطلاق فهو إينهارد صاحب « سيرة شارل العظيم » أو شرلمان (Vita Caroli Magni) . وبمقارنة مؤلف إينهارد هذا بما ورد فى تاريخ بولس اللومباردى نتبين الفرق الشاسع بين شطحات الخيال عند الشماس وبين التأمل الواعى عند إينهارد ، تماماً كما نلمس نفس الفرق بين خيال هيرودوت فى « تواريخه » وبين صدق ثيكوديديس فى حرب البلبونيز مثلاً . لقد وضع إينهارد نصب عينيه وحدة محددة ذات نسب وأبعاد كان مدركاً لمداها ، ومن هذا المنطلق أخذ يسجل أحداث تاريخه ، مقدراً أهمية الخط العلمى عند كتابة التاريخ .. والحق أن الرجل كان قد أفاد الكثير من طرائق القدامى وقواعدهم فى التأليف قبل أن يمسك بقلمه ويخط سيرة شرلمان .

فهو لا يفتش عن القصص الخرافية والمغامرات فى حياة بطله ، على الرغم من إعجابه بشخص شلمان وإعجاب شلمان نفسه بهذا النمط من القصص البطولى ، بقدر سعيه نحو رسم صورة موضوعية صادقة لعصره ولرجال العصور ، مسترشداً فى منهجه بكتابات ثيوتونيوس . وإينهارد من أصل فرنجى من بلدة مين ، وقد تلقى تعليمه فى دير فولدا ثم أرسله مقدم الدير هدية إلى بلاط شلمان فلقى من الأخير كل الترحيب والاعجاب . والقارئ لكتابات إينهارد يلاحظ أن الرجل لم يلتقط من التراث الأسطورى التيوتونى والحكاوى المتبربرة (Barbara et antiquissima carmina) إلا ما يعينه على تفهم سمات البطل وسلوكياته فى واقعة بعينها ، خاصة فى مهمة القتال ومواقف البطولة . وإينهارد بعد هذا ينفر بطبعه من أدب الملاحم والأناشيد ، فهو مثلاً عندما يعرض لمعركة جبال البرانس بين مؤخرة جيش شلمان وقبائل الباسك والتى سقط فيها البطل الفرنجى رولان ورفاقه إيجهارد ساقى الملك وأنسلم كونت البلاط وغيرهم ، يكتفى بتسجيل أحداث تلك الواقعة فى وقار المؤرخ ووضوح الرأى ، وقد حرر ذهنه من إنفعالات وخيالات العصور الوسطى .

إن هذه المدرسة الكارولنجية بعمرها من جنسيات أوربية متنوعة كانت بمثابة الشعلة التى بددت بعضاً من ظلام العصور الوسطى ، وكانت تعتمد أساساً على بعث التراث الرومانى القديم من الأكفان . ومن الأشياء الأخرى التى أولاها شلمان كبير الاهتمام تلكم الضحالة الثقافية لدى رجال الدين فى القرن الثامن ، وأغلاطهم الفاحشة فى النحو والصرف والأسلوبية . ويتضح ذلك من واقع الرسائل التى كتبها بعض هؤلاء إلى البلاط الإمبراطورى ، والمعروف

أن شرلمان نفسه كان أمياً لا يجيد الكتابة ، ولذا فإنه قد جلس فى قاعة الدرس فى القصر مع أبنائه وبناته يتعلم قواعد اللغة اللاتينية الصحيحة فى صبر زائد . ولكى يعالج لنقص المعيب فى رجال الدين فى مجال اللسان القويم فإنه أمر بان تعد عدة مواعظ سليمة الأسلوب والأجرومية وتوزع على كهنة الأبروشيات ليستفيدوا منها فى مواعظهم . كذلك أنشأ العديد من المدارس الكاتدرائية فى كل من ريمز وأورليان إلى جانب عدد آخر من المدارس فى البيوتات الديرانية فى سانت جال ، وتور ، وريشينو ، وفولدا ، وهرزفيلد ، وكورفى ، وهرشو . وكان الهدف من هذه المدارس تخريج الكهنة المتعلمين ، إلى جانب تثقيف نفر من العلمانيين أيضاً . وكانت الدراسة فى هذه المدارس تنصب على قواعد اللغة اللاتينية فى صيغتها المبسطة الدارجة (Vulgata) إلى جانب دراسة أعمال الفطاحل القدامى من أمثال فرجيل وهوارس وأوفيد وسالوست وجوفنال وسنيكا . كذلك كان شرلمان مهتماً بالموسيقى والألحان الكنسية ، فطلب من البابا أن يرسل له بنفر من المتخصصين فى الألحان الدينية ، وأسّر لهذا الغرض مدرستين للموسيقى واحدة فى مترز وأخرى فى سواسون ، وقد أدخل الإيطاليون آلة الأرغون إلى غالة فى عصر شرلمان الذى كان شخصياً شديد الشغف بأنغام هذه الآلة العجيبة ..

لقد أتت هذه الجهود أكلها وكان من أهم نتائج هذه النهضة الكارولنجية تنقية اللسان اللاتينى المستخدم من شوائب السوقية والتبربر ، وإن كانت هذه الخطوة قد وسعت الهوة بين لغة الكتابة ولغة التخاطب ، ولذا فإن هذه الأخيرة قد تطورت فيما بعد إلى لهجات شعبية محلية ودارجة هى النواة الباكرة

للفرنسية واللغات الرومانيسك الأخرى من أسبانية وإيطالية وغيرها ..

على أن الإهتمام الزائد باللاتينية الكلاسيكية قد ساهم فى حفظ عدد بالغ من المخطوطات لكتابات القدامى ولولا هذا لضاع هذا التراث القديم . كذلك كان لشرلمان الفضل فى أن يحدد للعصور الوسطى على مدارها اللسان اللاتينى كأداة للتعليم فى مختلف المدارس والجامعات الأوربية .

ولابد لنا أن نذكر فى هذا المجال أن شرلمان ظل وفيأ ومحباً للسانه الجرمانى الأصلى ، ولذا فإنه أمر بأن تصاغ لهذه اللغة أجرومية على أسس علمية لكى تصبح لغة أدب خالية من فجاجتها القديمة . وقد نجح العلماء فى بلاطه فى جمع عدد وافر من الملاحم والأساطير الموغلة فى القدم والمعروفة باسم " Nibe-lungen Lied " ، ولكن الأمر المؤسف أن ابنه لويس التقى قد أهمل هذا المشروع بحجة أنه تراث وثنى فاسد .

اعتبر شرلمان نفسه سيداً على الكنيسة بحكم منصبه كإمبراطور متوج ، فهو الذى دافع عن كنيسة روما ضد أعدائها اللومبارد ، وهو الذى نشر الكاثوليكية بحد السيف بين مختلف القبائل الوثنية ، وهو بعد هذا « المختار » من قبل السماء والمسوح بالزيت المقدس . ولذلك فقد اضطلع شرلمان بمهمة اختيار الأساقفة ورؤساء الأساقفة ، وكثيراً ما كان يعينهم دون انتخاب . كذلك كان يمارس حقه فى عقد المجامع الكنسية ورياستها وتوقيع قراراتها لتصبح نافذة المفعول . وكانت الكنيسة ورجالها يخضعون جميعاً لقوانين الإمبراطورية شأنهم فى هذا شأن العلمانيين من الرعايا .

وشرلمان بعد هذا هو أول من فرض ضريبة العشور وجعلها إجبارية تدفع للكنيسة ، وقد تلقف رجال الدين هذا القرار وزعموا أنه نص ملزم فى الكتاب

المقدس وراحوا يطبقونه فى سائر بلدان غرب اوربا ، ولم يكتف شرلمان بهذه السلطات الواسعة على الكنيسة بل طالب بحقه ايضا فى رسم السياسة العامة وفى اعتماد الطقوس والعقائد . ويتضح هذا من موقفه من المجمع المسكونى السابع الذى كانت الامبراطوره ايرينى البيزنطية قد عقدته سنة ٧٨٧ م لاعادة عبادة الايقونات ، فقد ارسلت ايرينى قرارات هذا المجمع إلى البابا هادريان (٧٧٢ - ٧٩٥ م) الذى وافق عليها وسر بها سروراً بالغاً ، ثم ارسلها بدوره إلى شرلمان لكى يذيعها على رجال الدين فى غالة . غير أن شرلمان لم يقنع بكل ما ورد فى هذه القرارات ، فجمع مجلساً من الأساقفة سنة ٧٩٤ م وأخذ يفند بعض هذه القرارات ، ثم أرسل إلى البابا هادريان بهذه التفنيدات فى مكتوب عرف باسم « كتاب كارل » (LIBRI CAROLINI) مشفوعاً برسالة غاضبة تنصح البابا ألا يتخذ موقفاً فى أمور العقيدة قبل أن يستشير شرلمان . وفى رسالة أخرى كتب شرلمان إلى البابا يفهمه أنه كرجل دين ينبغى أن ينحصر همه فى القيام بالصلاة فحسب ، وحذره من مغبة التدخل فى المسائل الشائكة التى هى من اختصاص الامبراطور ومستشارية فقط . وتتضح مفاهيم شرلمان لسلطانه على الكنيسة ورجال الدين ومن بينهم البابا نفسه من موقفه من البابا ليو الثالث : فلقد فرض عليه شرلمان المثل بين يديه ثم أمام المحكمة التى عقدها خصيصاً فى مدينة روما ليرأ نفسه من التهم والجرائم التى نسبت إليه ..

ولم يكن فى مقدور البابا ليو الثالث أن يعود للجلوس على عرش البابوية إلا بعد أن قرر شرلمان براءته وسمح له بذلك . وهذه الحجج والسوابق الشرلمانية هى التى التقطها فيما بعد الاباطرة الالمان فى صراعهم العنيد مع البابوية ، ذلك

الصراع الذى جرّ الخراب على كل من البابا والامبراطور ..

كان شرلمان قد تزوج مرات اربع ، وأنجب ثلاثة أولاد وعدداً وافراً من البنات ، وقبل وفاته قسم الامبراطورية بين أولاده الذكور شارل وبين ولويس . ولكن شارل وبين توفيا قبل أبيهما ، ولم يبق إلا لويس (المعروف بالتقى) ليترث كل اراضى الامبراطورية ، وذلك سنة ٨١٤ م وهى سنة وفاة شرلمان عن عمر يناهز السبعين عاماً ...

لا جدال فى أن بنيان شرلمان الضخم قد دفن مع مؤسسه فى قبره بمدينة اكس لاشايل سنة ٨١٤ م . ولقد وضع ستة من ورثته التاج الامبراطورى على رؤوسهم وهم : لويس التقى (ت . ٨٤٠ م) ؛ لوثير (ت . ٨٥٥ م) ؛ لويس الثانى (ت ٨٧٥ م) ؛ شارل الاصلع (ت ٨٧٧ م) ، شارل السمين (ت ٨٨٧ م) ، أرنولف (ت ٨٩٩ م) ، ثم لويس الطفل (ت ٩١١ م) ، الذى انتهت بوفاته سلالة البيت الكارولنجى فى مملكة الفرنجة الشرقيين أو المانيا ..

الفصل الرابع

القيصر والكاهن

الصراع بين السلطتين الزمنية والدينية – النظرية البابوية
والنظرية الامبراطورية – مشاهد وأحداث

خرجت الكنيسة الرومانية بعد الغزوات المتبربرة فى القرنين الرابع والخامس غاية فى الضعف فى مختلف البلدان الأوروبية ، وفى انجلترا دمر الغزاة بيوت العبادة كما اصيب الكهنة فيها بحال من الانحطاط الدينى والثقافى ؛ وفى فرنسا لحق الدمار بالعديد من الكنائس ، وفى المانيا كانت الحال اشد سوءاً . أما البيوت الديرية التى افلتت من الدمار مثل دير سان بنوا سير – لوار فإنها كانت تعاني ايضا من عدم الانضباط أو سوء مسلك الرهبان . ويلاحظ أنه فى عهد الملوك الميروفينجيين فى غالة مال السادة العلمانيون على ممتلكات الكنائس واغتصبوها ..

أما البابوية فى روما فكانت فى حال يرثى لها ، وكانت طوال الوقت معرضة للتهديد من جانب غزوات من صقلية . وكان يتم إختيار البابا بواسطة النبلاء الرومان ، ولم يكن البابا فى البداية أكثر من شيخ رومانى . وقد اشيع فى العصور الوسطى أن امرأة قد تسلمت وجلست على عرش البابوية ، وان كانت هذه الرواية لا تقوم على دليل قاطع ، إلا أنها تشير إلى تصور الناس عنها . وفى كل من غالة و المانيا لم يكن أمام الكنيسة لكى تعيش إلا أن تربط نفسها

بالسادة العلمانيين من امراء الاقطاع لضمان الحماية ، ومن ثم صار رجال الدين افضالاً لأمراء الاقطاعيين . ومع أن عددا من الاساقفة قد اضطروا إلى العمل العسكرى كفرسان مقاتلين فى خدمة السادة الاقطاعيين ، إلا أن أغليبتهم لجأت إلى وسيط من السادة النبلاء يتولى عنهم قيادة فرسان مؤجرين للخدمة إلى جوار السيد الاقطاعى ، وذلك مقابل مكافأة مادية أو عينية معقولة للوسيط الذى عرف بلقب (Advocatus) . وكان طبيعيا مع هذه الأوضاع الاقطاعية أن يقوم كبار النبلاء بتعيين كبار رجال الدين من كبار اساقفة وأساقفة ، وهذا ما عرف فى العصور الوسطى باسم « التقليد العلمانى » . هذا وقد استغل الوسطاء الفرصة لاغتصاب الكثير من اراضى الكنائس التى كانوا يقومون بحمايتها . وفى القرن العاشر نجح كبار رجال الدين فى المانيا فى تحرير انفسهم من قبضة كبار النبلاء من كونتات وأدواق بعد أن ربطوا أنفسهم وممتلكاتهم بالتاج الألمانى ، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن الملك الالمانى كان لا يقل جشعاً عن سائر الأدواق فى محاولته ابتلاع حقوق رجال الدين الالمان .. ومع أن تاريخ الكنيسة الرومانية الباكر يتسم بالغموض ، إلا أنه يمكن لنا أن نرصد بعض الملامح الرئيسية ، ومن بينها ظهور نظام « الابروشيات » (Parishes) فى القرى التى كانت تحت اشراف السادة الإقطاعيين . كذلك حدث تطور هام فى القانون الكنسى اعتماداً على كتابات الآباء الباكرين والمراسيم البابوية وقرارات المجامع الدينية . على أنه مع ازدياد قبضة السادة الاقطاعيين على رجال الدين ، فكر الاخيريون فى سبيل يدفعون به هذا الضغط الاقطاعى عن كواهلهم ، ووجد رجال الدين أن خير وسيلة يجابهون بها النبلاء العلمانيين أن

يزيفوا عدة وثائق ويذيعوها على الناس كسبيل للمناداه بحقوق قديمة اغتصبها منهم رجال الاقطاع ، وقد عرفت هذه الوثائق باسم « فتاوى ايزيدور » (Pseudo - Isidorian Decretals) ، وقد ظهرت فى منتصف القرن التاسع ونسبت إلى ايزيدور الاشبيلي والدوائر البابوية فى روما . ومن بين هذه المزيفات المزيفة الكبرى التى نسبت إلى قسطنطين الكبير وقصته مع مرض الجذام والبابا سلفستر ، كما اشرنا فى فصل سابق ..

هذا وقد كان لتأسيس دير كلونى (Cluny) على يد وليم دوق اقطانيا سنة ٩١٠ م اثر كبير فى اعطاء دفعة معنوية للكنيسة الرومانية ، فلقد حظرت قوانين هذا الدير على رهبانه أن يتلقوا إقطاعات من سادة علمانيين مقابل اية خدمات دينوية ، وإنما يكون المقابل قاصراً على إقامة الصلوات والدعاء لصالح المقطعين . كذلك نصت قوانين كلونى على ضرورة قيام الرهبان بالعمل اليدوى والفلاحة بدلاً من الكسل والتشاؤب ، وصار الشعار عندهم « العمل عبادة » (Orare est laborare) . كذلك امتاز اتباع كلونى بالالتزام بنظام صارم دقيق فى الطعام والشراب والعمل والصلاة وساعات النوم الى جانب الطاعة التامة لمقدم الدير (Abbot) ، وامتد هذا الاثر ليشمل الكهنة فى الابروشيات . كذلك خلع اتباع كلونى انفسهم من التبعية للسلطات الديوية ووضعوا انفسهم تحت مظلة البابوية مباشرة . ولحسن حظ الكنيسة الرومانية أن الامبراطور الالماني هنرى الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦ م) كان صاحب نزعة دينية ، فأخذ على عاتقه مهمة إصلاح الكنيسة من مفاسدها ، فبادر بنشر مبادئ كلونى فى كل أرجاء المانيا ..

وبدأت موجة الاصلاح تسرى فى جسد الكنيسة الكاثوليكية ، وكانت المهمة الكبرى أمام المصلحين تخلص الكنيسة ورجالها من قبضة رجال الاقطاع العلمانيين ، وتحرير البابوية من تدخل السلطات الزمنية فى اختيار شخص البابا ، فقد كانت العادة عند اختيار مرشح جديد للبابوية أن يشارك كبار رجال الدين والنبلاء الرومان فى هذا الاختيار ، وغالبا ما كان الابطرة الالمان يتدخلون لفرض مرشح يرضون عنه . ولذا فإن المصلحين ابتدعوا هيئة انتخاب دائمة عرفت باسم « كلية الكرادلة » كانت مهمتها اختيار البابا الجديد ، وتألّفت هذه « الكلية » من ستة اساقفة من ابروشية روما الكبرى إلى جانب سبعة من الدياكنة (Diaconi) . وكان مسموحاً منذ وقت مبكر لأفراد من الاكليروس من غير الايطاليين بالمشاركة فى هذه الهيئة شريطة أن يساموا ضمن اكليروس مدينة روما . ومع هذا الاصلاح ابتدع البابوات تقليداً جديداً يوفدون بمقتضاه « قاصداً » (Legatus) بابويا يرسل إلى الأجزاء النائية فى غرب أوروبا لمعالجة المشاكل الكنسية ، الأمر الذى مهد لتشديد قبضة البابوية على سائر الكنائس فى الغرب الأوربي . كذلك استن بابوات القرن الحادى عشر تقليداً جديداً اخر بان يمنح البابا لكبار الاساقفة فى الغرب الأوربي رمزاً بابوياً عبارة عن ضفيرة مطرزة من الصوف مزدانة بزخرفة دينية ارجوانية الشكل تعبيراً عن الرضا والحبور ، وبالتدرج صار الحصول على هذا الرمز شرطاً لمصادقية وصلاحيه كبار الاساقفة فى سائر كنائس الغرب . هذا وقد أنشأت الكنيسة لافرادها محاكم كنسية تجنبها مغبة المحاكمة أمام المحاكم العلمانية ، وقد تدرجت هذه المحاكم من محاكم ابتدائية يرأسها كبير الدياكنة إلى محاكم اسقفية فكبار اسقفية صعدا حتى تصل إلى محكمة البابا فى روما . كذلك اصر

المصلحون على محاربة آفتين خطيرتين فى سلك الكهنوت وهما زواج رجال الدين (النيقولاوية) ثم شراء المناصب الدينية بالمال (السيمونية) . ومن المعروف أن الكنيسة الكاثوليكية تصر على بقاء جميع رجال الدين من الكهنة والرهبان على التبتل (Celibacy) ، وذلك بخلاف الحال مع كنائس العالم الاخرى فى الشرق .

والغريب فى الأمر أن المسئول الاكبر عن حركة الاصلاح تلك كان واحداً من خلفاء شرلمان هو الامبراطور الالماني هنرى الثالث ، الذى بسبب نزعته الدينية الصادقة ، قصد إلى إيطاليا سنة ١٠٤٦ م وعقد مؤتمراً فى بلدة بافيا أدان فيه آفة السيمونية . وكان الجالس على عرش البابوية آنذاك البابا جريجورى السادس الذى كان قد اشترى الكرسي البابوى بمبلغ طائل من المال . ولهذا فإن هنرى الثالث عقد مؤتمرا آخر فى بلدة سوترى أعلن فيه خلع البابا جريجورى السادس وأمر بنفيه إلى منطقة الراين ، ثم عين ثلاثة بابوات تباعا من اختياره هو وهم : كلمنت الثانى ، وداماسوس ، ثم ليو التاسع . كان ليو التاسع اصلاً من ابناء دير كلونى ، وتدرج حتى صار اسقفاً لمدينة تول فى منطقة اللورين العليا . وقد اصطحب ليو التاسع معه إلى روما حاشية من كبار المتحمسين لمبادئ كلونى والاصلاح الكنسى وعلى رأسهم الكاردينال همبرت من سلطا كانديدا ، وفردريك اللورينى ثم هلدبراند .

وضع البابا ليو التاسع تقليداً اتبعه كافة خلفائه إلا وهو عقد مجلس سنوى عند كل عيد فصح فى مدينة روما تقرر فيه خطة الاصلاح لما قد يعن من مشاكل كنسية . وكانت قرارات هذه المجالس ترسل إلى الاسقفيات والابروشيات ، ويكون الاساقفة ملزمين بمباشرة تنفيذ هذه القرارات ، وهم

مسئولون أمام البابا ومجلس الكرادلة (Curia) عن تنفيذها . وكان الهدف الاسمى لدى هذه المدرسة الجديدة تخليص رجال الدين من التبعية لرجال الاقطاع . ولم تقتصر رسالة ليو التاسع على إصلاح أحوال رجال الدين الذين كانوا قد تردوا إلى درك بالغ من الفساد ، وإنما كان هذا البابا لا يغض الطرف عن اعوجاج الملوك والامراء ، إذ رأى فى نفسه مسئولاً عن الرعية جميعاً من علمانيين ودينيين ، ولهذا ليس بمستغرب أن نعلم أن أول من ثار ضد برنامج ليو التاسع الاصلاحى هم رجال الدين ذاتهم ، فبينما كان أحد الكرادلة المبعوثين من قبل البابا يخاطب مجمعا من الاكليروس سنة ١٠٥٣ م ويأمرهم فيه بمراعاة قانون التبتل ، إذ بهم يقومون بشغب صاخب ويقذفونه بالحجارة . ولكن المهم فى الأمر أن كنيسة روما قد أخذت على عاتقها مهمة الاصلاح شريطة أن يدرك الجميع أن أسقف روما هو « الكاهن الأكبر » لسائر بلدان الغرب الاوربى ...

كان من بين بطانة ليو التاسع راهب نابه اسمه هلدبراند ، الذى أظهر جرأة نادرة منذ دخوله عضوا فى مجلس الكرادلة سنة ١٠٤٥م حتى جلوسه على العرش البابوى باسم جريجورى السابع . والمعروف أن هلد براند كان ضمن أتباع جريجورى السادس الذى نفاه الامبراطور هنرى الثالث إلى منطقة الراين . ولما أن جلس هلدبراند على كرسى القديس بطرس عقد العزم على تجاوز البرنامج الاصلاحى لليو التاسع والمجاهرة ببرنامجه هو حول نظرية « السمو البابوى » . وقد تمثل هذا فى قوله بان البابا هو خليفة القديس بطرس وبأنه يمثل العدالة السماوية على وجه البسيطة . وكان هلدبراند شديد الاقتناع بأنه بحكم موقعه مسئول أمام الله ليس فقط عن كنائس الغرب الأوربى وإنما ايضا

عن سائر الكنائس فى العالم أجمع . أما امراء هذا العالم وملوكه وابطارته فهم فى نظره مجرد أدوات بوليسية لتنفيذ الاحكام التى يملئها عليهم البابا . ومن يجرؤ من أهل السلطان الزمنى على مخالفة البابا فإن البابا يرشقه بأسلحته الثلاثة من حرمان وقطع ولعنة (Excommunication, Interdict, Anathema) .

وفى سنة ١٠٧٥ م اصدر هلدبراند مجموعة من المراسيم عرفت باسم «الإملاءات البابوية» (Dictatus papae) مشتقة فى أغلبها من الوثيقة المزيفة التى قيل أن قسطنطين الكبير كان قد منحها للبابا سلفستر وكنيسة روما ، وأهم هذه الاملاءات :

- أن البابا الرومانى وحده هو الذى يلقب بلقب « العالمى » .
- أن للبابا وحده حق تعيين وخلع كبار رجال الدين .
- أن للبابا الحق فى التزين بالعلامات الامبراطوية .
- أن للرعية الحق فى التمرد ضد من تحل عليه لعنة البابا .
- أنه على الأمراء والملوك تقبيل قدمى البابا .
- أن للبابا الحق فى خلع الملوك والاباطرة .
- أن البابا وحده هو الذى يقرر من الصالح ومن الطالح .
- أن للبابا الحق فى محاكمة الجميع ، ولكنه هو لا يحاكم إلا من قبل الله (٨٢) .

وهكذا فإن « الكاهن الاكبر » بدلاً من محاولة تخليص الكنيسة الغربية من سيطرة العلمانيين ورجال الاقطاع ، سعى جاداً إلى بسط السلطان البابوى على الامراء والاباطرة والوصاية عليهم حتى فى صلب صلاحياتهم الدنيوية . وكان

هلدبراند مصراً على الا يتقلد أى من رجال الدين فى الغرب الأوروبى أى منصب الا من خلاله هو ، وليس بواسطة الملوك أو الأباطرة ، حتى ولو كان المنصب يتضمن اموراً دنيوية إلى جانب المنصب الكهنوتى . وهذا يعنى حرمان الامراء والملوك والاباطرة من حقوقهم الاقطاعية التقليدية فى علاقاتهم برجال الدين ...

كانت هذه النظرية الهلدبراندية تمثل تحدياً صارخاً للامراء والملوك ، وبشكل خاص للامبراطور الالمانى الجديد هنرى الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٦ م) . والعجيب فى الأمر أن والد هذا الامبراطور (هنرى الثالث) ، كما سبق أن بينا ، هو الذى أخذ بيد البابوية من كبوتها وابتدأ برنامج الإصلاح الدينى الذى وصل من خلاله هلدبراند إلى كرسى البابوى .

لم يكتثر الامبراطور الالمانى هنرى الرابع بمزاعم هلدبراند ، وكان هذا الامبراطور قد قاسى الأمرين فى طفولته من وصاية كبار الاساقفة عليه ، فكبر وكبرت معه مرارة حقيقية ضد رجال الدين بشكل عام . قام هنرى الرابع بتعيين اساقفة فى مملكته المانيا وقلدهم صكوك وظائفهم الدينية والزمنية على حد سواء كما كان يفعل اسلافه . ولكن هلدبراند ارسل إليه ينذره بان يكف عن هذا «التقليد العلمانى» وإلا فإنه منزل عليه قراراً بالحرمان . فما كان من هنرى الرابع إلا أن جمع كبار رجال الدين فى مملكته إلى مجمع فى بلدة ورمز ، وذلك فى يناير ١٠٧٦ م ، وأعلن المؤتمر أن هلدبراند قد وصل إلى عرش البابوية بطريق غير شرعى ، وبأنه راهب فاسد ، وأنه لا ينبغى على الكنيسة أن «تبقى على ذئب ليحكمها» . ورداً على هذا فقد عقد هلدبراند مجلساً فى

فبراير من نفس العام وفيه أعلن حرمان وخلع هنرى الرابع ، وذلك على ثقل
صلاحياته كخليفة للقدّيس بطرس ، وحفاظاً على سلام الكنيسة ، ومن واقع
حقه فى القاء خصومه فى اغلال اللعنة ، معلناً أنه « يخلع هنرى الملك ابن
هنرى الامبراطور ، معفياً كافة الرعية من عهد الولاء له » .

انتهز خصوم هنرى من الأدواق وكبار رجال الدين فرصة قرار الحرمان
الذى انزله عليه البابا ، وثاروا ضده واشتعلت الحرب الاهلية فى المانيا ، واجتمع
كبار رجال الدين الالمان وقرروا تعليق منصب التاج لمدة عام ، واشترطوا على
هنرى لكى يسترد عرشه أن يحصل على الغفران من البابا هلدبراند ، وتخفّز
ادواق سكونيا للاجهاز على هنرى الرابع ..

ولكن هنرى انسل خفية عبر جبال الالب إلى سهل لومبارديا حتى وصل
إلى توسكانيا وقلعة كانوسة الخاضعة للكونتييسة ماتيلدة حليفة البابا هلدبراند .
وكان هلدبراند قد تحرك من روما فى طريقه إلى المانيا ، معلناً أنه قادم « ليدق
المسمار الاخير فى نعش هنرى الرابع » . وفى الطريق نزل هلدبراند ضيفاً على
حليفته ماتيلدة فى قلعة كانوسة ..

علم هنرى بوجود هلدبراند ضيفاً فى قلعة كانوسة ، فامضى ثلاثة أيام
كاملة فى جليد يناير ١٠٧٧ م أمام بوابة القلعة وهو حافى القدمين ، عارى
الرأس ، مرتدياً رداء الندم المصنوع من الصوف الخشن ، حاملاً طفله ومصطحباً
زوجته . وبعد وساطة أحد كبار الرهبان الايطاليين ، وافق هلدبراند على استقبال
هنرى وهو يمسك بالسيف من نصله ، راکعاً ذليلاً حتى ارتمى على الأرض
يقبل قدمى البابا ، باكياً أن اغفر لى أيها الاب المقدس ! وقبل البابا هذا الندم

ورفع قرار الحرمان عن رأس الملك الثائب .

كان إذلال كانوسة علامة على وصول السلطان البابوى إلى قمة مجده ، على حساب الكرامة الالمانية التى لطخت فى وحل كانوسة . ولكن هنرى الرابع عاد إلى المانيا ليصفى الحساب مع خصومة ، وبعد كفاح مرير نجح فى الحاق الهزيمة بهم تباعا . ولما أن أفاق من مشاكل الادواق فى المانيا ، بتجاهل وعوده فى كانوسة ، وعاد إلى تعيين كبار الاساقفة دون مشاورة البابا هلدبراند ، فما كان من البابا إلا أن أصدر قراراً جديداً بالحرمان ضد هنرى (١٠٨٠ م) ، ولكن هنرى قرر أن ينتقم لكرامته ، وان يقلم أظافر هلدبراند الذى تجاوز بفعلته فى كانوسة كل الحدود ، فقاد جيشه وعبر جبال الالب ثم ضرب حصاراً حول مدينة روما ، ووقع هلدبراند فى المصيدة ، وراح يستنجد بحليفه الدوق النورماندى روبرت جويسكارد الذى كان يحارب فى البلقان ضد جيوش الدولة البيزنطية المتهاكة . إستجاب جويسكارد لصرخة حليفه البابا ، فهجم على مدينة روما واشعل النيران فى مبانيها الأمر الذى استاء منه الشعب الرومانى الذى رأى أن هلدبراند بطموحه الزائد ق جرّ الخراب على روما والرومان . وفى نهاية الأمر اختطف جويسكارد حليفه هلدبراند من قلب المدينة واصطحبه معه حيث عاش منفياً فى بلدة سالرنو إلى أن توفى سنة ١٠٨٥ م ..

أما الامبراطور هنرى الرابع فقد كانت نهايته ايضا مأساوية ، إذ أخذ البابوات الذين خلفوا هلدبراند تباعا فى صب قرارات اللعنة على رأسه ، ثم حدث أن تمرد على ابنه ووريثه هنرى الخامس واودعه أحد الاديرة . ولما توفى هنرى الرابع سنة ١١٠٦ م ترك جسده دون أن يصلى عليه بسبب قرارات

الحرمان المتتابة التي لحقت به ...

بعد ذلك جلس على العرش البابوي واحد من ابناء دير كلوني المرموقين وهو اوربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) ، وهو الذى حرك مشاعر العدوان بين الخاصة والعامة فى بلدان غرب أوروبا للهجوم على الأراضى المقدسة فى فلسطين بحجة تخليص بيت المقدس من أيدي الأتراك السلاجقة . وهبت غوغاء الفرنجة وفرسانها المفلسون وقطاع الطرق وارباب السجون تحت قناع الصليب للنهب والسلب وللإغتراف من العسل واللبن الذى وعدهم به البابا اوربان فى مؤتمر كليرمونت سنة ١٠٩٥ م ..

وقد تعمد هذا البابا ألا يشرك فى هذه الحروب أحداً من ملوك أوروبا حتى يحكم سيطرته من خلال مندوبه الاسقف أدهيمار على أمراء الاقطاع وعلى الحملات الشعبية . وأوربان الثانى هو المسئول عن إشعال حرب شرسة اتسمت بالسلب والنهب وسفك الدماء ضد شعوب الشرق الادنى (Levant) لقرنين كاملين من الزمان ، حتى قدر للسلطان المملوكى الأشرف خليل بن قلاوون ان يجهز على بقايا الصليبيين فى عكا سنة ١٢٩١ م . على أن هذه الهجمة المتبريرة الشرسة والمتعصبة قد تركت فى ضمائر الناس جروحاً عميقة لا تندمل ابداً على درب العلاقات بين الشرق والغرب ..

وفى عهد الامبراطور الالماني هنرى الخامس خفت حدة الصراع بين الامبراطورية والبابوية ، وتوصل الطرفان إلى اتفاق ورمز سنة ١١٢٢ م الذى جعل انتخاب كبار رجال الدين خاضعا لقواعد القانون الكنسى (Juris Canonici) ، على أن يرسل الامبراطور من يمثله لاعتماد هذا الانتخاب ،

ويعتبر هذا الحل انتصاراً للسلطة البابوية . والواقع أن نظرية السمو البابوى قد تأكدت على يد سلسلة من البابوات الاشداء بدءاً بأوربان الثانى ومرواً بياسكال الثانى ، ويوجين الثالث ، وهادريان الرابع ، ثم وصولاً إلى اشداهم بأساً البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ م) .

هذا فى حين أن السلطة الامبراطورية فى المانيا كانت تمر بحال من التدهور ، فلقد ضرب الهرم الاقطاعى بجذوره على التراب الالماني ، واغتصب الادواق الالمان الحقوق الملكية ، وتحول الفلاحون الالمان من أحرار إلى عبيد أو اقنان للأرض . وفى شمال إيطاليا حيث كان للامبراطور الألماني نفوذ عريض وقديم منذ أن قضى شرلمان على مملكة اللومبارد وضمها إلى التاج الفرنجى ، أنتهزت المدن الايطالية فرصة الصراع بين الامبراطور والبابا وراحت تحطم أغلال القيصر والكاهن جميعاً ، وتكون لنفسها وحدات سياسية شبه مستقلة قرية الشبه بنظام دويلات المدن (Polis) ، وكانت هذه نواة لنشوء القوميونات (Communes) الايطالية .

وبوفاة هنرى الخامس انتهى عصر الاسرة السالية من فرنجة الراين ، وأعقب هذا نشوب صراع مرير بين اسرتين ألمانيتين قويتين هما اسرة ويلف من سكسونيا واسرة هوهنشتاوفن من سوابيا . ونتيجة لهذا الصراع الدامى ، والفوضى التى عمت البلاد ، اتفق الأدواق الاربعة سنة ١١٥٢ م على اختيار ملك قوى هو فردريك السوابى كى يلم الشمل ويعيد الهيبة إلى التاج الالماني . ويرتبط عهد فردريك السوابى المكنى « برباروسا » أى صاحب اللحية الحمراء كما وصفه الايطاليون (١١٥٢ - ١١٩٠ م) بقيام فكرة « الامبراطورية الرومانية

المقدسة». ورغبة من بربروسا في عدم الدخول في صراع ضد أدواق سكسونيا وفركونيا وبافاريا ومناطق الراين لاسترجاع اراضى التاج المغتصبة ، فإنه فكر في تعويض ما خسره التاج على حساب اراض خارج المانيا في كل من برغنديا وايطاليا مكتفيا من الأدواق الالمان بأداء يمين الولاء والطاعة له .

وفى سنة ١١٥٣ م عقد بربروسا صلحاً مع البابا يوجين الثالث عرف بصلح كونستانس لتكوين حلف ضد عدو مشترك هو الملك النورماندى روجر سيد صقلية . وفى سنة ١١٥٦ م تزوج بربروسا من الأميرة بياتريس وريثة برغنديا ، وبذلك ضم هذه الولاية الغنية إلى صولجانه . ثم التفت بربروسا إلى مدن الشمال الايطالى وقوميواتها الفتية . وكانت ميلان اقوى هذه المدن فى مناهضة السياسة الامبراطورية ، ولذا فقد انحازت إلى البابا فى صراعه ضد الامبراطور الالمانى . أما مدينتا كريمونة وبافيا فقد وقفتا فى صف الامبراطور الالمانى . وفى سنة ١١٦٢ م اندلعت ثورة فى ميلان بتحريض من البابوية ، وعقد الميلانيون حلفاً مع العديد من المدن اللومباردية عرف باسم « العصبة اللومباردية » ، كما أنشأوا جيشاً قويا للتصدى للمطامع الالمانية على التراب الايطالى . وقد غضب بربروسا من موقف ميلان فعبر جبال الالب سنة ١١٦٢ م وقمع الثورة ودمر المدينة ، ثم عين عليها نوابا امبراطوريين لمراقبة القوميونات ولتنفيذ السياسيه الامبراطورية . ولكن المدن الايطالية أخذت تعزز من كتائبها وتعد العدة ليوم فاصل ، فلقد اكتوت هذه المدن لكونها مسرحاً للأحداث الدامية بين القصر والكاهن الاكبر ، حتى حلت سنة ١١٧٦ م عندما باغتت جيوش العصبة اللومباردية مجتمعة جيش بربروسا وواقعت به هزيمة ساحقة فى واقعة لينانو

(Legnano) . وترجع هزيمة بربروسا فى الدرجة الأولى إلى بسالة المدن اللومباردية ، وأيضاً إلى تخلى بعض الافصال الألمان عنه اثناء المعركة . واضطر بربروسا فى هذه المرحلة إلى مهادنة العصابة اللومباردية فاعترف لها بالاستقلال السياسى والقضائى والاقتصادى والعسكرى ، مع بقاء بعض المظاهر السياسية الصورية للامبراطور فى شكل ضريبة صغيرة ورمزية مع موافقة على تعيين موظفى القوميونات ..

ثم تفرغ بربروسا لمشكلاته داخل المانيا ، ونجح فى القضاء على اخطر منافسيه وهو ولف (Welf) دوق سكونيا سنة ١١٨٠ م وبعدها شجع رجال القانون فى جامعة بولونيا من انصاره على بلورة نظرية « التفويض الالهى » للامبراطور فى الحكم ، وبانه يحكم كخليفة لشرلمان ، وبأن التاج الامبراطورى الذى يزين رأسه ليس هبة أو منة (Beneficium) كما تزعم البابوية ، وإنما هو حقه المكتسب بحد السيف وخلافته لبيت شرلمان ، وهكذا رسخ بربروسا مفاهيمه لفكرة الامبراطورية الرومانية المقدسة . وفى سنة ١١٨٤ م قام بربروسا بتزويج ابنه هنرى السادس من الاميرة النورماندية كونستانس وريثة عرش جزيرة صقلية ، وبذلك ربطت مملكة صقلية النورماندية بالتاج الالمانى . هذا وقد مات فردريك بربروسا غريقاً سنة ١١٩٠ م وهو يقود الجيش الالمانى فى الحملة الصليبية الثالثة ضد السلطان صلاح الدين الايوبى ، وذلك فى نهر ضحل فى آسيا الصغرى رغم أن المنجمين فى بلاطه كانوا قد حذروه بأنه سوف يموت غريقاً !.

اعتلى هنرى السادس عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة سنة ١١٩٠ م ،

وكانت الموارد المالية الوافدة من الجنوب الايطالى ومملكة صقلية عاملاً هاماً فى تعزيز موقف الامبراطور الجديد ، الذى راح يخطط لنشر لواء الامبراطورية على كل بلدان حوض البحر الابيض المتوسط ، بما فى ذلك غزو الدولة البيزنطية نفسها وضم تاج القسطنطينية إلى تاج شرلمان . كذلك تضمن هذا البرنامج الطموح الزحف « نحو الشرق » (Drag nach Osten) لضم بقايا مملكة بيت المقدس الصليبية إلى الامبراطورية « المقدسة » . غير أن هذا المشروع الألماني الكبير الذى تبناه هنرى السادس لم يقدر له أن يتم بسبب الوفاة المبكرة لهنرى السادس سنة ١١٩٧ م تاركا العرش لوريثه الطفل فردريك الثانى ..

فى أثناء ذلك كانت النظرية البابوية فى السيادة تزداد رسوخاً فى كلية الكرادلة فى روما ، يؤيدها فى ذلك نفر من اللاهوتيين وعلماء القانون الكنسى ، وليس من باب الصدفة أن أغلب بابوات النصف الثانى من القرن الثانى عشر قد اختيروا من بين الضالعين فى القانون الرومانى والقانون الكنسى ، وكان على رأس هؤلاء البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ م) .

لقد تبنى انوسنت الثالث نظرية هلدبراند فى السمو البابوى والإمرة العالمية على الكنيسة ليس فقط فى الغرب الاوربى وإنما ايضا فى بلاد الشرق . كذلك خطط أنوسنت الثالث للوصول إلى بيت المقدس عبر القسطنطينية التى كانت كنيستها قد انشقت عن روما منذ القطيعة الكبرى سنة ١٠٥٤ م . وقد كان موت الامبراطور هنرى السادس المبكر وتركه طفلاً قاصراً من وراءه فرصة ذهبية لكى يقوض انوسنت الثالث سياسة الهوهنشتاوفن التوسعية . وانوسنت الثالث هو البابا الذى نجح فى إذلال الملك الانجليزى يوحنا واجبره على وضع التاج

الانجليزى فى وضع التبعية للبابوية ، كما وأنه اصدر قراراً بالحرمان ضد الملك الفرنسى فيليب اغسطس ليجبره على أن يطلق زوجته الثانية ،وهو بعد هذا الذى شن حملة « صليبية » ضد منطقة ألبى (Albi) فى الجنوب الفرنسى بحجة القضاء على الهرطقة ،وذلك من خلال محاكم التفتيش التى أُرهب بها شعوب اوربا جميعا ...

كان فردريك الثانى يبلغ سنتين من العمر عند وفاة والده هنرى السادس ، لذا فإن والدته كونستانس النورماندية وضعت تحت وصايتها فى حكم جزيرة صقلية ، بينما تولى عمه فيليب السوابى الوصاية على التاج فى المانيا . وانتهر اوتو الرابع ابن هنرى الأسد - العدو اللدود لآل الهوهنشتاوفن - الفرصة وراح يطالب بحقوقه فى دوقيتى سكسونيا وبفارييا ،واستعان فى سعيه بخؤولته ملوك انجلترا ريتشارد قلب الاسد ويوحنا ،وقد ساهم هذان الملكان الانجليزيان بالمال والسلاح حتى تمكن أوتو من أن يتوج ملكا على المانيا ١١٩٨م ، مما اشعل الصراع بينه وبين فيليب السوابى ..

وقد سارع البابا انوسنت الثالث بتأييد أوتو ضد فيليب كى يضعف فى النهاية من قوة المانيا . ولكن فيليب تغلب على اوتو وانصاره ، واضطر اوتو إلى الهرب إلى لندن ليحتفى فى بلاط أخواله . غير أنه فى سنة ١٢٠٨ م أُغتيل فيليب السوابى ، فظهر أوتو من جديد على المسرح الألمانى ، وفى سنة ١٢٠٩م وافق البابا انوسنت الثالث على تتويج اوتو امبراطوراً مقابل التنازل عن بعض الاراضى الإيطالية للبابوية .ولم ينقض عام واحد حتى قام اوتو بغزو بعض الاراضى فى مناطق توسكانيا وابوليا بل انه أخذ يتأهب لغزو جزيرة صقلية ايضا .

وانزعج البابا انوسنت الثالث من مسلک اوتو ، فأصدر ضده قراراً بالحرمان (١٢١٠ م) وأعلن فردريك الثانى امبراطوراً شرعياً سنة ١٢١١ م . وعلى التو سافر فردريك إلى المانيا حيث تم تنويجه ملكاً فى مدينة مينز (١٢١١) .

وقد شاءت الظروف أن تشتعل الحرب بين فرنسا و انجلترا بسبب الخلاف حول دوقيتى نورمانديا واقطانيا ، وتمكن الملك الفرنسى فيليب اغسطس من أن يوقع الهزيمة الساحقة بعدوه يوحنا ملك انجلترا وحليفه وابن أخته اوتو الرابع الالمانى المناهض لفردريك الثانى ، وذلك فى موقعه بوفين سنة ١٢١٤ م . وهكذا خلا الجو لفردريك الثانى ، الذى أعاد تنويج نفسه مرة أخرى فى عاصمة شرلمان اكس - لا - شابل سنة ١٢١٨ م .

كان فردريك الثانى شخصية عجيبة سابقة لعصره ، إذ كان اميراً مثقفاً ملماً بالعديد من اللغات من بينها العربية واليونانية ، وكان محباً للعلم والعلماء وخاصة العرب منهم ، كما كان على علاقة طيبة مع سلاطين البيت الايوبى فى مصر . وفى سنة ١٢٢٠ م قرر هجرة المانيا كلية والعيش فى دفء الشمس الساطعة فى بالرمو عاصمة جزيرة صقلية ، فقام بتقسيم المانيا بين الادواق فى شكل إقطاعيات وتبعيات واستقر فى مدينة بالرمو . وقد اتصف فردريك بالعقلانية والتسامح الدينى فى عصر كانت سمته الرئيسية هى التزمت ، ولذا فإن المعجبين به قد اطلقوا عليه لقب « أعجوبة الدنيا » (Stupor mundi) ، بينما لقبه اعداؤه من رجال الدين بلقب « الزنديق الاكبر » . ومن المعروف ان فردريك الثانى هو الذى اسس جامعة فى نابلى ، وهو الذى شجع الانشطة التجارية والصناعية ، وصار بلاطه محطاً لعلماء الغرب والشرق ، وقد تمت تحت مظلته

ترجمة امهات الكتب القديمة فى الطب والفلك والفلسفة والفيزياء عن العربية إلى اللاتينية ، الأمر الذى ساهم فى نقل أوروبا من عصر الظلام إلى تبشير عصر النهضة .

وقد عاصر فردريك الثانى ثلاثة من أعنى البابوات وهم انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ م) ، هونوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧ م) ، ثم جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١ م) . وقد الح البابا هونوريوس الثالث على فردريك بالقيام بحملة صليبية للاستيلاء على بيت المقدس ، ولكى يرغب فى المشروع الصليبي توسط فى تزويجه من الاميرة بولنده وريثة مملكة بيت المقدس سنة ١٢٢٥ م . ولكن فردريك لم يبد حماساً لهذا المشروع الصليبي بسبب علاقاته الودية مع السلاطين الايوبيين من خلفاء صلاح الدين ..

ولكى يعوض فردريك عن حقوقه الضائعة فى المانيا التى ابتعلها امراء الاقطاع ، فإنه راح يبحث عن مكاسب فى المدن الايطالية وقوميواناتها ، فعقد مؤتمراً فى كريمونة سنة ١٢٢٦ م أكد فيه الحقوق التاريخية للامبراطورية فى بلدان الشمال الايطالى . ولكن مدينة ميلان زعيمة العصبة اللومباردية استنكرت هذا التحرش الجديد من جانب حفيد بربوسا . والواقع أن البابوية كانت وراء المدن اللومباردية فى تصديها لمطامع فردريك ، الذى وصفه الايطاليون المتزمتون « بالزنديق الاكبر » وبأنه يولى حيواناته التى كان يقتنيها فى حديقة بالرمو اهتماماً أكثر من اهتمامه ببقايا الصليبيين فى عكا . ولوح البابا بقرار الحرمان ان لم يستجب فردريك بقيادة حملة صليبية . وأمام هذا التهديد رضخ فردريك للامر واعد حملة من عدد ضئيل من الفرسان وأبحر بهم ، ولكنه ما لبث أن

عاد أدراجه إلى صقلية ، متعللاً بسوء الصحة ، فما كان من البابا جريجورى التاسع إلا أن أنزل عليه قرار الحرمان بالفعل (سبتمبر ١٢٢٧م).

والمعروف أن السلطان الكامل ملك مصر وأخاه المعظم صاحب سوريا لم يكونا على وفاق ، وازدادت العلاقات سوءاً عندما استعان المعظم بالخوارزمية ضد أخويه الكامل والأشرف ملك الجزيرة الفراتية ، وهنا التفت السلطان الكامل إلى صديقه الامبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٢٦ م وارسل إليه وفدا برئاسة فخر الدين بن الشيخ إلى صقلية . ولكن الأحوال بين الأخوة الثلاثة تغيرت سنة ١٢٢٧ م ، عندما توفى الملك المعظم وخلفه ابنه الناصر على ملك سوريا فانتهز السلطان الكامل الفرصة واستولى على القدس ونابلس سنة ١٢٢٨ م .

فى أثناء ذلك كان فردريك الثانى قد انتهى من اعداد حملته الصليبية ، وبالفعل أبحر على رأس حملة صغيرة فى يونية ١٢٢٨ م ، وكان بعض رجاله قد سبقوه إلى قيسارية ويافا . وقد توقف فردريك فى جزيرة قبرص لتغطية نفقات الحملة ولتوسيع نفوذه فى حوض البحر الابيض المتوسط . واضطر حنا دى ابلين الوصى على الملك الطفل هنرى إلى أن يضع قبرص تحت حماية وتبعية فردريك .وقد ظن فردريك أنه سوف يحصل على بيت المقدس من السلطان الكامل دون قتال مقابل ما يقدمه له من عون ضد أخيه المعظم ملك دمشق . ولكن فردريك اصيب بخيبة أمل شديدة عندما وصل الى الشام واكتشف أن الأمور قد تبدلت بوفاة المعظم وسيطرة السلطان الكامل على بيت المقدس ونابلس ..

أحس الملك الكامل أنه ليس من مصلحته فى تلك الظروف أن يصطدم

بالصليبيين فى الشام ، ولكنه فى نفس الوقت لم يكن ليفرط فى بيت المقدس
وجهاد صلاح الدين بطل حطين فيؤلب عليه المشاعر فى سائر أرجاء العالم
الاسلامى .

أما عن فردريك ، فقد خرج من بلاده وعلى رأسه لعنة الحرمان البابوية ،
كما أن جيشه كان هزىلاً لا يمكنه من خوض حرب ضد الملك الكامل ، ولذا
فإنه عند وصوله إلى عكا أرسل رسولين إلى الكامل للتفاوض بشأن بيت
المقدس ، ولكن الكامل رفض تماماً تسليم بيت المقدس لفردريك . اتجه فردريك
إلى مدينة يافا وبدأ فى تحصينها لتخويف الملك الكامل ، ولكن أخباراً أتت من
صقلية بأن البابا أصدر ضد فردريك قراراً بالحرمان وإباح لرعاياه الاعتداء على
ممتلكاته . وهنا لجأ فردريك إلى حيلة ماهرة ، إذ راح يتذلل للملك الكامل
حتى قيل انه كان يركى بالدموع مبيناً للكامل أنه « مملوكه » وحليفه ، متوسلاً
الـا يخيب أمله فيه وإلا يعيده إلى الغرب الأوربى منكمس الرأس فيشمت فيه البابا
والخصوم . واستجاب الكامل لتوسلات فردريك وعقد معه اتفاقية يافا فى ٢٨
فبراير ١٢٢٩ م التى نصت على إعادة بيت المقدس للصليبيين على أن يحتفظ
المسلمون بقبة الصخرة والمسجد الأقصى ، مع تبادل الأسرى بين الطرفين .

لم يعجب هذا الإتفاق الصليبيين وخاصة جيرالد بطريق مملكة بيت المقدس
الذى هدد بانزال قرار الحرمان على المدينة وعلى من فيها إن هم استقبلوا
فردريك الثانى الملك « الملعون » من قبل البابوية . ورغم هذا التهديد فإن
فردريك قام بزيارة بيت المقدس ودخل كنيسة القيامة ثم تناول بيديه تاج
الامبراطورية من على مذبح وضع خصيصاً للمناسبة وقام بتتويج نفسه بنفسه ،

وفى هذا الفعل اشارة واضحة إلى أنه تلقى السلطة مباشرة من الله وليس من الكاهن الاكبر للغرب اللاتينى . هذا وقد خاطب الجماهير التى التفت حوله من صليبيين وغيرهم ، ووصف جموع الصليبيين « بالخنازير » مفنداً الادعاءات البابوية ومواقف بطريق بيت المقدس واسقف قيسارية المتزمتة . وبعدها ابهر فردريك من عكا إلى قبرص حيث امضى بضعة أيام ، ثم غادرها إلى عاصمته فى صقلية .

فى أثناء ذلك روجت البابوية اشاعة بأن فردريك الثانى قد هلك فى الشرق ، ولكن ظهوره المفاجئ فى ميناء برنديزى اوقع البابا جريجورى التاسع فى حرج شديد . ولكى تعفى البابوية نفسها من هذا الحرج ، اضطر البابا جريجورى التاسع إلى عقد صلح مع فردريك الثانى فى مؤتمر عقد فى سان جرمانو سنة ١٢٣٠ م ، وفيه تقرر رفع الحرمان عن فردريك ، وعلى أن يتعهد الامبراطور بحماية الاملاك البابوية . على أن هذا الصلح كان مجرد هدنة بين العدوين اللدودين ، ففى سنة ١٢٤٥ م عقد البابا مجمعا فى مدينة ليون وفيه تم حرمان فردريك مرة ثالثة مع قرار بعزله عن العرش بسبب « زندقته » وانتخاب ملك آخر بدلاً منه . ونتج عن هذا الحرمان الاخير أن اضطربت الأمور فى المانيا والمدن اللومباردية وفى صقلية نفسها . وفى خضم هذه الأحداث التعبة فى مختلف أركان الامبراطورية توفى فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ م .

والواقع أن مصير الامبراطورية الرومانية المقدسة قد انتهى مع موت فردريك الثانى ، خاصة وأن ابنه هنرى قد مات بعد سنين قلائل فى المانيا ، وفى سنة ١٢٦٦ م هجم الكونت شارل دى انجو شقيق الملك الفرنسى لويس التاسع

بتحريض من البابوية على جزيرة صقلية وقتل الابن الثانى (غير الشرعى)
لفردريك واسمه مانفريد ، وبعدها عانت المانيا من الفوضى والحرب الاهلية
حتى سنة ١٢٧٣ م عندما تم انتخاب رودلف هابسبورج امبراطوراً ليؤسس بذلك
قواعد أقوى الأسر الاوربية نفوذا واشدها استبدادا والتي ظلت تتحكم فى مصائر
الغرب الاوربى حتى مجيء نابليون بونابرت وقضائه عليها تماماً .

لاشك فى أن البابوية قد نجحت فى تخطيط أحلام آل الهوهنشتاوفن الالمان ،
وأمالهم فى الامبراطورية الرومانية المقدسة . ويلاحظ أنه خلال هذا الصراع المير
وقفت الملكية الفرنسية فى معسكر البابوية وخاصة فى عهد الملك لويس التاسع
وشقيقه شارل دى انجو ثم فى عهد فيليب الرابع ابن لويس التاسع ..

وعندما نصل إلى عهد الملك فيليب الرابع المكنى « بالوسيم » نجد تبديلاً
فى السياسة الفرنسية : فلقد كان هذا الملك (١٢٨٥ - ١٣١٤ م) شديد الثقة
بنفسه ، كما كان ناقماً على البابوية لأنها جرت والده إلى حملة فاشلة فى
قطالونيا .

وقد احاط فيليب الرابع نفسه بحاشية من رجال القانون الذين كانوا ينادون
بعلو السلطة الزمنية على السلطة الدينية . وقد ادى هذا إلى دخول فيليب فى
صراع مع كل من البابا هونوريوس الخامس (١٢٨٥ - ١٢٨٧ م) والبابا
نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٤ م) .

وبعد وفاة نيقولا الرابع اجتمع الكرادلة فى روما لاختيار البابا الجديد وسط نزاع شديد بين عائلتين نبيلتين فى روما وهما عائلة اورسينى وعائلة كولونا إلى حد وصل إلى القتال وسفك الدماء فى شوارع روما^(٨٣) . وللخروج من هذا المأزق اتفق الكرادلة على انتخاب أحد الرهبان المعتزلين فى نابلى للبابوية وتخطى مرشحى اورسينى وكولونا المتنازعين . ولكن البابا الجديد سلسبتين الخامس لم يكن يصلح لهذا المنصب الخطير ، ولذا فإنه سرعان ما اعتزل كرسى البابوية ورجع إلى ديره فى نابلى . وجاء من بعده رجل قوى اسمه الاصلى بندكت جيتانى الذى توج للبابوية باسم بونيفاس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣ م) وكان بونيفاس شخصا متعاليا مغروراً بنفسه وشديداً فى طموحاته ، وقيل انه كان يرفس الكرادلة بقدمه عندما يغضب ، وبانه وزع المناصب العليا والثروات فى روما على أقاربه ، الأمر الذى أثار حفيظة أعدائه من أسرة كولونا . ومن بين المآخذ التى أخذت على بونيفاس أنه أعطى لواحد من ابناء أخوته مالاً وفيراً من خزانة الفاتيكان ليشتري به لنفسه ضيعة كبرى . ولكن آل كولونا كانوا له بالمرصاد فأوقعوا بابن الاخ هذا واستولوا على هذا المال منه ، فما كان من البابا بونيفاس إلا أنه دعا إلى حرب « صليبية » ضد آل كولونا ، واستولى أتباعه على أملاك كولونا وثرواتهم ثم أمر بنفيهم خارج روما . وهكذا فقد بونيفاس مصداقيته ، وتضخم عدد أعدائه داخل روما نفسها ...

فى هذا الأثناء شهدت أوروبا حرباً عاتية بين فرنسا وإنجلترا حول دوقية غسكوين ولذا فإن كلا من الملك الفرنسى فيليب الرابع (١٢٨٥ - ١٣١٤ م) والملك الانجليزى أدوارد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧ م) قررا فرض ضريبة على

رجال الدين كل فى مملكته لسد الحاجة إلى المال والرجال والاسلحة . ولكن هذا الاجراء اغضب البابا بونيفاس الثامن ، فأصدر سنة ١٢٩٦ م املاءً بابويا بعنوان (Clericis Laicos) يحظر به أن يدفع رجال الاكليروس (Clericis) أية ضريبة للعلمانيين (Laicos) دون موافقة صريحة من البابا . ورد فيليب الفرنسى على هذا الموقف البابوى بأن منع تصدير الفضة والذهب إلى الخزانة البابوية ، فاضطر البابا إلى التراجع من موقفه معلنا أنه فى مقدور الملك الفرنسى أن يفرض ضريبة على الاكليروس الفرنسى عندما تكون الحاجة ملحة على أن يشارو البابا فى هذا الأمر فى حينه ، ولكى يبرهن البابا بونيفاس الثامن على حسن نواياه تجاه الملك الفرنسى أصدر قراراً بخلع لقب « القديس » على والده لويس التاسع ...

غير أن حدثا وقع فى الجنوب الفرنسى عكر الصفو بين الملك الفرنسى والبابا : فلقد كان فيليب حانقاً على أحد الاساقفة الفرنسيين فى الجنوب الفرنسى ، فحرض رجال بلاطه على تدبير خطة يقلم بها أظافر هذا الاسقف . لم يكن من العسير على رجال البلاط أن يبرزوا قائمة بالاتهامات ضد هذا الاسقف ، ثم رفعوها إلى البابا بونيفاس الثامن طالبين عزله من منصبه الدينى حتى تتمكن السلطات العلمانية فى فرنسا من محاكمته أمام محاكمها . ومن بين الاتهامات التى وجهت للرجل تهمة الهرطقة ، ولكن البابا اعترض على هذه الاتهامات ، بل انه أعلن من جديد تأكيده على قراره السابق فى عدم تدخل العلمانيين فى شئون رجال الاكليروس . ورد فيليب على هذا الموقف بأن جمع مجلس طبقات الأمة الفرنسى لمناقشة موقف البابا . وفى خلال ذلك

اصدر بونيفاس مرسوما بابويا جديدا يؤكد فيه على وحدة الكنيسة المقدسة وسموها على السلطان الزمنى للملوك والامراء (Unam Sanctam) ، بل انه هدد سنة ١٣٠٣ م بانزال قرار الحرمان على رأس فيليب الرابع نفسه ..

كان رد فعل الملك فيليب الرابع غاية فى الخبث والدهاء ، فلقد استعان بواحد من خبثاء بلاطه اسم وليم دى نوجارت لشن حملة تشهير ضد كبار رجال الدين من خصوم التاج الفرنسى داخل فرنسا ثم ضد البابا بونيفاس نفسه . اذاع نوجارت أن اسقف بلدة تروى (Troyes) على صلة آثمة بإحدى الساحرات ، وبأن الاثنين معا يمارسان السحر الاسود ضد شخص الملكة الفرنسية نفسها ، وذلك بتناول صورة لصاحبة الجلالة ووخزها بالابر المسمومة تكراراً ومراراً حتى تتشوه الصورة ، وبعدها تموت الملكة من فعل الوخز فى الصورة . وبعد إذاعة هذه الشائعات تمكن الملك فيليب الرابع من مصادرة أملاك الاسقف الذى ادين بتهمة السحر الاسود ..

بعد هذا طلب الملك من رجله نوجارت أن يبتدع شيئاً مماثلاً ضد البابا بنونيفاس الثامن للنيل منه . وأعد نوجارت قائمة من الاتهامات ليدين بها بنونيفاس ، من بينها أنه ساحر وهرطيق وبأنه قد دس السم لعدد من خصومه من الكرادلة ، وبأن له عشيقة فى قصر الفاتيكان . وبعد إذاعة هذه الاتهامات على الملأ ، توجه نوجارت إلى إيطاليا بصحبة واحد من ألد أعداء البابا وهو سيارا كولونا . وانضم آل كولونا إلى الرجلين فى روما ومعهم جمع من مشاغبي روما ، وزحف الجميع على بلدة آناجنى حيث كان بونيفاس يقيم مع أفراد عائلته . وفى ٧ سبتمبر ١٣٠٣ م قبض المهاجمون على بونيفاس ، ولكن أهل

البلدة تراحموا حتى اختطفوا البابا من مخالب أعدائه وحرروه من قيوده بالقوة . وكانت الصدمة بالغة الشدة على نفس بونيفاس الذى توفى بعد قليل متأثراً بهذا الإذلال البشع ..

وجد البابا الجديد بندكت الحادى عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤ م) نفسه فى موقف حرج للغاية ، فلقد كان تابعا مخلصاً لبونيفاس ، ولم يكن ليسمح بالمهانة التى تعرض لها سيده الراحل أن تمضى دون عقاب ، ولكنه فى نفس الوقت لم يكن ليرغب فى دخول حرب مكشوفة ضد فيليب الرابع . ولذا فإنه قرر رفع الحرمان عن فيليب شريطة أن يقوم الملك بمعاقة نوجارت الذى كان سببا فى موت البابا بونيفاس من الصدمة . على أن الاجل لم يمهل بندكت ليتم الصفقة إذ توفى بعد أقل من عام واحد من توليه منصب البابوية . وفى يونيه ١٣٠٥م اجتمع مجلس الكرادلة واختاروا للبابوية برتراند دى جوت كبير أساقفة بلدة بوردو الفرنسية . وتشير كل الدلائل إلى أن فيليب الرابع قد أثر على الكرادلة فى هذا الاختيار للبابا الجديد الذى اتخذ اسم كلمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٣ م) .

وبات معروفا لدى الجميع أن البابا الجديد هو صنيعة فيليب الرابع ملك فرنسا دون جدال ، ثم حدث أمر غريب للغاية ، فقد استدعى البابا الجديد مجلس الكرادلة من مدينة روما إلى مدينة ليون بفرنسا حيث تم تكريسه للبابوية ثانية ، ثم اتخذ البابا كلمنت الخامس قراراً أذهل الغرب الاوروبى قاطبة ألا وهو نقل المقر البابوى من مدينة روما إلى بلدة أفينيون (Avignon) على الضفة الشرقية لنهر الرون فى كونتية فيناسان فى ولاية برغنديا . كذلك غير كلمنت

الخامس من تركيبة مجلس الكرادلة اذ عين خمسة وعشرين من الثمانية وعشرين كاردينالا من الفرنسيين . وهكذا باتت البابوية مؤسسة فرنسية لحماً ودماً . ولسخرية الأقدار اكتشف المعاصرون أن البابوية التي كانت قد نجحت في تحطيم آل الهوهنشتاوفن الالمان الاشداء قد انتهى بها المطاف لتصبح اسيرة في جيب آل كاييه في فرنسا ، وتعرف هذه الفترة من انتقال البابوية من روما إلى افنيون باسم الاسر البابلي (Babylonian Captivity) .

أتاح هذا الانتقال إلى افنيون الفرصة لوليم نوجارت لكي يعيد طرح قضية البابا بونيفاس من جديد ، فحاول إغراء البابا الفرنسي الجديد بنبش قبر بونيفاس وأخراج عظامه وأحراقها علناً أمام الناس .. ولكن البابا فزع من هذا التهور وطلب من نوجارت التمهّل خوفاً من إثارة مشاعر الناس في الغرب الأوربي ..

وفى أثناء ذلك كان الملك فيليب الرابع ورجاله يخططون لما هو ادهى وانكى : فلقد قرر الملك الفرنسي أن يسطو على أملاك وخزائن جماعة الرهبان الداوية الذين فروا من عكا بعد سقوطها في أيدي السلطان أشرف قلاوون ، وقد حملوا معهم خزائن مليئة بالفضة والذهب . بدأ رجال فيليب باشاعة أن رهبان الداوية قد تخلوا عن المسلك الديراني المثالي وانغمسوا في ملذات هذا العالم وفجوره ، وبأنهم عندما يقسمون قسم الفروسية يقومون بطقوس فاجرة ، من بينها الركوع أمام تمثال للشيطان . وعليه فقد صدرت الأمور الملكية بالقبض على أفراد هذه الجماعة ، وصودرت أملاكهم وخزائنها ، ثم اطلع الملك الفرنسي البابا كلمنت على هذه الاجراءات ، فكون البابا لجنة لتقصي الحقائق ، وفوجئت اللجنة بأن الاتهامات كانت مختلفة وملفقة في أغلبها .

ولم ينتظر فيليب نتائج اللجنة فقام بتحريض خلصائه من كبار الاساقفة بالقبض على أعضاء هذه الجماعة واحراقهم . وبالفعل قام كبير اساقفة سينس (Sens) بإحراق خمسين من هؤلاء الرهبان . وجاء دور البابا ليدلى برأيه في الأمر بعد أن أطلع على تقارير اللجان ولم يجد بداً من أن يعلن حل جماعة الداوية ، بل انه أرسل بالتهنئة الحارة للملك الفرنسي لغيرته الشديدة على سلامة الدين وقوامة العقيدة . وبذلك استولى فيليب الرابع على كل أملاك الداوية دون مقاومة .

ظل الكرسي البابوي قائماً في بلدة أفنيون لمدة اثنين وسبعين عاماً كاملة تحت قبضة التاج الفرنسي ، إلى أن نجح البابا جريجورى الحادى عشر سنة ١٣٧٧ م من الهروب إلى إيطاليا وإعادة المقر البابوي إلى روما منهيّاً بذلك ما عرف في التاريخ الأوربي الوسيط باسم الأسر البابلي ..

الفصل الخامس

السيادة والعبيد

الهرم الإقطاعي – الجذور الرومانية والجرمانية للاقطاع

عالم الاقنان – ثورات الاقنان في فلاندرز وفرنسا و إنجلترا

تصدعت امبراطورية شرلمان سنة ٨٤٣ م في أعقاب نشوب حرب أهلية بين أحفاده ، وما لبثت غزوات متبربرة جديدة أن اجتاحت الغرب الأوربي في موجات متلاحقة من أهل الشمال النورمان وقبائل المايجار الزاحفة من الشرق . وفي هذه الظروف المضطربة أخذ نظام الإقطاع في التبلور ليصبح القاعدة الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية لسائر بلدان الغرب الأوربي . والواقع أن الطبيعة كما خبرها إنسان تلك القرون كانت متجبرة ومستعصية على الترويض ؛ إذ انبسطت على خريطة أوروبا في ذلك الوقت مساحات شاسعة من الأرض لم تمتد إليها يد الإنسان ، وإنما كانت مرتعاً للحيوانات الضارية من دبة برية وذئاب مفترسة تحوم حول أطراف البراري والغابات ثم تنقض على قلب الرقع المنزرعة بحثاً عن فريسة آدمية . وقد نعجب عندما نعلم أن بعض الجماعات في العصور الوسطى الأوربية كانوا يقتاتون على التقاط الثمار البرية تماماً مثلما كان يعيش الإنسان البدائي في سحيق الأزمان . ولم يكن الناس يخشون شيئاً قدر

خشيتهم ظلام الليل وقسوة برده وصفير رياحه . ومن هنا فإن إنسان العصور الوسطى قد سلم أمره لقوى غيبية متقلبة الطبع لا سبيل للسيطرة عليها أو التنبؤ بمفاجأتها . وتفيد السجلات بأن نسبة عالية من مواليد تلك العصور كانوا يهلكون عقب ولادتهم بقليل بسبب قسوة الظروف المعيشية ، ولم يكن حظ الكبار أفضل من حظ الصغار ، فمن لا يهلك فى الغابة يقتل فى الحروب ، ومن يفلت من هاتين المحنتين لا يعمر أكثر من أربعين عاماً فى أغلب الأحوال .

إن تلك الظروف القاسية هى التى شكلت عقلية العصور الوسطى ، إذ كان الناس يرون فى مظاهر الطبيعة من عواصف وبرق ورعد علامات على سوء المصير ، وأصيب المجتمع بحال من التوتر والهلوسة ، فتاه العوام والخواص فى غيبة أشبه ما تكون بأحلام اليقظة ، ونشطت فى هذا المناخ البيوتات الديرانية فراح أهل الدين يقضون فراغهم فى تفسير الأحلام والرجم بالغيب ، وفسروا الظواهر الطبيعية بخيال ساذج فى زمان غاب فيه العلم وتوارى عنه حكم المنطق والتعقل . ومن هنا فإن من يتصدى لتأريخ العصر الوسيط فى أوربا يصطدم بالضرورة بمشاعر من اليأس ونوبات الغضب وتقلب الطباع وبالأفكار القهرية الاستحواذية وغيرها من التناقضات الصارخة بين طبقات المجتمع . ويترتب على هذا كله صعوبة بناء تاريخ عقلانى لعصر لم يعرف أبجدية العقلانية ، فنحن أمام عصر « الإيمان الأعمى » ، وتنتضح هذه اللاعقلانية فى حوليات العصور الوسطى ، فلم يكن لدى أغلب القوم احساس بعامل الزمن ولا بدلالة الرقم ، حيث لم تكن لديهم الوسائط التى يقيسون بها الوقت من ساعات مائة أو شمسية ، ولم تكن الأخيرة حتى أن وجدت لتجدى كثيراً فى جو ملبد بالغيوم

فى أغلب فصول السنة . ونحن نعلم أن الملك ألفرد الإنجليزى (القرن التاسع) كان يستعين بعدد مهول من الشموع يشعل الواحدة من الأخرى لمتابعة مرور الساعات . وهناك رواية من مقاطعة هينولت عن مبارزة اتفق على إقامتها بين اثنين من المتخاصمين ، ووصل واحد من الخصمين فى وقت الفجر ووصل كذلك إلى موضع المبارزة الحكام ورجال الدين للشهادة عليها ، ولكن الخصم الآخر لم يظهر ، فطالب الأول بالحكم له بالفوز لأن الثانى قد فشل فى الحضور فى الموعد المتفق عليه . ولكن الحكام ظلوا يتداولون فى الأمر طويلاً لكى يتحققوا من أن الخصم الثانى لم يأت فى « الميقات » المتفق عليه ، ولم تكن لديهم وسيلة ثابتة الدلالة لتحديد هذا الميقات أو تلك الساعة على وجه التحديد . ولم يكن الزمن ذا قيمة واضحة المعالم فى أذهان هؤلاء القوم ، ولذا فإن العديد من وثائق وسجلات العصر الوسيط تخلو من التاريخ ، مع أنها قد كتبت أصلاً لكى تصبح سجلاً زمنياً لرصد حدث معين أو مناسبة هامة كتاريخ ميلاد أو وفاة أو وراثة أرض أو حفل تكريم إلى آخره . وقد تواكب مع هذه اللامبالاة بعامل الوقت لا مبالاة شبيهة بالأرقام والأعداد والإحصاءات ، وعليه فإن المؤرخ يجابه فى حوليات العصر أرقاماً خرافية حول أعداد الجند وعدد القتلى ، فعلى سبيل المثال لا الحصر تذكر الوثائق أن وليم الفاتح دوق نورمانديا كان يقود ما بين ثلاثين وستين ألفاً من الفرسان يوم أن غزا إنجلترا سنة ١٠٦٦ م ، بينما توضح الأبحاث الحديثة أن وليم لم يكن يقود فى غزوه لإنجلترا أكثر من خمسة آلاف من الفرسان .

كانت اللغة اللاتينية هى لسان العصر ، ولكن غالبية الناس كانوا يتخاطبون

باللهجة العامية المحلية (Vernacular) ، ومن هنا وجدت ثنائية حتى في اللسان ، إذ كانت الجرمانية والكلتية والأنجلوسكسونية والفرنسية القديمة تفرض نفسها جنباً إلى جنب قبالة اللاتينية . ولقد تعرضت اللاتينية الكلاسيكية لتدهور كبير عندما تسربت إليها ألفاظ كثيرة من أصول متبربرة حتى تساير روح العصر ومتطلبات أهله ، ناهيك عن انهيار قواعد النحو والأسلوبية . ولكن اللاتينية ظلت لغة الكتابة الوحيدة ، وهنا نجابه صعوبة أخرى ؛ فلو أن مشادة وقعت بين اثنين من الفرسان حول إيجار إحدى الإقطاعيات ، فإنهما يتنازعان ويتجادلان طيلة الوقت باللسان المحلى وليس باللاتينية ، غير أنه عندما تسجل لنا وقائع تلك المشادة فإنها تسجل باللاتينية بيد واحد من الكتبة المحترفين . وغنى عن البيان أنه بين ما يرد إلينا باللاتينية وبين ما قد وقع بالفعل باللسان المحلى هوة جد سحيقة .

يضاف إلى هذا أن اللاتينية الوسيطة كانت لساناً قاصراً في الغالب على رجال الدين فهم الطبقة الوحيدة المتعلمة ، أما العالم العلماني فكان أبعد ما يكون عن اللسان اللاتيني ، وكفى أن نعلم أن امبراطوراً عظيماً مثل شرلمان ذاته لم يكن يجيد القراءة ولا الكتابة ، وأن أوتو العظيم مؤسس الأمبراطورية الرومانية المقدسة لم يكن يعرف حروف الهجاء ، كما أن أبناء الطبقة الإقطاعية النبيلة شمال البرانس والألب كانوا أميين (illiterati) بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، لدرجة أن الغالبية العظمى منهم ممن اعتادوا على زيارة الأديرة في أمسياتهم لم يكونوا بقادرين على مجرد القراءة (idiota) في الكتب المقدسة . وفي البداية لم يكن أحد ليجرؤ على مجرد التشكيك فيما يقوله رجال

الدين ، حتى لو كان ما يقال أحياناً منافياً لأبسط قواعد المعقولة .

ولرسم صورة لأوروبا الإقطاعية ينبغي أن نلاحظ أن المجتمع قد أخذ بفعل الظروف يتشكل فى طبقات ثلاث : قوم وظيفتهم الصلاة ، وقوم وظيفتهم الحرب ، وقوم وظيفتهم فلاحه الأرض . ومع أن النظام الإقطاعى قد ورد من منابع جرمانية مع قبائل القوط والفرنجية ، إلا أن للإقطاع أيضاً جذوراً رومانية ، ذلك أن تغيير وضع الفرد بالنسبة للآخرين على أساس حيازة الأرض أمر يرجع إلى القرن الثالث للميلاد ، فعندما ازدادت وطأة الضرائب على كواهل الفلاحين لجأوا إلى رهن أراضيهم إلى السادة الأغنياء مقابل قرض معين . وعندما عجز الفلاح عن سداد ديونه ضاعت عليه الأرض وأصبح مجرد مزارع على أرض كان يملكها يوماً ما ولكنها لم تعد ملكه بعد . كما شهد نفس القرن محاولات الفلاحين الرومان فى التهرب من دفع الضريبة للدولة وذلك بالتنازل عن الأرض لأحد كبار موظفى الدولة أو من طبقة السيناتوريين المعفاة من الضريبة ، وفى مقابل ذلك يسمح السيد الجديد للأرض للفلاح بالاستمرار فى زراعة الأرض مقابل خدمات والتزامات أقل وطأة من الضريبة الحكومية ، وبالتدريج ضاعت الأرض على جماعات كثيرة من الفلاحين فتحولوا إلى معدمين تماماً . كذلك عندما نقص عدد العبيد بالإمبراطورية الرومانية قلت الأيدى العاملة فى فلاحه الأرض ، واضطر السادة من أصحاب الأراضي الشاسعة إلى السماح لبعض الفلاحين بزراعة شرائط من أرض السيادة المهجورة مقابل أجر هزيل أو جزء من المحصول ، وقد عرف هؤلاء باسم « المعمرين » (Coloni) وهى النواة الأولى لجماعة الأقتان (Serfs) فى العصور الوسطى .

هذا وقد عرف الرومان منذ العصر الجمهورى نظاماً عرف باسم « الولاية » أو « الظهيره » (Patronage) بمعنى أنه يحق للأعيان من طبقة الباتريكيان أن يفرضوا حمايتهم على أفراد من المجتمع الأقل درجة ، بحيث يصبح الفرد الذى تبسط عليه تلك الحماية « وليا » (Cliers) لهذا السيد أو ذاك . وكان السيد الحامى يتولى الدفاع عن أوليائه أمام المحاكم ، ويرعى مصالحهم الأخرى مقابل قيام هؤلاء بأداء خدمات معينة له عند قيامه بالسفر فى مهمة خارج دائرته . ومع مرور الوقت تمتع كبار السادة بحق فرض حمايتهم على ولايات بأكملها ؛ فقد وضع أبناء بيت سكيبو مثلاً كل المقيمين فى روما تحت حمايتهم . كذلك صار من حق النبيل الرومانى الذى يعتق عبداً من عبيده أن يفرض عليه حمايته . وعندما يزداد نفوذ نبيل ما فى الدولة ، يقبل عليه الكثيرون من « الأذنياء » يلتمسون منه أن يفرض عليهم الحماية ، وإذا ما قبل السيد هؤلاء تحت مظلته يصبحون « أهلاً للحماية » (Suscepti) . ولما أن ضربت الفوضى بأطنابها فى ولايات الإمبراطورية الرومانية ، عمد السادة إلى تحويل هؤلاء الذين أصبحوا تحت حمايتهم إلى حرس خاص لهم ، يتنقلون مع السيد أينما ذهب ويقومون بحراسته عندما يقوم بالقاء خطبة عامة فى الميادين ويسهرون أيضاً على حراسته وذويه فى قصره .

وكان هؤلاء الحراس يعيشون على كرم السيد وهباته لهم خاصة بعد أن تأكد للسيد أن هؤلاء أفضل بكثير من الاعتماد على العبيد المسلحين .

وعندما تغلغل الجرمان فى صميم حياة الإمبراطورية الرومانية ، عمد كثير من النبلاء الرومان إلى تأليف حرس خاص لهم من بين هؤلاء الجرمان ، الذين

عرفوا بشدة بأسهم فى القتال . وفى القرن الرابع صار لكل نبيل مرموق حرسه
الجرمانى الخاص ، يعيش أفراده فى قصر السيد للسهر على حياته ومصالحه ،
ولم يكن هذا النظام غريباً على التقاليد الجرمانية ؛ فقد كان لكل زعيم جرمانى
فى موطنه الأصل « عصابة » من الرفاق يحاربون فى صفه ، وكان عليه أن
يمدهم بالسلاح ويزودهم بالطعام ويشاركهم فى أقسام الغنائم التى يحصلون
عليها من إغاراتهم ومعاركهم ، وقد عرف هذا النظام باسم « رفاق الزعيم »
(Comitatus) . وفى وقت الحرب تسود عل هذه العصابة روح الجماعة ،
فيشاركون جميعاً فى الطعام والشراب ، وقد يتخلل فترات السلم نشوب حروب
جانبية بين واحداهم والآخر . ويتميز النظام الجرمانى عن النظام الرومانى بأن
الأول تسوده روح الزمالة والمشاركة بين السيد والرفاق المحاربين ، كذلك كان
فى مقدور أى من شجعان العصابة أن ينسلخ عنها ليكون لنفسه فرقة زمالة
مستقلة تقوم بإغاراتها ومناوشاتها لحسابها الخاص . وقد لاحظ المؤرخ الرومانى
تاكيتوس (القرن الأول للميلاد) فى كتابه (جرمانياً) بأنه كان يتحتم على
كل شاب جرمانى أن ينخرط فى واحدة من تلك الفرق لأن الحرب كان
الحرفة الوحيدة للكسب والعيش عند سائر القبائل الجرمانية . وهكذا عندما
دخل الجرمان فى خدمة الرومان ، أدخلوا معهم نظام « الزمالة » وكان هذا يتم
فى حفل خاص ووفق مراسيم خاصة تمثلت أساساً فى أداء يمين الولاء
(Allegentia) حتى يصبح المحاربون الجدد رفاقاً إلى جانب كونهم حرساً
خاصاً له .

وإذا وصلنا إلى القرن الخامس نجد كبار نبلاء الرومان والقادة يعتمدون فى

تأكيد نفوذهم السياسى لا على الفصائل الرومانية الملحقه بقيادتهم وإنما على كتابتهم الخاصة من الجرمان ، وهؤلاء الجرمان لا يخدمون الدولة الرومانية بقدر ما يخدمون مصالح سيدهم المباشر ، وقد عرفت هذه الفرق الجرمانية باسم «أصحاب الجرايات المميزة» (Bucellarii) . لقد كان القائد الرومانى اثتيوس ، بطل معركة شالون سنة ٤٥١ م ضد جحافل الهون بقيادة أتيللا ، يملك جيشاً خاصاً من هؤلاء الجرمان أصحاب الجرايات المميزة ، ولعل هذا هو السبب الذى أوغر صدر الإمبراطور فالنتينان الثالث ضد اثتيوس ، فدبر مؤامرة تم فيها اغتيال اثتيوس ثم استولى الإمبراطور لنفسه على هذه الفرقة الجرمانية ، غير أن الولاء الأصلى لهذه الفرقة كان للقائد الرومانى الذى تم اغتياله ، ولهذا فقد دبر رؤساء هذه الفرقة الجرمانية مؤامرة أغتالوا فيها الإمبراطور فالنتينان بعد وقت قليل من اغتيال سيدهم اثتيوس .

إن هذه الفرق المتبررة من أصحاب الجرايات هى التى كونت بعد الغزوات الجرمانية للتراب الرومانى القوة المحاربة للدويلات والممالك الجرمانية التى قامت على حطام الإمبراطورية الرومانية . وكانت العادة أن يحصل أفراد هذه الفرق على رواتبهم عن طريق النهب والسلب والغنائم ، غير أن القوط الغربيين عندما دخلوا غالة ثم أسبانيا ابتدعوا نظاماً جديداً بتوزيع الأراضى على أفراد الفرق ، وبذلك يكون العرف القوطى فى توزيع الأرض على الجند المحاربين هو النواة الأولى للنظام الإقطاعى ، وإن كان ذلك العصر لم يخلع على من يتلقى الأرض لفظة « فصل » (Vassalus) الإقطاعية الدلالة (٨٤) .

عندما تخطمت الحكومة المركزية فى أواخر حكم الكارولنجيين فى غالة ،

صارت إدارة شعون الولايات فى أيدى نواب الملك الملقبين بلقب « كونت » (Comes) وهى كلمة مشتقة من لفظة « كوميتاتوس » (Comitatus) التى سبقت الإشارة إليها عند الجماعات الجرمانية فى مواطنها الأصلية ، ثم أخذ هؤلاء الكونتات فى حكم ولايات المملكة نيابة عن الملك ، وفى بعض الأحوال كان الملك يعهد بشئون إقليم كامل لواحد من أفراد البيت الملكى الذى أنعم عليه بلقب « الدوق » (Dux) . وفى بداية الأمر كان هؤلاء النواب الملكيون يحكمون الولايات باسم الملك ، غير أنه عندما ضعفت هبة التاج راح هؤلاء يحكمون الولايات لصالحهم متجاهلين حقوق حامل التاج . ونلمس ازدياد نفوذ هؤلاء الأدواق والكونتات فى العصر الكارولنجى فى غالة من تلك الاجراءات التى اتخذها شرلمان عندما أصر على تعيين « مبعوثين ملكيين » (Missi Dominici) لمتابعة سير الأمور فى الولايات ولحاسبة الأدواق والكونتات وضمان بقائهم خاضعين لسلطان التاج . غير أنه مع انهيار الحكومة المركزية وقيام الحروب الأهلية بين أحفاد شرلمان ، ازدادات قبضة الأدواق والكونتات قوة وراحوا يقيمون فى ولاياتهم محاكمة خاصة بهم ، كما اقتنوا الجيوش الخاصة أيضاً ، والأهم من هذا وذاك أنهم أخذوا يقطعون أراض لأفصال أو أتباع لهم مقابل الخدمة العسكرية فى صفوفهم ، وكثيراً ما كانت الحروب تشن ضد حامل التاج نفسه . ولم يملك الملوك الضعاف إلا أن يسلموا بالأمر الواقع ، مكتفين بيمين الولاء للتاج ويتعهد بالمساهمة بعدد من الفرسان فى وقت الحرب وبيع بعض المال فى عدد من المناسبات ، وبهذا ضرب النظام الإقطاعى بأركانه فى مختلف البلدان الأوروبية .

وعندما قامت الملكيات الإقطاعية فى غرب أوروبا متمثلة فى آل كاپيه فى فرنسا ، وفى خلفاء وليم الفاتح النورماندى فى إنجلترا ، وفى السكسون فى المانيا ، أصبح حامل التاج من الناحية النظرية سيداً إقطاعياً على الجميع فى مملكة ، فهو يتربع على قمة الهرم الإقطاعى ويتلقى التاج فى أغلب الأحيان بالوراثة . على أنه قبل تتويجه ملكاً ، كان هذا أو ذاك يلقب بلقب « السيد » (Domi-nus) شأنه فى هذا شأن سائر السادة الإقطاعيين فى المملكة . غير أن حفل التتويج الملكى ومسح الملك بالزيت المقدس على يد كبير من رجال الدين يجعل منه « ملكاً بإرادة الله » (Rex Dei Gratia) ، وهذا الطقس يخلع على صاحب الجلالة مسحة دينية تضاف إلى صلاحياته العلمانية ، فإذا كان الجالس على العرش شخصاً قوياً فإنه يملك ويحكم أيضاً ؛ فهو الذى يعين كبار المسئولين فى أجهزة الحكم وفى البيوتات الدينية ، وهو الذى يوجه السياسة الخارجية ، ويعلن الحروب ويقود الجيوش ويرم معاهدات السلام . وللملك أيضاً دخله الخاص من ضياعه الإقطاعية كأي سيد إقطاعى آخر ، إلى جانب دخوله الأخرى من أفصاله المنتشرين فى أقاليم المملكة . ويلاحظ على الملك الإقطاعى أنه كان دائم الترحال هو وحاشيته من قلعة إلى أخرى ، وهو يتحرك فى موكب محمل بالوثائق وبالخزائن الملكية أيضاً . وقد كشفت وثيقة من عصر الملك هنري الأول الإنجليزى (١١٠٠ - ١١٣٥ م) عن طبيعة البلاط الملكى المتجول ؛ فهو يجمع رتلاً من الناس يتدرج بين كبار الموظفين حتى الصبية الذين يسهرون على مواقد التدفئة ، ويقف على رأس هذه الحاشية مستشار الملك (Chancellor) وكان يختار عادة من بين كبار رجال الدين ،

ويقف على قدم المساواة مع كبير الأمراء (Dapifer) الذى يشرف على الجناح الملكى (Aula) والمائدة الملكية ، ثم هنالك الموظف المنوط بالإشراف على مخدع الملك (Camerarius) ، ثم يأتى بعد هذا أمين الخزانة الملكية التى كانت توضع فى صندوق خاص فى حجرة نوم الملك ، وهناك موظف يشرف على الشراب والفاكهة (Piacerna) ويساعده فى عمله نفر من حملة الكؤوس وأمناء المخازن وأحصائيون فى أنتقاء الفواكه التى تروق ذوق صاحب الجلالة ، وهناك الكونستابل الذى يشرف على الحرس الملكى ، وخدم الاسطبلات ، ويعينه فى مهامه « المارشال » الذى كان من مهامه الأخرى حفظ النظام . وإلى جانب هؤلاء كان هناك حراس كلاب الصيد ومدربوها ، والمشرفون على تربية الصقور ، إلى جانب نفر من المتمرسين فى صيد الذئاب والوعول والقطط البرية (Catatores) (٨٥) وكان البلاط الملكى أشبه ما يكون بدار الحضانة ، يتدرج فيها الموظف الذكى الماهر حتى يحتل موقعاً مميزاً وكثيراً ما دفع كبار النبلاء إلى تقديم مبالغ طائلة من المال للملك كى يسمح لأبنائهم بشرف الخدمة فى البلاط لاكتساب الخبرة واتقان آداب المعاملة .

لم يكن الملك الاقطاعى فى بداية الأمر أكثر من الأول بين الأقران (Pri- mus inter Pares) من السادة الاقطاعيين من أدواق وكونتات ، ولذا أقام الملوك مجلساً ملكياً (Curia Regis) تألف من أفصال التاج من البارونات وكبار رجال الدين إلى جانب كبار موظفى البلاط وهم المستشار الملكى وكبير الأمراء ورئيس الخزانة . وكان عصر الملكيات الإقطاعية عصر حروب لا تهدأ ، وإن كان الملك لا يمارس الحرب كل يوم إلا أنه يستعد لها كل لحظة . ولقد

تلقى البارونات إقطاعياتهم من التاج مقابل الخدمة العسكرية بأنفسهم وبقربانهم (Servitium Debitum) ، ولم يكن جيش الملك الإقطاعى كبير الحجم ، ففى إنجلترا على عهد النورمان لم يكن الجيش يزيد على سبعة الاف من الفرسان . وكان على الفارس أن يؤدى هذه الخدمة القتالية فى صف سيده لمدة أربعين يوما فى العام وقت السلم ، أما فى وقت الحرب فإن هذه المدة تطول لتصل شهرين كاملين ، وإذا ما استمرت الحرب لمدة أطول من الشهرين فإنه لا يجوز للفارس أن يترك ميدان القتال ويتخلى عن الملك بشرط أن يتحمل الملك نفقات الفارس عن خدمة المدة الزائدة . وفى القرن الثالث عشر جد نظام يدفع الفارس بمقتضاه مبلغا محدداً من المال إلى التاج عرف باسم (Scutage) أى «البذل» للأعفاء من الخدمة العسكرية .

إن أوضح ما يميز العلاقات فى المجتمع الإقطاعى هى صلة الدم ، وهى موروث جرمانى الأصل ، وقد عرفت هذه الصلة فى فرنسا باسم (Lineage) أى «التحدر» . ولقد تعززت هذه الصلة عندما التحمت بوشائج الولاء والطاعة . وفى مجتمع كهذا تنمو بطبيعة الحال مشاعر الانتقام وطلب الثأر صيانة لنقطة الدم (Vendetta) التى قد تصيب أحداً من الأنساب . وقد وضحت هذه المشاعر بوجه خاص بين الفريزيين حيث كانت جثة القتيل تبقى دون أن تدفن حتى ينتقم له ذوهه من القاتل . وقد ظهرت ملاحم شعبية كثيرة تمجد أعمال الانتقام وطلب الثأر بين عائلات عديدة فى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا . وإلى جانب صلة الدم تولدت فى المجتمع الإقطاعى صلة أخرى هامة ، وصفها لسان العصر بعبارة : « فلان من الناس هو رجل السيد فلان » (Homo Suus) ؛ فالكونت « رجل » الملك ، والفارس بدوره « رجل » الكونت . ولفظة «رجل»

فى هذا السياق الوسيط ذات دلالة خاصة ، فهناك وثيقة ترجع إلى القرن الحادى عشر تحمل شكوى بعض الراهبات إلى دوق نورمانديا يطلبن فيها من الدوق أن يتدخل لأن واحداً من البارونات قد أجبر «رجالهن» على الخدمة فى قلاعه دون وجه حق ، وواضح أن تعبير «رجالهن» هنا لا يعنى شيئاً بالنسبة للراهبات أكثر مما كان يفهمه العصر من هذا المصطلح^(٨٦) . ومن كلمة (Homo) هذه جاءت كلمة (Homage) بمعنى الولاء وهى تعبر عن حقيقة قائمة بالفعل بين طرفين الأول يقبل اداء الخدمة العسكرية والثانى يحتاج إلى هذا الشخص بالذات لأداء هذه الخدمة الهامة . والاثنان بالضرورة من طبقة النبالة ويتم الاتفاق بينهما وفق مراسيم خاصة أبرزها أن يضع الفصل يديه بين يدى السيد (Suzerain) ثم يتلقى منه قبلة العهد والميثاق . والولاء تقليد جرمانى الأصل يرجع إلى لفظة « mannschaft » وقد أدخلت على التقليد فى العصر الكارولنجى بعض الطقوس الدينية كالقسم على الكتب المقدسة أو الأيقونات ، ومن هذا تولد اصطلاح « الطاعة » (Fealty) أو الوفاء (Treue) .

ومراسيم الولاء والطاعة تلك هى التى تقنن العلاقات بين السيد والفصل ، وبها تكتمل عناصر « العقد » الإقطاعى . وكان على الفصل أن يركع أمام السيد ثم يضع يديه داخل يدى السيد ، ثم يقسم له على أن يبقى له وفياً فى كل الأمور وأن يخدمه بكل إخلاص ، مؤكداً له بأنه بذلك يصبح « رجله » (Homo) الذى يتحلى بفضيلة الطاعة . وهنا يطبع السيد قبلة على وجه الفصل ويعلن قبوله « تابعا » له ، ثم يضع بين يديه قطعة من « الطين » (Seisin) علامة على إقطاعه بالأرض .

لقد تولدت هذه النظم بعد انهيار سلطة الحكومة المركزية فى فرنسا ، فى جو محفوف بأخطار التهديد الخارجى المتبربر ، ولم تعد الحكومة قادرة على تقديم الحماية الكافية للناس ، وباتت العائلة عاجزة عن حماية أبنائها من غائلة الزمن . ولذا فإن كل فرد بات يحتاج إلى من يسط عليه جناح الحماية ، وحتى الأقوياء أصبحوا هم أيضا فى حاجة ماسة إلى أتباع اشداء يشدون بسواعدهم وسيوفهم من أزرهم . ولم يكن هؤلاء القوم وهم يقيمون تلك العلاقات التى أملتها الظروف القاسية يخططون لنظام تصوره مسبقا . ولذا فإن الاجتهاد فى البحث عن جذور الاقطاع عند الرومان أو الجرمان ، وإن كان يفيد فى القاء بعض الضوء على تلك العلاقات ، لا يكفى لشرح ظاهرة الاقطاع التى لابد من التأكيد على أنها من املاء الظروف قبل كل شىء ، ولعل المثل القائل بأن الناس يشبهون أزمانهم أكثر من شبههم بآبائهم ^(٨٧) يصدق هنا تماما .

نحن إذن أمام مجتمع عجزت فيه الحكومة المركزية والعائلة عن تقديم ضمانات بالحماية للفرد ، وفى تلك الظروف العصبية انهارت روابط الانتماء التقليدية ، ولم يكن هنالك من مخرج لالتماس هذه الضمانات إلا عن طريق التبعية الاقطاعية . ولما أن تعقدت العلاقات الاقطاعية ، وصار بمقدور الفصل أن يتلقى أكثر من إقطاع من أكثر من سيد واحد ، ابتكر أهل العصر نمطا جديدا من التبعية ظنوا أنه أكثر وثوقا من السابق وأطلقوا عليه اصطلاح « التبعية العليا » (Lige Homage) والكلمة مشتقة أصلا من منابع فرنجية ويقابلها فى الألمانية كلمة « Ledig » بمعنى « المطلق » ، وقد ترجمها كتاب الحوليات فى منطقة الراين إلى اللاتينية بمعنى التبعية المطلقة (Absolutus) . وكان لابد من

ظهر هذا المصطلح بمفهومه الجديد ليحسم التعقيد الذى أصاب العلاقات الإقطاعية نتيجة لدخول الفصل فى تبعية لأكثر من سيد واحد بقصد توسيع دائرة حيازته لمساحات أوسع من الأراضى .

وتظهر هذه الكلمة لأول مرة فى مقاطعة آنجو سنة ١٠٦٤ م ، ومنها انتشرت إلى نورمانديا وبرغنديا وبيكاردى . ويرادف هذه الكلمة فى اسبانيا لفظة (Soliu) وإن كان مدلول اللفظ ظل غامضا فى كل من إيطاليا والمانيا لبعض الوقت . وهكذا تخايل أهل العصر على ظاهرة تعدد السادة للفصل الواحد ، فميزوا بين « الولاء المطلق » والولاء العادى خاصة فى أوقات الحروب ، وأصبح الفصل ملزما بالوقوف فى صف سيد واحد فى ميدان القتال وهو ذلك السيد الذى يدين له وحده بالولاء المطلق ، مكتفيا بإرسال بعض المساعدة الرمزية لبقية السادة .

التزم كل من السيد والفصل وفقا للعقد المبرم بين الطرفين ببعض الواجبات والحقوق :

فكان الفصل ملزما بالخدمة العسكرية إلى جوار سيده والعمل على حفظ حياته وأرضه وشرفه ، وفى مقابل هذا تعهد السيد ببسط الحماية على فصله ومعاملة ذويه بالاحترام وقواعد الشرف . كذلك كان الفصل مطالباً بأن يقدم للسيد « عوناً » (Taille) فى صورة هدايا فى بعض المناسبات مثل تقليد الابن الأكبر للسيد للفروسية أو عند زواج كبرى بناته مثلاً . وعند موت الفصل كان ابنه الأكبر مطالباً بدفع مبلغ محدد من المال للسيد ، وعرف هذا باسم « وفاء الحق » (Relief) ، ذلك لأنه من الناحية النظرية تظل الأرض ملكاً للسيد

وتعود إليه عند وفاة الفصل ، ولكي يرثها الابن عن أبيه المتوفى إقطاعاً لا بد له من وفاء الحق للسيد لتجديد مراسم العقد الإقطاعي . وفي بداية الأمر لم يكن السيد ملزماً بإعطاء تعهد كتابي بالتزاماته نحو أفضاله وإنما كان يكتفى بكلمة الشرف (Parole D'honneur) أمام بعض الشهود ، على أنه في القرون التالية ظهرت موثائق مفصلة تعدد واجبات وحقوق الطرفين . وكان على السيد أن يحافظ على حياة الفصل وشرفه حتى بعد وفاة الفصل بمعنى بسط الحياة على آل بيته بعد الوفاة ، كما أنه كان مطالباً بانصاف أفضاله من أي ظلم قد يقع عليهم ولو كان هذا الظلم صادراً من جانب السيد نفسه .

إن نظام السيادة والتبعية هذا كان البديل الجديد للانتماءات العائلية التي تمزقت بفعل عوامل العنف والشغب في المجتمع الإقطاعي . وقد أحيط هذا النظام بقدر وافر من التقدير والإحترام إلى حد أن القانون الأنجلوسكسوني في القرن العاشر كان ينظر إلى الشخص الذي « لا سيد له » على أنه « خارج على القانون » (Outlaw) . وأخذت الروابط بين السيد والفصل تتوطد حتى غدت أقوى من صلات الدم ذاتها ، وليس أدل على هذا التحول من أن القانون النورماندي كان يعاقب جريمة قتل أحد السادة لواحد من أفضاله بنفس القدر الذي يعاقب به جرائم قتل الأهل . وقد جرت هذه الصلات معها فكرة الثأر لمقتل أي من الطرفين بيد غريبة ، وصارت لفظة الأخذ بالثأر « Ultor » اللاتينية مرادفة عند أهل العصور الوسطى للفظ « الحمى أو الانتقام » (Mund-poro) الجرمانية الأصل . وصارت تلك السمة قاعدة حتى في المحاكم ، ففي إنجلترا في القرن الثاني عشر كان لا يجوز التبليغ عن جريمة قتل إلا إذا كان القاتل قريباً أو فصلاً أو سيداً لمن يقدم بالبلاغ ، ولهذه القاعدة جذور جرمانية

نجدها فى ملحمة « بيولف » (Boewulf) فعندما أعتيل هذا الزعيم البطل صار لأتباعه الحق كل الحق ليس فقط فى المطالبة بدمه ، وإنما أيضا فى المطالبة بنصيب من « الدية » التى تدفع تعويضا عن هذا القتل (Wergild) .

كان العقد الإقطاعى يبرم بين رجلين ينتميان فى جميع الأحوال إلى الطبقة العليا فى المجتمع ، وإن كانا من درجات متفاوتة فى سلم النبالة . وفى حالة خرق أحد الطرفين للمواد الواردة فى العقد يصبح الاقطاع « لاغيا » (Forfeit) ، ويتم هذا الإلغاء أيضا وفق مراسم خاصة . وقد نقل المجتمع الغربى هذا التقليد عن الجرمان أيضا ، فصار « فسخ » العقد يتم فى حضور الطرفين المتخاصمين أمام حشد من الشهود . ويقف الطرف المتظلم ليلقى بخصلة من شعر رأسه أو بخيوط من رداءه على الأرض ، علامة على بطلان العلاقة القديمة . وكثيراً ما كانت هذه اللحظات مثاراً للحرج والكدر والتحدى (Defi) ولا يحسم الأمر عندها إلا بالمبارزة بين الطرفين . وفى حالة ثبوت وقوع الخطأ من جانب الفصل تصادر إقطاعيته وترد للسيد (Commise) ، مثلما فعل الامبراطور فردريك بربروسا الألمانى مع واحد من أعتى أدواقه وهو هنرى الاسد دوق سكسونيا ، ومثلما فعل أيضا فيليب أغسطس ملك فرنسا مع يوحنا المفلس (Lackland) ملك انجلترا . أما إذا اتضح أمام الشهود بأن الخطأ قد وقع من جانب السيد ، فإن للفصل الحق فى رفع مظلمة أمام محكمة السيد نفسه أو محكمة سيد السيد ، وهكذا تدرجا فى السلم الإقطاعى ووصولاً إلى حامل التاج نفسه . وكانت محكمة السيد تتألف من السيد نفسه ومن بقية أفضاله ، وغنى عن البيان أنه كان من صالح الأفضال أن يقفوا فى المحكمة إلى

جانب رفيقهم الفصل المتظلم ضد سيدهم ، حرصاً على مصالحهم وخوفاً من وقوع نفس الضرر عليهم ذات يوم .

ورغم هذا كله ، فلا بد من الاعتراف بأن هذه المحاكم لم تكن ذات فعالية تذكر ، ذلك لأن روح العصر من عنف وخشونه أملت على الناس حسم المواقف بالسيف وبالسيف وحده ، ولعل المثل القائل « القوة هي الأحق » (Might is right) يعبر خير تعبير عن روح العصور الوسطى الأوربية .

وفى نهاية الأمر ورغم هذا الوجه القاتم لبعض حالات التوتر بين السيد والفصل ، فإن وثائق العصر ترسم صورة وردية لكثير من العلاقات الحميمة بين السيد والفصل ، فهي نقطة غبطة واعتزاز : فالفصل مرادف للصديق (Amicus) والمفضل إلى النفس (Dru) ، وفى قصيدة للشاعر دون دي ماينس (Doon de Mayence) نطالع أبياتاً تفيض بمشاعر نبيلة من الود الخالص بين الفصل وسيده :

« لو أن سيدى قتل فإنى معه أموت

لو أن سيدى شق علقونى بجواره

لو أن سيدى سيق إلى المحرقة

دعونى أحتضن معه جمر الحريق السارى

لو أن سيدى يغرق

ففى بطن اليم معه يكون قرارى » (٨٨) .

إن هذه المشاعر الفياضة رغم اضطراب الأوقات وعنفة العصر ، سرعان ما

انتقلت من القلاع إلى ساحة القضاء ، فان اختلف الابن مع أبيه أو العكس عولجت القضية من منظور التقاليد الإقطاعية ارتكازاً على فكرة الولاء والطاعة . وقد اتخذ شعراء الطروبادور في الجنوب الفرنسى من هذه العلاقة الحميمة بين الفصل والسيد خطاباً لدلالات الحب والهيام فى بروفنسال . وقد وافق هذا الاقتباس طبيعة قصص الغرام فى ذلك العصر ، فالحب الولهان فى أغلب الأحوال كان من طبقة أقل فى سلم النبالة من الطبقة الأعلى التى تنتمى إليها المحبوبة أو « سيدة القلعة » . ولذا فإن شعر الطروبادور يشير إلى المحبوبة بعيدة المنال لا فى صيغة المؤنث وإنما فى صيغة المذكر ، فتخاطب بالقول : « يا سيدى الجميل » (Bel Senhor) بدلا من « سيدتى الجميلة » ، وقد وجدت هذه الروابط طريقها إلى أساليب المجاز والكتابة وأيضاً فى الأدب الشعبى والأمثال ، فأصبح يقال مثلاً « إن فلانا قد أصبح « فصلاً للشيطان » للتدليل على تكريس حياته لفعل الشرور . ولم تسلم الكتابات الدينية والمواعظ من لغة العصر الإقطاعى ، فصرنا نسمع عن « المسيح » كفصل لله الاب ، وفى طقوس العبادة أخذت الصلاة صورة ضم اليدين فى خشوع تام مثلما كان يفعل الفصل بين يدى سيده وقت أداء يمين الولاء والطاعة .

هذا عن الجانب المشرق فى وجه العملة ، أما الوجه الآخر فإنه يصور الحروب الدامية التى قامت بين الأفصال وسادتهم ، وإن كان هذا لايعنى أن جميع الأفصال كانوا يشنون الحروب على قلاع سادتهم ؛ ونقرأ فى آداب العصر أن الجميع قد أقسموا يمين الولاء - البعض كانوا للقسم أوفياء ، ولكن البعض الآخر تنكروا جاحدين لما أقسموا عليه^(٨٩) . إن هذه المعانى تفصح عن روح العصر وعن الهوة السحيقة بين النظرية والواقع ، وهنا يكمن التناقض فى

مختلف نظم العصور الوسطى ومن بينها نظام الاقطاع .

ولفهم أسباب التدهور الذى أصاب العلاقة بين السيد والفصل يجب أن نتذكر أن نظام التبعية فى صورته الأولى كان يحتم على الاتباع الالتفاف حول زعيمهم فى قلعته ، حيث كانوا يحيطون السيد (Herr) بمشاعر الاحترام فهو قائدهم ومورد اقطاعاتهم ، وكان الأتباع بالنسبة للسيد بمثابة الرفاق (Gasindi) أو الأبناء (Vassi) أو الذين يعتمدون عليه فى مورد رزقهم وأخبازهم (Hlafoetan) ولكن تبدل الظروف وتعمد الأحوال وازدياد المشاجرات أدى بالأتباع إلى أن يهجروا قلعة السيد لكى يتمكن كل منهم من السهر على حماية إقطاعه الأصغر حجما ، خاصة وقت الغزوات النورماندية والهنغارية . وأمام هذه التحولات المتتابة بدأت بعض مصالح السادة تتعارض مع مصالح الأفصال ، فكان لا مفر من وقوع الصدام بين الطرفين . يضاف إلى هذا أن نظام توريث الإقطاعيات لأبناء الأفصال المتوفين قد ساهم فى غرس الأحقاد والضغائن فى نفوس الطرفين . ولم يكن الوريث لإقطاعية ما يقوم باداء مراسم الولاء والطاعة للسيد إلا لكى يضمن الحفاظ على رقعة الأرض التى كانت بيد أبيه بغض النظر عن مشاعره الحقيقية تجاه هذا السيد . وكان على الوريث أن يؤدى نفس الالتزامات التى كان يؤديها والده للسيد ، وهى فى أغلبها التزامات عسكرية فرسانية قد لا يتقنها أو يرغب فيها الابن بنفس القدر الذى كان يوفيهها به الأب المتوفى من قبل . ومن هنا فإن الشعور بحرية الاختيار، وهو من المفاهيم التى أخذت تسرى فى مختلف الأوساط مع ازدياد التعليم وازدهار الجامعات ، قد أحبط عند الأبناء من ورثة الأراضى الإقطاعية .

ولذا فإن عدداً كبيراً من الأفصال قد اشتبكوا مع سادتهم واستولوا على الأراضي منهم بقوة السيف .

كانت النبالة فى عرف القبائل الجرمانية تتمتع بامتيازات خاصة ، وأبرز هذه الامتيازات الحق فى تعويض كبير القيمة فى حالة وقوع ضرر بهم (Wer- gild) وتشير الوثائق الانجلوسكسونية إلى أبناء هذه الطبقة بأنهم « ولدوا أعزاء » (edelinge) دون سائر الناس . على أنه عندما أقام الجرمان ممالكهم على حطام الامبراطورية الرومانية لم تعد علامات السمو فى المجتمع تقوم على عامل الوراثة وإنما على قدر ما يملكه الفرد من أراض ونفوذ . وليس أدل على سقوط عامل الوراثة فى ارتباطه بالنبالة من أنه لا يمكن أن نتبع شجرة أنساب أهم الاسر الحاكمة فى أوروبا إلى عهود بعيدة فى الماضى ، فالجد الأكبر لعائلة ولف (Welfs) التى لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ الفرنجة الغربيين كان واحداً من الكونتات التابعين لدوقية بافاريا وهو الذى تزوجت ابنته من الملك لويس التقى ابن شرلمان ؛ كما أن نسب كونتات تولوز لم يتضح إلا فى عهد لويس التقى أيضا ؛ أما ماركيزات إفرىا الذين صاروا فيما بعد ملوكا على إيطاليا فقد ظهوروا على مسرح الأحداث فى عهد الملك شارل الأصلع ؛ وأما فرع لودلفنج أدواق سكسونيا ثم ملوك المانيا لبعض الوقت فقد ظهوروا على مسرح الأحداث فى عهد الملك لويس الطفل ؛ أما اسرة البوربون فقد انبثقوا من آل كاييه وهم أعرق الاسر فى أوروبا ، وإن كنا لا نعرف شيئا عن الجد الأكبر لكاييه سوى أنه كان يلقب بروبرت القوى وأنه قتل فى غالة سنة ٨٦٦ م ، وإن كان البعض يرجعه إلى أصول سكسونية ، وفى إيطاليا ظهرت عائلة ألتوني (Altoni) وهم

أبناء لزعيم يدعى سجفريد من لوكا الذى توفى سنة ٩٥٠ م ، ولا يمكن تعقب اثرهم قبل هذا التاريخ . هذا وقد شهد منتصف القرن العاشر ظهور اسرة سوابية قوية هى اسرة بانبرج التى أسست دولة النمسا (٩٠) .

هذا عن أكثر البيوتات الأوربية عراقة فى أوربا ، أما إذا أردنا أن نتتبع أصول عائلات الطبقات الاقطاعية الأقل شأنًا ، فإننا لن نعثر على شىء يفيد ، ويمكن القول أن النبالة بمفهومها القديم سواء عند الرومان أو الجرمان لم تعد واردة فى عصر الاقطاع ، وصار النبيل هو الشخص الذى لا يوجد بين أجداده من كان خاضعاً للعبودية ، وهو فى نفس الوقت الذى يملك مساحات شاسعة من الأرض الزراعية ، إلى جانب مقدرته على حمل السلاح وامتطاء صهوة الخيل كفارس مسلح بالسيف والحرية والخوذة والدرع الثلاثى أو المستدير .

وكلمة فارس ترادف كلمة « مقاتل » (Miles) وهى ايضا مرادفة لكلمة فصل ، وقد أعتبر الفرسان مهمة القتال أهم بكثير لمجتمع الأقطاع حتى من واجب الصلاة . وكان الفارس يفخر بقوته الجسمية ، وبعضلاته المفتولة ، وهو يكتسب هذه اللياقة البدنية بالمران منذ نعومة الأظفار فى احدى قلاع السادة ، وتصوره الوثائق فارعا فى الطول ، منبسط الأطراف ، عريض المنكبين ، صلب العظام ، متناسق الأعضاء ، مزدانا باثار جراح السيوف على جسده ، وهو فوق كل هذا أكل نهم يتمتع بشهية الخيل : « يا إلهى إنه من طرازك العفى - أنه يتلع فخذ لحم كامل ولا يكتفى .. وهو يشرب فى رشفتين دنا من الشراب .. وياويل من يميل عليه بترسه (٩١) .

على أنه كان مطلوباً من الفارس من الناحية النظرية أن يتحلى إلى جانب

فضيلة الشجاعة واحتقار الموت بفضائل معنوية من قبيل الحرص على الشرف والحفاظ على مشاعر الولاء والمبادرة للتطوع فى الحروب « المقدسة » والسعى لاعلاء اسم سيده المحبوبة .

وقد أضافت المؤسسات الدينية مهمازا جديداً هو الوعد بالفردوس لمن يموت فى سبيل قضية دينية . وبهذه الطاقة القتالية المشاغبة الكامنة فى أجسام أشبه ما تكون بأجسام حيوانات الغابة لجأ ملوك الاقطاع والبابوات إلى إطلاق الفرسان الأوربيين على أراضى السلاف والجنوب الايطالى وجزيرة صقلية واسبانيا وعلى الأراضى البيزنطية وآسيا الصغرى ثم فى حروب العدوان الصليبي على الأراضى المقدسة . فكانت هذه الحروب سبيلاً من سبل امتصاص الطاقات القتالية المدمرة لدى هؤلاء الفرسان . كذلك لجأت الكنيسة فى الغرب الفرنجى إلى فرض أيام معينة يحرم فيها القتال وعرفت هذه الأيام باسم « هدنة الله » (Turga Dei) ، وعرفت أيام أخرى باسم « سلام الله » (Pax Dei) ، وهى أيام الأعياد والمناسبات الدينية المختلفة . والحق أن فرسان القرن الحادى عشر كانوا على درجة بالغة من الخشونة وفظاعة الطبع ؛ فهم يشربون حتى الثمالة ، وكانت قلاعهم غاصة بالنساء الفاسدات . وإذا خسر أحدهم جولة فى إحدى مباريات الشطرنج مثلاً فقد يبارز خصمه أو ضيفة حتى يجرحه ، وإذا تباطىء الخادم فى إحضار كأس من الشراب فقد يرشقه برمح نافذ ، وإذا ضايقته زوجته بالثرثرة فهو يضربها فى قسوة بالغة . كذلك كان الفارس يحتقر أبناء الطبقات الدنيا من الفلاحين إحتقاراً شديداً ، ولا ينظر إليهم كآدميين مثله « لأنهم لا يجيدون فن القتال » (Imbellis) ، وهو فى نفس الوقت وبنفس القدر يزدرى

طبقة التجار لأنهم يجمعون ثرواتهم من مهنة شبيهة بالربا .

كان الفارس يسكن فى قلعة حصينة تحيط بها عن قرب أكواخ الفلاحين العاملين على أرض الضيعة . وكانت القلعة فى أول الأمر على شكل برج خشبى يضم حجرة كبيرة للنوم فى الطابق الأول ، بينما خصص الطابق الأرضى كمخزن للمؤن . وحول البرج يوجد الخندق الذى يحيط به من الخارج سور ترابى يليه خندق آخر . أما المطبخ فكان يقع فى حيز خارج بناية البرج خوفاً من اندلاع الحرائق . وبمرور الوقت لجأ الفرسان إلى إستخدام الحجارة كمادة بناء لقلاعهم بدلا من الخشب . وكان البرنامج اليومى للفارس يبدأ فى الصباح الباكر بالرياضة والصيد فى الغابات . وقد أعد الفرسان إعداداً خاصاً بقصد تلقينهم فى قلاع السادة قواعد السلوك وأدب المعاملة (Courtoi-sie) وهى كلمة مشتقة من لفظة (Court) أى البلاط الخاص بالسيد الاقطاعى والذى كان بمثابة المدرسة الأولى التى يتلقى فيها الشباب من أبناء تلك الطبقة أساليب التعامل وسلوكيات النبالة . وقد ولدت هذه الكلمة فى بلاط سادة الجنوب الفرنسى وفى منطقة نهر الميز ، وهى كلمة فرنسية الأصل . وقد نقل الايطاليون هذه الكلمة عن الفرنسيين فى أوائل القرن الحادى عشر ثم انتقلت ، بعد ذلك إلى المانيا عن طريق أقليم هينولت وبلدان بريانت وفلاندرز وعرفت عند الألمان باسم (Hofklich) . هذا وقد وفد كثيرون من أبناء النبالة الألمانية على القلاع الفرنسية ليتعلموا تلك الآداب السلوكية ، وقد لعبت مدن شارترز وباريس دوراً هاماً فى تجسيد معانى السلوك الفروسى المهذب لدى أبناء الطبقات العليا . ويرتبط بهذا السلوك موقف هذه الطبقة تجاه المرأة النبيلة ؛ فلقد

ظهرت فى فرنسا طبقة من سيدات « الصالونات » عرفن بعشقهن للأدب والشعر والفن وملاحم الفروسية ، وأصبحت شهرة الفارس القتالية والسلوكية تحدد فى تلك الصالونات . ولقد حرص مشاهير الفرسان على إثبات جداتهم وتأكيد قوتهم حتى تذكر أسمائهم على ألسنة رواد هذه اللقاءات النسائية مقرونة بالأعجاب والاحترام . ومن هنا كان اهتمام الفرسان بالأدب والشعر ، وخاصة الغزلى منه . ورائد تلك الحركة هو الدوق وليم التاسع صاحب أقطانيا (ت ١١٢٧ م) وكان عاشقاً ومشجعاً للشعر والغناء والطرب .

ثم جاءت مارى كوتيسه شامبانى (١١٤٥ - ١١٩٨ م) وهى ابنة لويس السابع ملك فرنسا من زوجته إليانور وريثة أقطانيا وصاحبة السجل الحافل من المغامرات وقد جسدت فى شخصها وحاشيتها أفانين الشعر الطروبادورى وقصص الغرام ونقلت هذا كله معها إلى عاصمة زوجها فى مدينة تروى (Troyes) .

ومن هذه البلدة الأخيرة شاعت ملاحم البطولة الفرسانية وقصص الغرام لتعم كل أرجاء أوروبا الغربية . وقد أنجبت تروى شاعراً مرموقاً هو كريتيان الذى نظم العديد من قصائد البطولة والغرام والذى كان ينشد قصيده على مسامع الفرسان وسيدات قلوبهم دون خجل أو تورية . ولقد عرف بلاط مارى دى شامبانى ألوانا من الحب العذرى وغير العذرى جميعاً ، وأصبح الفارس الذى ليست له علاقة غرامية بواحدة من سيدات الصالونات ليس أهلاً للقب الذى يحمل شرفه على نصل سيفه . وقد لعبت المرأة الفرنسية دوراً كبيراً فى إشعال نار المبارزات بالسيف ، كما كان لها دور فى إطلاق الصقور فى رياضة الصيد ، وهى أيضاً ضيفة الشرف بين المشاهدين فى حلبة المبارزة . وباسم هذه المحبوبة أو

تلك كان الفرسان الشجعان يحطمون رماحهم وقسيهم ثم قلوبهم أيضاً !

لقد ساهمت موجة الطروبادور فى التخفيف من غلظة الفرسان فى فرنسا ، ويروى أن فارساً جباراً اسمه وليم مارشال قد طلب من بناته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن يسمعه شيئاً من شجى الألحان قبل أن تفيض روحه . وكثيراً ما هلك فرسان مكلفون بالحراسة على حين غفلة منهم وهم يستمعون بشغف إلى بعض الأغانى المحببة إلى نفوسهم . ولقد عرف العصر كثيرين من أبناء هذه الطبقة الذين انغمسوا فى الملذات ، وإن كانت الملاحم تضع المسئولية فى ذلك على « ضعف النساء » وليس على نزوات الفرسان . كذلك لم يكن بعض السادة فى القلاع يجدون حرجاً فى أن يقدموا لضييف مرموق احدى الفتيات الجميلات لمؤانسته وإدخال البهجة على قلبه^(٩٢) . وواقع الأمر أن مجتمعاً مثل هذا المجتمع الذى كانت الزيجات فيه تتم وفق المصلحة أو الصفقة ، لم يكن يعرف كثيراً الزواج الناجح ، لذا فإن البديل لهذه العلاقة الزوجية « الكريهة » كان فى اتخاذ المحظيات والخيليات ، ونحن نعلم أن قلاعاً كثيرة كانت مليئة بالأبناء اللقطاء ، كما أن بعض أغانى الطروبادور تخاطب الغرائز الفجة والحب الحسى الذى قيل أنه كان يتم حتى فى مخازن السلاح بل وفى حظائر الخيول . على أنه إلى جانب الحب الحسى ظهرت أشعار كثيرة فى الحب « العذرى » وهو علاقة لا تمت بصلة إلى العلاقات الزوجية ، لأن المحبوبة هنا سيدة متزوجة ولن يكون العاشق لها زوجاً فى يوم من الأيام . وهذا الحب « الأفلاطونى » ينصب دوماً على سيدة من الطبقات الأعلى فى سلم النبالة ، وهو حب من النوع « المحرم » حيث تظل إمكانية إقامة علاقة غرامية حسية

مجرد سراب مستحيل . وهذه المحاذير التي تحول دون تحقق هذا الحب هي العوامل التي تفجر عند الشعراء صورا من الوله والصبابة ودفوف الأحزان عند شعراء الطروبادور . وعندما يشحب الأمل فى تحقيق هذا الحلم ، يتولد فى النفس إحساس بلذة هذا « الحلم المستحيل » ، وهكذا اتخذت هذه العلاقة بين العاشق الولهان والمحبوب بعيد المنال أبعاداً أشبه ما تكون بتلك العلاقة بين الفصل وسيد الأقطاعى . وعلى العموم فإن شعر الطروبادور فى كليته كان يحتقر العلاقة الحسية ، وهو فى أنقى حالاته شبيه بعلاقة آدم بحواء قبل أن يستلقيا جنبا إلى جنب تحت ظلال الشجرة المحرمة الثمرة فى جنة عدن . وقد انتقل هذا الشعر الرومانسى من فرنسا إلى ألمانيا حيث عرف باسم (Minnen-sang) .

بقى أن نذكر عن هذه الطبقة أن بعض كبار الفرسان أو البارونات كانوا يتمتعون بشراء فاحش ؛ فقد أصدر أحد السادة فى منطقة الليموزين بفرنسا أمره بأن تحرث أرضه ثم تذر بقطع من عملة الفضة ، كما أن سيذاً آخر أمر بإعداد الطعام لضيوفه على نار الشموع ، بينما قام سيد ثالث بإحراق ثلاثين من دوابه دفعة واحدة .

وهذا الشراء الفاحش كان بطبيعة الحال من عرق ودم رقيق الأرض من جماعة الأقتان الذين ما كانوا يجدون ما يسد الرمق . وفى منتصف القرن الثانى عشر ظهر اتجاه نحو صبغ أفراد طبقة الارستقراطية المحاربة بصبغة قانونية بهدف تثبيت حق الوراثة فى عروق أبناء هذه الطبقة ، ومنذ ذلك التاريخ ظهرت كلمة « جنتلمان » (Gentile homme) أى شخص من « جنس » (Gens) نبيل عن طريق الوراثة . وكان هذا الصك الإجتماعى يتم وفق طقوس خاصة تقام

عندما يتخرج الشاب النبيل من تدريبه ليقلد فارساً . وجدير بالذكر أن أبناء هذه الطبقة كانوا يستخفون كثيراً بالطبقة البورجوازية من أثرياء المدن الجديدة وغالبيتهم من التجار ، ولذا فإن البارونات لم يتورعوا عن قطع الطريق عليهم وتجريدهم من تجارتهم التي يكسبون من ورائها ثروات دون عناء حرب أو قتال .

هذا عن السادة ، أما عالم العبيد فهو مختلف تماماً ؛ ففالح الأرض في العصور الوسطى له عدة أسماء : فهو قن رقيق (Serf) ، وهى كلمة مشتقة من كلمة « عبد » (Servus) اللاتينية ، وهو أيضا « بوروليتار » (Proletarius) وهى كلمة من جذور لاتينية أيضا وتعنى ذلك الشخص الذى ينتمى إلى الطبقات الدنيا فى المجتمع ، وهو ايضا « فلين » (Villein) بمعنى الأجير المرتبط بزراعة أرض الضيعة ولا يرحها أبداً . وكان الأقنان يؤلفون الغالبية العظمى من سكان غرب أوروبا فى عصر الأقطاع ، وقد ارتبطوا بالأرض الزراعية فى القرى والكفور والضياع (manors) . وكانت كل قرية أو ضيعة تخضع لسيد واحد ، ويحتجز السيد الجزء الأكبر من الأرض لتزرع لصالحه ، وهو الجزء الذى عرف فى مصطلح العصر باسم « الدومين » (Demense) ، بينما قسم الجزء الباقي إلى شرائح صغيرة ومبعثرة يقوم الفلاحون بزراعتها لحسابهم مقابل خدمات والتزامات ثقيلة وضرائب عينية أو مادية ، غالبا ما كان الفلاح لا يجد بعد سداها للسيد ما يسد رمقه وأطفاله . غير أن القن لم يكن عبدا بالمعنى الذى نعرفه عن العصر اليونانى - الرومانى ، ولكنه فى نفس الوقت لم يكن أيضا فى عداد الأحرار ، فهو بين بين بمعنى أنه لا يباع ولا يشتري ، وإن كان لا يسمح له بحمل السلاح أو أن يمثل أمام المحاكم كواحد من

المخلفين . وكان القن رهن إشارة سيد الأرض ، ولا يمكنه أن يبرح تلك الأرض فهو أشبه ما يكون بعبد للأرض نفسها . وفى مقابل استغلال شريط ضيق على هامش أرض الضيعة كانت على القن التزامات غاية فى القسوة : فعليه ضريبة سنوية عن هذا الشريط ، وعليه ضريبة الرأس (Cens) وعليه ضريبة العشور للكنيسة (Dime) ، وعليه العمل سخرة ثلاثة أيام اسبوعيا فى أرض السيد (Corvée) ، كما أنه يدفع ضريبة لاستخدام طواحين ومعاصر السيد ، وأخرى لكى يسمح له بعبور قنطرة الناحية . ومن الأمور المفجعة أنه كان على القن أن يتنازل عن الليلة الأولى من زواجه لمتعة السيد (ius primae noctis) ، وقد ظل هذا الجرم معمولاً به فى جهات مثل بغاريا حتى القرن الثامن عشر .

وبينما يتلقى الفرسان إقطاعياتهم من السادة الأعلى برمز السيف فى حفل منهيّب، كان يسمح للقن بزراعة الأرض الهزيلة على الأطراف وفق رمز يدل على المذلة والمهانة وهو رمز « الشوكة والسوط » (Furcam et Flagellum) . ومن الناحية النظرية كان على القن أن يؤدى للسيد كل ما يؤمر به ، وليس له أن يعلم فى يومه شيئاً عن أمر غده . ويبين لنا « الكتاب الأسود » لأقليم بيطربوره بالانجلترا الذى ظهر ما بين سنتى ١١٢٥ - ١١٢٨ م الواجبات التى كانت على القن فى تلك الناحية تجاه السيد ، وهى تتضمن الخدمة فى الأرض على مدار فصول السنة ؛ ودفع ضريبة عن شريط الأرض الذى يفلحه لصالحه ، وتقديم خمسين دجاجة وستمائة وأربعين بيضة ، والعمل فى المرعى لرعاية حيوانات السيد ، وتقديم حمل من الخشب والمشاركة فى غسل وجز صوف الأغنام^(٩٣) . وكان على زوجة القن وأولاده الصغار أن يعاونوه فى أداء ما يطلب منه من خدمات للسيد .

ولقد وجد عدد قليل من الفلاحين الذين كانوا أقل تعاسة من الأقتان ، وهؤلاء إما أنهم كانوا يعملون على وسايا تابعة للتاج مباشرة (Terra Regis) أو أنهم كانوا يزرعون شريحة من الأرض دون تبعية واضحة لسيد بعينه . وقد أحتفظت هذه الفئة القليلة من الفلاحين بشيء من الحرية ولكن فى مكابدة شديدة . وفى الطرف الآخر كانت هناك فئة أشد تعاسة من الأقتان ، عرفوا أحيانا باسم « البوردارى » (Bordarii) وأحيانا أخرى باسم « كوتارى » (Cottari) وهؤلاء هم أرباب الأكواخ التعسة التى كانت شبيهة بحظائر الحيوانات ، والذين كانوا يقتاتون على ما يتساقط من أيدي بعض الفلاحين الأحرار فى مواسم الحصاد . وأبناء هذه الفئة من المعدمين يؤجرون أنفسهم لمن يقدم لهم ما يسد أودهم فحسب . وإلى جانب هؤلاء وأولاء كانت القرية الأقطاعية تعرف فئات من رعاة الأبقار (vallarii) ، ورعاة الأغنام (Bercarii) ، ورعاة الخنازير (Porcarii) هذا إلى جانب حداد القرية والنجار .

ولما أن ازدادت الأخطار الخارجية فى شكل الغزوات المتبريرة المتأخرة ، ولما أن ضعف نفوذ الملوك واشتعلت الحروب الأقطاعية ، اضطر الفلاحون الأحرار الذين كانوا يفلحون أرض التاج إلى الخضوع لضغوط و سطوة السادة المحليين ، وتحولوا إلى أقتان بنفس الالتزامات التى سبقت الإشارة إليها .

وعندما اكتمل الهرم الإقطاعى فى القرن الحادى عشر ، انقسم الناس فى غرب أوربا إلى قسمين واضحين : الحر وغير الحر . والحر هو الذى يملك أرضا ويحمل سلاحاً وله « وضعية » إجتماعية (Status) ؛ أما غير الحر فليس له وضعية شرعية واضحة ، فهو لا يجلس فى المحاكم ولا يعتد بشهادته

ولايسمح له بحمل السلاح ، وعليه أن يدفع ضريبة الرأس (Chevage) ، ولا يحق له الزواج من امرأة حرة ، وهو مربوط بالأرض لا ييرحها . وقد صار للسادة حينذاك الحق فى شق الأقنان على بوابات قلاعهم ، ولذا فإن السادة كانوا يعلقون على مداخل قلاعهم عدداً من المشائق دلالة على نفوذهم وسلطانهم .

النشاط الثانى إلى جانب الفلاحة فى القرية هو الرعى ، وكانت الأبقار والأغنام والخنازير تعتمد فى مرعاها على نطاقات من البرارى والأحراش وأطراف الغابات . ولم يكن حق المرعى مطلقاً للفلاحين ، وإنما كان يحدد لكل فلاح عدد الأبقار والأغنام التى يحق لها المرعى بقدر ما يفلحه هذا الفلاح أو ذاك من مساحة من أرض السيد ، إلى جانب دفع ضريبة عن هذا المرعى .

وبعد موسم الحصاد كانت تزال الاسوار المحيطة بالأرض الزراعية لكى تطلق عليها الأبقار والأغنام للرعى حتى يحل موسم إعداد الأرض للنوبة الزراعية المقبلة . كذلك كانت كل قرية تبقى على نطاق من الأرض يخصص للحشائش التى تجمع وتخزن ، وبعدها يسمح لحيوانات القرية بالمرعى على بقايا وجذور تلك الأعشاب ، وكان هذا يتم بين أغسطس وفبراير من كل عام ، وكان على جميع فلاحى القرية أن يدفعوا للسيد ضريبة مقابل ذلك عرفت باسم « حق العُشب » (Herbogium) . ولما أن بدأ استصلاح الأراضى على حساب الغابات والمرعى ، باتت الثروة الحيوانية فى غرب أوروبا مهددة بالخطر ، وقد وضحت الخطورة بشكل صارخ فى إنجلترا فى القرن الثانى عشر ؛ فنحن نعلم أن مساحة قرابة ١٥,٠٠٠ فداناً من المرعى فى مقاطعة لنكولن قد حولت دفعة واحدة إلى أرض زراعية وقد نتج عن هذا التحول ذعر شديد ، وأخذت الأبقار

والأغنام تهيم على وجهها بل وتعتدى على بعض الأراضي الزراعية . الأهم من هذا أن معدل ما أصبحت تدره البقرة من لبن على مدى أربعة وعشرين أسبوعاً قد تدنى ليحقق ثلاثة شلنات وست بنسات فقط^(٩٤) .

وقد كانت الأغنام بوجه خاص مصدر رزق طيب للفلاح ، إذ أن تربية مائة منها يضمن ربحاً سنوياً قدر وقتها بجنيه كامل ، كما أن جلود الأغنام كانت سلعة مطلوبة لاستخدامها في صنع رقائق الكتابة (Parchment) ، كذلك عرف عن أهل العصور الوسطى حبهم لجبن الضأن . وقد قدر كاتب من القرن الثالث عشر ما تدره عشرون من الأغنام بنفس القدر الذى تدره بقرتان حلوبتان وهوما يعادل ٢٥٦ رطلاً من الجبن ونصف دن من الزبد فى الأسبوع الواحد^(٩٥) . وقد زدتنا سجلات العصر بأسعار رؤوس الثروة الحيوانية : فقد كان الشور يباع بثلاثة شلنات ، ورأس الضأن بأربعة بنسات ، والبقرة بشلن واحد وثمانية بنسات ، والخنزير بثمانية بنسات .

وفى أواخر القرن الثانى عشر عندما أزيلت الغابات والمراعى لزيادة الرقعة الزراعية ، شحت المراعى فشهدت الأسواق ارتفاعاً فى أسعار الثروة الحيوانية بما يعادل نصف الأسعار السابقة .

وفى بداية عصر الاقطاع كان إنتاج القرية يستهلك محلياً ، ولكن مع تطور الأحوال والأوقات وزيادة الرقعة الزراعية عرفت منتجات طريقها إلى أسواق المدن المجاورة . وقد فرض السادة على الفلاحين ضريبة لنقل بضاعتهم على عربات خاصة عبر طرق وعرة إلى أسواق المدينة . وكان على القرويين بين الحين والآخر امداد السادة وحامل التاج بمنتجات القرية إلى أماكن نائية جداً ؛ فمثلاً

كان على بعض القرى فى سنة ١١٧١ م أن ترسل ثلاثة آلاف شحنة من القمح إلى أيرلنده حيث كان الملك الإنجليزى يحارب فى هذه الجزيرة ، وفى سنة ١١٨٩ م فرض على قرية كنت (Kent) أن تمد القصر الملكى بعدد ١٩٠٠ دجاجة بمناسبة حفل التتويج الملكى ، وفى سنة ١٢٠٣ م فرض على عدد معين من القرى أن تشحن عدد ٢٢١٧ رأساً من الخنزير إلى بلدة روين (Rouen) فى ولاية نورمانديا حيث كانت كتائب الملك الانجليزى تحارب ضد الفرنسيين .

كان سيد القرية الإقطاعى يعهد بإدارة شئونها إلى موظف عرف باسم «بيلف» (Bailiff) ، وكانت مهمته ضمان تحصيل جبايات الضرائب من الفلاحين ورئاسة محكمة القرية ، وقد وردت صورة هذا الموظف كرهبة وقميئة فهو متسلط قاس فى معاملاته مع أهل القرية جميعا . وإلى جانبه وجد موظف آخر أقل شأنًا ، مهمته متابعة سير العمل عن قرب . وقد احتفظ السيد فى قلعته بسجلات دقيقة عن حسابات الضيعة ، ومنها نتعرف على قيمة الإيجارات والضرائب ومعدل الإنتاج السنوى للقدان ، ودخل محكمة السيد ومصرفات المبانى والترميمات ، وتكلفة حفر الخنادق وبناء الأسوار ، وكذلك أعداد قطعان الثروة الحيوانية .

وللسيد محكمة يحاكم أمامها الفلاحين ، وهى تعقد مرة كل أسبوعين ، ومن خلالها ينزل السيد العقاب بأى فلاح يتحرش بالمرعى أو الغابات أو الثروة الحيوانية ، وقد خول السيد لنفسه الحق فى الفصل فى المخالفات التى تعكر صفو « سلام التاج » . ثم أخذت صلاحيات السيد تزداد حتى صارت سيفاً مسلطاً

على رقاب الفلاحين ، وأعطى نفسه الحق فى تنفيذ أحكامه بنفسه ومن بينها حق الشنق لمن يضبط من الفلاحين متلبسا بالسرقة (Infangenetheof) . كذلك جعل السيد من نفسه صاحب الحق فى محاكمة حالات الغش فى العجة أو التلاعب بأسعارها .

والى جانب هذه المحكمة كان لكل مقاطعة محكمة كبرى عرفت باسم «مجلس المائة» وكان يمثل القرية فيها « العريف » (Reeve) وكاهن القرية وأربعة من حسنى السمعة . وفى حالة وقوع جريمة قتل فى القرية ، كان على الأهالى أن يبلغوا عنها وأن يقبضوا على الجانى بأنفسهم لتقديمه للمحاكمة . وإذا فشل الأهالى فى ذلك يتعرضون لطائلة قانون الحفاظ على سلام الملك ، وفى هذه الحالة لم يكن العقاب يحل على فلاح بعينه وإنما كان العقاب جماعيا على أهل القرية جميعا فى صورة غرامات جماعية تذهب لخزانة السيد وأحيانا لخزانة التاج^(٩٦) .

من الشخصيات الجديرة بالذكر فى القرية كاهنها ، ففى كنيسة القرية التى تخضع هى والكاهن للسيد ، وفى صحن هذا البيت الدينى كان الفلاحون يجتمعون أيام الآحاد للصلاة وفى أيام الأعياد للأحتفال ، وفى أيام المواسم السنوية ، وكانت الأسواق أحيانا تقام فى رحاب كنيسة القرية . وقد عرف عن كاهن القرية أنه كان ضحل الثقافة بشكل يدعو إلى الأسى ، وقد قيل عنه أنه كان أقل جهلا بقليل من سائر الفلاحين .

وهو إلى جانب قيامه بواجباته الدينية من إقامة شعائر الصلاة والوعظ

ومراسيم العماد والزواج والجنائز ، كان طيلة أيام الأسبوع يعمل فى الحقل بفأسه كسائر الفلاحين ، وفى كثير من المناطق كان على كاهن القرية أن يعمل يوماً كل اسبوع فى فلاحة أرض السيد سخرة . ولعل الامتياز الوحيد للكاهن أنه كان يحصل على شريط من أرض القرية بلغ ضعف الحصّة التى كانت لبعض الفلاحين المميزين فى القرية . وكان على الكاهن واجب آخر هام ؛ فهو المسئول عن « عجل » القرية لتهجين الأبقار ، وعن « كبش » القرية لتهجين الأغنام ، وعن « جواد » القرية لإخصاب إناث الخيول . وقد عرف عن الكاهن أيضاً إلحاحه الدائم على التسرع ليصلح حال الكنيسة وليرسل إلى الخزانة الاسقفية نصيبها ، وكان هذا يشمل فيما يشمل البيض والدجاج وغيرها من منتجات الريف . ثم جاءت ضريبة العشور (Tithe) فشملت كل المحاصيل والثروة الحيوانية والأصواف والجبن والزبد والعسل والفاكهة .

ولقد ارتبطت الأعياد والإحتفالات الدينية فى مختلف القرى الأوربية بعبادات وثنية قديمة لم تفلح الكنيسة فى تخليص الناس منها . ولفهم روح هذا العصر لابد من فحص الدلالات فى لغة التخاطب المحلية العامية وفى محتوى الصلوات الفردية والجماعية وفى اعترافات المصلين عن ذنوبهم وفى أفكارهم عن المعجزات وفى قصص الجن والعمفارت ، وفى ما قد يتساقط من على موائد الصفوة المتعلمة (Docti) لكى يتغذى عليه ويلوكة البسطاء من غير المتعلمين (Idiotae) . ومن هذا المنبع الأخير يمكن للمرء أن يقول بأن تبعية ، إن لم يكن رق الفلاحين ، إقتصادياً وسياسياً قد أضيفت إليها تبعية أخرى فى عصر الإقطاع هى التبعية العقائدية ، فالمعروف أن السلطات الدينية عمدت إلى عدم

ترجمة بعض النصوص الدينية إلى اللهجات المحلية (Vernacular) كى تحجبها عن بسطاء الناس إما لصعوبة إدراك مغزاها وإما لكى تبقى حكرًا عليها ، وعلل كبار رجال الدين هذا الموقف بأن العامة يخلطون بين شخص المسيح وشخص أبطال الملاحم الجرمانية القديمة فقد ظنوه بعثًا للبطل القديم انجيليد . والحق أن عامة الناس كانوا شديدي الإعجاب بقصص البطولة القديمة بعد أن ملوا من تكرار سير القديسين . ويروى الراهب الألماني سيزاريوس من هستر باخ كيف أنه ذات يوم كان يعظ جماعة من الرهبان ، فلاحظ أن الملل أخذ يتسرب إلى نفوسهم إلى حد أن بعضهم راح يغط فى النوم بل وفى الشخير ، ولكى يوقظ هؤلاء من غفلتهم ونعاسهم عمد إلى تغيير موضوع موعظته هاتفاً : « استمعوا أيها الإخوة إلى وأفيقوا إلى حكاية جميلة ... كان ياما كان فى ماضى الأيام والأزمان ملك اسطورى اسمه آرثر سيد فرسان قومه الذى طبقت شهرة مائدته المستديرة كل الآفاق ... الخ » . وعلى التوتنبه الحضور وأفاق الجميع واشربأت الأعناق وأرهفت الأذان لسماع بقية الرواية عن آرثر وزوجته الفاتنه جونيثير وعاشقها الآثم لانسلوت . ثم توقف الواعظ فجأة عن الاستطراد فى قصة آرثر وصرخ قائلاً : « رأيتم أيها الحضور كيف أن الحديث عن الأمور السماوية لا يثير أنبهاكم بينما الحديث عن الدنيويات ومفاسدها يوقظكم من السبات العميق ؟ » (٩٧) .

والحق أن انسان العصور الوسطى لم يكن يفهم التجريد ، وعليه فإن المعانى الروحية كانت فى حاجة ماسة إلى شىء ملموس وحسى لإدراك فحواها . ولم يكن التصور الشعبى نداءً للمحسنات البلاغية والمجاز والكناية والرمز اللفظى ، وليس بمستغرب أمام هذا أن لجأ رجال الدين إلى الأيقونات والتصاویر والتماثيل

كوسائل تعليمية لعامة الناس . وقد سرى المثل الشعبي فى تلك الأوقات بأن «الرب ليس حريصاً على قواعد النحو بقدر ما هو حريص على قلوب الناس وسرائرهم» . وليس غريباً أيضاً أن عدداً غير قليل من كتاب الحوليات فى العصور الوسطى كانوا يفاخرون بفجاجة أسلوبهم ويقصورهم فى البلاغة والأجرومية ، فمثلاً يعترف جريجورى من تور مؤرخ الفرنجة أنه لا يدعى علماً فى الأدب والاسلوبية ، وبأنه كاتب بسيط لا يجيد الحذقة ، متسائلاً عن الحكمة فى إختيار المسيح لحواريه من صيادى السمك البسطاء وليس من الفلاسفة .

كذلك اضطر وعاظ العصر إلى تبسيط عظاتهم كى تتوافق مع البيئة والمزاج الشعبى ، فمثلاً وجد سيزاريوس من آرلس نفسه فى احدى مواعظه ينصح المصلين بالاعتقاد فى نشاطهم الجنسى ، موضحاً لهم بأن العلاقات الزوجية قد شرعها الله للتناسل وإعمار الأرض بنسل صالح ، وعليه فإن النهم الجنسى غير محبب مثله فى هذا مثل الحقل الذى إن أجهدته بالحرث والبذر تباعا فى موسم واحد أرهقت التربة وجاء الحصاد هزياً (٩٨) .

هذا وقد أعطى العصر للأرقام دلالات غيبية ، فرقم ٤ هو رقم الاتزان والاستقرار ؛ ورقم ١١ هو رقم الشيخوخة والمرض والأفول واقترب الموت . كذلك شاعت فى العصر روايات متعددة عن غرائب الكون ؛ من قبيل ذلك تلك الرواية عن ذئب هجم على احدى القرى واختطف طفلة إلى الغابة لكى تقوم الطفلة بانتزاع عظمة من حلق ذئب آخر ، وبعد قيام الصبية بالمهمة الوعرة أعادها الذئب على ظهره سالمة تماماً . وقد كثرت أيضاً القصص عن الشياطين

والأعييهم وشباكهم ، وعن النساء اللائى تلدن مخلوقات مشوهة بسبب مضاجعة الشياطين ، وعن حبات اليهود لتدنيس القربان المقدس ، وعن امرأة سمعت محادثة مفهومة بين بعض الديكة والفراريج ، وعن القروى الذى عثر على شجرة تثمر أحذية بدلاً من الفاكهة . وفى مجتمع كهذا فرض رجال الدين كفارات عدة على الناس حتى يحدوا من هذه الهلوسات وعواقبها الوحشية ، وكانت الكفارة تشمل الصلاة والصيام والطرء المؤقت من القرية ، وبات لكل خطيئة كفارتها كى تغسلها . وقد سمحت بعض الأروقة الدينية للمذنب أن يستأجر شخصا آخر ليقوم بالصيام بدلا منه (Justus) ، وكان على المقتدر من الناس أن يدفع عشرين شلناً للصائم المستأجر ، أما الأقل غنى فكان يدفع عشرة شلنات ، والأدنى من ذلك ثلاثة شلنات فقط . ومن الكفارات أيضا الحكم على الآثم بأن ينام لفترة محددة فى جوف أحد القبور بجوار جثث الموتى ، أو أن يجلد نفسه بالسوط عدة مرات ، أو أن ينزع من فروة رأسه ١٢ شعرة .

هذا وقد كان اعتقاد الناس فى الأولياء والقديسين شديداً فى العصور الوسطى ، ولذا فقد حرصوا على إقتناء رفاتهم ومخلفاتهم ورماد قبورهم ، وقد كان هذا سببا فى رواج الاتجار باثار القديسين ، بل أن سرقة رفات القديسين باتت أمراً منتشرأ ليس فقط بين العامة وإنما أيضا بين كبار رجال الدين أنفسهم . وقد وصل الحد إلى أن البعض جاهر بأن قتل أحد القديسين لا حرج فيه ، وذلك لضمان دفن رفاتة فى هذا المكان أو ذاك للتبرك به وبكراماته .

ويروى عن أهالى جبال أومبريا الايطالية أن أحد الصالحين هنالك قد قرر

فجأة هجران المنطقة والإعتزال بعيداً في ركن قصي ، فانزعج أهل المنطقة وتصايحوا : إن كان يصعب علينا الإبقاء عليه معنا حيا ، فلنبقه معنا مقتولا^(٩٩). هذا وقد خص العامة هؤلاء الصالحين والقديسين بصفات وكرامات دقيقة التخصص ، فهذا يعين على الشفاء من أمراض الجلد ، وذاك للعيون ، واخر لأمراض المعدة ، ورابع للجهاز التنفسي وهكذا ، بل إن هنالك من خصوا بالمقدرة على طرد الفئران من المنازل . ولقد ازداد عدد هؤلاء القديسين إلى حد أنه قد أحصى في مدينة كولون وحدها عشرة الاف من عذارى المدينة تخصصن في الوساطة لدى هؤلاء القديسين والقديسات للشفاء والمعافة . يلاحظ أيضاً أن نفحات القديسين قد تجاوزت بنى البشر لتشمل أيضاً مملكة الحيوان والنبات بل والجماد . ومن حكايات العصر ونوادره أن ذئبا هاجم أحد الصالحين وهو في الطريق وابتلع حماره ، فلعنه القديس وكبله ثم سخره ليقوم بأعباء الحمار الضحية ، وصار الذئب المتوحش مطية ملجمة طيعة يؤدي للرجل واجبات الحمار القاتل .

كان طبيعياً في هذا المحيط الغيبي أن يظهر العديد من المشعوذين والأنبياء الكذبة ، ومن هؤلاء واحد وفد من اسبانيا إلى مدينة تور الفرنسية وهو يقود ثلة من العوام والساقطات من النساء ، وعند القبض عليه عثر في حقيبته على جذور نباتات ، وأسنان موتى ، وعظام فئران ، ومخالب قطط وأشياء أخرى غريبة . ويجب أن نلاحظ في هذا الصدد أن الكنيسة الرومانية كانت لا تمنع في التبرك بآثار القديسين الذين تعترف بهم رسمياً ، ولكنها حرمت ما دون ذلك في الاوساط الشعبية ودمغته بالهرطقة أو السحر الشعبي (maleficium) .

وقد اعتاد الناس عندما تحمل ضائقة أو نازلة بناحيتهم أن يهرعوا إلى مقبرة
وليهم يستصرخونه للنجدة ، وإذا لم تنقش الغمة فإنهم يقتحمون مقبرة «الولى»
ويطرحون رفاته أرضاً وينثرون الاشواك على عظامه ويتطاولون عليه سباً وتقريعاً .

أما عن سلوى الفلاحين فى القرية فكانت تتمثل فى حفلات الرقص فى
الخلاء أو مشاهدة صراع الثيران والديكة ، أو التزحلق على الجليد ، أو شراب
الجمعة حتى الثمالة أو الجلوس لاستماع النادر من القصص والحكايات والطرف .

شهد القرن الثانى عشر اتساعاً فى رقعة الأرض الصالحة للزراعة بعد أن
أزيلت الغابات ، ولكى يرغب السادة أصحاب هذه الأراضى الفلاحين فى العمل
عليها اضطروا إلى أن يرموا معهم موائيق مكتوبة تحتوى على شروط أفضل من
ذى قبل ، وفى فرنسا أصبحت كل قرية تحصل على مثل هذا الميثاق تعرف
باسم «القرية الجديدة» (Villeneuve) .

هذا وقد ساعد تداول العملة فى تمكين نفر من الفلاحين من اقتصاد
مبلغ متواضع اشتروا به رقعاً من الأرض من بعض السادة . والعامل الأهم الذى
ساعد على تحطيم أغلال القنية هو تلك التوارث التى اندلعت فى كل من
فلاندرز وفرنسا وانجلترا فى القرن الرابع عشر .

والحق أنه مع ازدياد التعليم فى نهاية القرن الثالث عشر بدأت تسرى فى
بلدان غرب أوروبا بعض الأفكار المستنيرة التى تناقلها الناس فأثارت فى نفوسهم
فضولاً وتطلعاً إلى نسمة الحرية . كما أن الحروب التى تتابعت بين الملكيات
الإقطاعية قد جرت على الفلاحين وبالأشدّ ، خاصة تلك الضرائب الثقيلة
التي فرضها عليهم الملوك للاستمرار فى حروبهم .

قامت أولى الثورات فى فلاندرز واستمرت من سنة ١٣٢٣ م حتى ١٣٢٨ م وكان يقود الفلاحين فى هذا التمرد الغاضب زعيم اسمه نيقولا زانكين الذى رفض هو وأتباعه وأقرانه دفع الضرائب التى فرضت مجدداً ، كما امتنعوا أيضاً عن دفع ضريبة العشور للكنيسة . وهللت الطبقات المظلومة فى بلدان بروج (Bruges) ، ويپر (Ypres) لهذا المطلب وانضموا إلى الثوار . ولقد اتخذت الثورة طابعاً عنيفاً جارفاً عبر عن الرواسب المتراكمة والمكبوتة فى نفوس قاعدة الهرم الإقطاعى . وانتقم الأقتان من سادتهم ، فحطموا بعض القلاع وقتلوا سادتها واعتدوا على نساءها . ولم يعد يخيفهم شىء . غير أن جيشاً ملكياً فرنسياً قام بتطويق الثوار عن بلدة كاسيل (Casel) وقضى عليهم فى وحشية زائدة .

ثم اندلعت ثورة الأقتان فى فرنسا سنة ١٣٥٨ م ، وعرفت هذه الثورة باسم « جاكيرى » (Jacquerie) ، وهى كلمة مشتقة من عادة كانت عند طبقة النبالة الفرنسية فى مخاطبتها لطبقة الأقتان « بلفظة جاك بون أوم » (Jacques Bonhomme) بمعنى « جاك البسيط » وقد تعنى أيضاً جاك « الأبله » .

وقد بدأت الثورة فى شمال فرنسا سنة ١٣٥٨ م فى لحظة حرجة من تاريخ البلاد فى اثناء حرب المائة عام مع انجلترا . فبعد واقعة بواتييه (١٣٥٦ م) ، وقع الملك الفرنسى جان الثانى اسيراً فى أيدي القوات الانجليزية ، وقد جاءت هزيمة بواتييه خاتمة لسلسلة طويلة من الاذلال العسكرى للفرنسيين على أيدي الانجليز . ولقد استاء الشعور العام فى فرنسا من تلك المهانات المتلاحقة ، وصب العامة اللوم كله على الفرسان من ابناء الطبقة النبيلة الذين كانوا يؤلفون عصب

الجيش الفرنسى .وبعد هزيمة بواتيه أبرمت هدنة بين الانجليز والفرنسيين ،وفى أثناء الهدنة أطلق الانجليز جماعة من الجند المرتزقة على الريف الفرنسى ،فراحوا ينهبون الفلاحين ويعتدون عليهم ، ولقد انصب الأذى بوجه خاص على مناطق إيل دى فرانس ، وشامبانى ، وبيكاردى .ولقد أجمع من نار الغضب فى صدور الفلاحين الفرنسيين أن الفرسان الفرنسيين بدلاً من أن يتصدوا لهذه الإغارات الانجليزية ، قد انضموا إلى المغيرين يشاركونهم فى نهب وسلب بنى جلدتهم . واندلعت الشرارة فى نوفمبر ١٣٥٧ م فى منطقة ايتيين مارسيل فى باريس ،ولما تفاقم الأمر قرر ولى العهد شارل الخامس ضرب حصار حول منطقة التمرد (١٤ نوفمبر ١٣٥٨) ، فأمر بتقوية القلاع المحيطة بالعاصمة .ولكى يحصل ولى العهد على المال اللازم لتقوية تلك القلاع ، فرض ضريبة جديدة على الفلاحين لهذا الغرض .

ولقد انزعج الفلاحون من هذه الضريبة الجديدة ، لأن تلك القلاع كانت تعد للانقضاء عليهم ، فكيف يدفعون المال للمساهمة فى هلاك أنفسهم وأقربانهم ؟ .

وفى ٢١ مايو ١٣٥٨ م هبت قرى كومبيين لتشارك فى الثورة ، وامتد لهيها صوب الجنوب الغربى فى المنطقة الواقعة بين نهر ويز ونهر المارن ثم عبر نهر السين . واندفع أقتان الجنوب الشرقى فى شامبانى لينضموا للحركة ، وسرعان ما تحركت الطبقات الكادحة فى الشمال الغربى فى مناطق بوفيه وإميان للشوار .

إنقض الأقتان على « جلاديهيم » فحطموا القلاع وأحرقوا موائيق الرق

التي كانت قد كبلتهم قرونا بأغلال المذلة والهوان . ثم انضم الكثيرون من بروليتارية المدن من الحرفيين والعمال وصغار التجار إلى الأقتان لتصفية الحساب مع أرستقراطية القلاع . واختار الثوار قائداً لهم من اقليم كومبين يدعى وليم كال ، الذي حفز أتباعه على الزحف إلى باريس لنجدة أهالي إيتيين مارسيل المحاصرين . وقد ترك لنا المؤرخ المعاصر فرواسار (Froissart) صورة لتلك الأحداث الدامية ، على أنه ينبغي ملاحظة أن هذا الكاتب المعاصر كان منحازا بحكم انتمائه الطبقي إلى معسكر النبلاء . يقول فرواسار : « لقد هدرت جموع الأقتان من كل صوب ، من بوفوازييه ، وبري ، ومن ضفاف نهر المارن، ومن قالوا ولانواه ، ومن أراضي كوسى ومن ربوع سواسون ، ومن سائر بقاع ريف البلاد ، وتجمع هؤلاء وأولاء في بوفوازييه وأعلنوا أن الفرسان والنبلاء قد خانوا قضية البلاد . ثم تصايحوا منادين بوجوب القضاء على أبناء تلك الطبقة وتدمير قلاعهم ، وأقسموا على أن الإبقاء على حياة النبلاء يعتبر خيانة كبرى . وتحرك الأقتان وهم يحملون الهراوات والسكاكين ثم هجموا على أول قلعة صادفوها ، فاقتحموها وقتلوا صاحبها وزوجته وأطفاله ، كباراً وصغراً ، ثم اشعلوا النيران في القلعة . وانقلبوا بعدها على قلعة أخرى ، فقبضوا على سيدها وأوثقوه في وتد ، ثم اعتدوا على زوجته وابنته أمام بصره ، ثم قاموا بقتل الزوجة التي كانت حبلى هي وابنتها وكل الأطفال الذين كانوا داخل القلعة ، واشعلوا النيران فيها فأنت عليها ... وتكررت الحال مع العديد من القلاع ، ثم انضمت إلى المتمردين جموع أخرى ، فبلغ عددهم ستة الاف ، وكانوا كلما مروا في بقعة انضم إليهم من كانوا على شاكلتهم . ولقد

فر الفرسان والنبلاء من قلاعهم إلى الغابات للاحتباء في جوفها . وأغتصب الأفتان من صادفوه من فتيات وسيدات دون رحمة ، ولكأنهم كلاب مسعورة ، بل إنهم قاموا بقتل أحد الفرسان وأخذوا في شوائه على النار على مشهد من زوجته وأولاده ، ثم طلبوا إلى الزوجة أن تشاركهم في تناول هذا الشواء الآدمى البشع (١٠٠) .

بعد هذا اجتمع الأفتان فى بلدة كليرمونت وأختاروا لهم زعيما واسموه «جاك بون أوم» وهو الذى يدعى وليم كال ، ثم تحرك الثوار من بوافوازيه إلى كوسى حيث انقضوا على الفرسان والنبلاء وقتلوا كل من وقعت عليه أيديهم . استنجد نبلاء فرنسا بأصحابهم من أمراء الأقطاع فى فلاندرز وهينولت وبرابانت وهرع هؤلاء للأنقضاى على أفتان فرنسا . وقد هجمت الكتائب الاقطاعية من كل صوب على الثوار وحصدتهم حصداً ، وقطعت رؤوس الكثيرين منهم ، وعلقت جثث البعض على الاشجار . وفى أثناء ذلك كان ملك نافار شارل «الشرى» قد انقض برجاله على تجمع للفلاحين على مقربة من كليرمونت وحصد منهم ثلاثة الاف رجل فى ضربة واحدة . ورغم هذا فإن اعداد الثوار كانت تتزايد يوما بعد يوم حتى بلغوا مائة ألف . وكان وليم كال قد وجه جماعة من رجاله لمهاجمة منطقة موه (Meaux) حيث كانت تقيم مجموعة من سيدات البلاط الملكى ، ولكن الكونت جاستون فويوس دى فوا ، وجان الثالث دى جرايل تصديا للمهاجمين وقتلا منهم سبعة الاف رجلا .

وفى العاشر من يونيو ١٣٥٨ م دبرت خديعة أوقع فيها بالزعيم وليم كال عندا كليرمونت . ثم أطلق ولى العهد الفرنسى رجاله على ريف شامبانى للقصاص من بلدة سنليس (Senlis) لوقوفها بجوار الثوار . واستمرت حركة

القمع والتقتيل حتى أغسطس ١٣٥٨ م ، وتمت خلال ذلك مذابح جماعية ضد الفلاحين فى كل ربوع فرنسا (١٠١) .

وفى إنجلترا قام الأفنان بثورة عارمة سنة ١٣٨١ م . وكان المحرك للثورة تلك الضريبة الجديدة التى فرضتها حكومة الملك الطفل ريتشارد الثانى بمقدار شلن واحد على كل رأس منذ سنة ١٣٧٧ م . وعلت وقتها أصوات فى البرلمان الانجليزى على لسان السادة من علمانيين وكنسيين تشكو من الفلاحين الذين باتوا يعلنون صراحة بأنهم عازمون على التحرر من ضغوط السادة ، وذلك بتحرير الأبدان وتخليص الأرض التى يفلحونها ، وبأنهم لن يسكتوا بعد اليوم عن الظلم والعنت من جانب أى أحد . وشكى السادة أيضاً لملكهم أن الفلاحين صاروا يهددون موظفى سادتهم ، وأنهم يجتمعون فى أعداد ضخمة لإعداد العدة للانقضاض على سادتهم (١٠٢) .

والواقع أن « الوباء الاسود » (Black Death) أو الطاعون الذى كان قد اجتاح أوروبا كان قد حصد أعداداً كبيرة من الفلاحين ، حتى أن بعض الأراضى الزراعية تركت بلا أيد تفلحها . وكان طبيعياً أمام تناقص الأيدى المفلحة أن تزداد على البقية الباقية أعباء العمل فى الأرض ، فطالبوا بزيادة أجورهم ، ولكن السادة رفضوا هذا المطلب . كما أن الطبقات الكادحة من عمال وحرفيين فى المدن كانوا ساخطين منذ صدور « قانون العمال » سنة ١٣٥١ م الذى جمد الأجور رغم اطراد الارتفاع فى مستوى المعيشة .

كذلك انضم إلى الفلاحين فى ثورتهم عدد وافر من الذين دمغتهم السلطات الانجليزية بوصمة « الخروج على القانون » (Outlaws) ، فتألفت

من هؤلاء الأخيرين جماعات أطلقت على نفسها اسم أتباع روبن هود ؛ البطل الانجليزى الاسطورى الذى تفنن فى مقاومة الغزو النورماندى وفى الأخذ من الأغنياء غصباً لإطعام الفقراء .

كذلك أوجع من اشتعال الغضب موقف بعض المستنيرين من رجال الدين وعلى رأسهم جون بول الذى نادى بالحرية والعدالة والمساواة بين طبقات المجتمع جميعاً . وكان جون بول كاهناً بسيطاً فى ولاية يورك ثم انتقل منها إلى مقاطعة كولشستر . وظلت مواعظ هذا الرجل على مدار عشرين عاماً تندد بالظلم الأقطاعى وتدعو إلى إلغاء الفوارق الطبقية . وقد ألهمت مواعظه حماس المصلين فطبقت شهرته آفاق البلاد ، حتى أن كبير اساقفة كنتربرى واسمه لانجهام أصدر قراراً بحرمانه من الوعظ بالناس (١٣٦٦ م) . ورغم هذا القرار فإن الجماهير ظلت ملتفة حول جون بول ورأت فيه وفى كلامه عزاءً جميلاً . وفى سنة ١٣٧٦ م صدر أمر بالقبض عليه وإيداعه السجن . على أنه عندما اندلعت ثورة الفلاحين سنة ١٣٨١ م بزعامة والتر تيلور فى مقاطعة كنت هجم الثوار على سجن مدستون (Maidstone) وأطلقوا سراح جون بول الذى انضم إلى موكب الثوار وزحف الجميع نحو لندن . وعند معسكر بلاك هيث خطب جون بول فى الثوار ، وقد ألهم مشاعرهم بمقولته الشهيرة التى صارت منذ نطق بها مضرب الأمثال فى الإنجليزية ، « When Adam Dalf and Eve, Span who was then a gentleman » ، وقد حث جون بول الثوار عند دخول لندن على تقليد أظافر اللوردات وامراء الاقطاع والبورجوازيين وكبار الاساقفة ورؤساء الأديرة والرهبان الفاسقين . وبعد أن أوقعت السلطات الحاكمة وعمدة لندن

بالثوار ، تم القبض من جديد على جون بول فى بلدة كوڤنترى حيث حوكم
ثم اقتيد إلى جبل المشنقة فى بلدة سان ألبانز ، وذلك فى ١٥ يوليو ١٣٨١ م .
وكما يحدث لكل مناضل شريف ، راحت حوليات المعاصرين من ابواق السلطة
فى القرن الرابع عشر وما تلاه من قرون فى تشويه صورة جون بول وسمعته ،
وليس من باب المصادفة أن الكاتب المغرض جان فرواسارت (الذى سبقت
الاشارة إليه فى ثورة أقتان فرنسا) قد وصف جون بول بأنه « كاهن مجنون من
أهالى كنت» (١٠٣) .

ويعترف المؤرخون اليوم بأن جون بول كان رائداً من رواد الاصلاح الدينى
فى غرب أوروبا ، وقد وجدت حملته التى شنّها على فساد كبار رجال الدين
أذانا صاغية خاصة عند أتباع المصلح الدينى جون ويكلف (Wycliff) المعروفين
باسم « لولارد » (Lollards) ؛ الذين تعاطفوا مع الأقتان والفئات المغلوبة على
أمرها ثم شنوا حرباً فاضحة ضد الوحل الذى تردت فيه كنيسة روما وكبار
رجال الدين فلقبوهم « بالكهنة القياصرة (Caesarean Clergy) .

بعد أن شنق جون بول ، أرسلت الإشارة إلى سائر أنحاء إنجلترا بأن جون
بول من على جبل المشنقة قد « دق لكم الأجراس » (John Ball hath run-
gen your bell) . وتلقف فلاحو كنت الإشارة فحملوا سلاحهم وانضموا
تحت لواء والتر تيلور . وتيلور هذا ، وفقاً لرواية جان فرواسار ، كان قد سرح من
الخدمة العسكرية فعاد إلى موطنه حيث اختير زعيماً للثورة فى بلدة مدستون .
زحف تيلور ورجاله من ولاية كنت فاستولوا على بلدة كنتربرى فى ١٠ يونيو
١٣٨١ م ، ثم اتجه الثوار إلى من منطقة سوث ورك (Southwork) ، وقام نفر

من رجاله بفتح قنطرة لندن وتدفق الجميع على لندن . ولقد حاول البعض القيام بعمليات نهب لقصور الأغنياء ، ومنها قصر ساثوى الخاص بجون جونت ، ولكن تيلور ضرب المخربين بيد من الحديد ، حفاظاً على سمعة الثورة . ورغم هذا لم يكن هنالك سبيل لكبح جماح العامة ، فقد اغتيل المستشار الملكى وهو كبير اساقفة سديبرى (Sudbury) وقطعت رأسه ثم علقت على قنطرة لندن . كذلك هجم بعض المخربين على حى التجار الأجانب فى العاصمة الانجليزية ، فقتل عدد كبير من التجار خاصة من أهالى فلاندرز^(١٠٤)

بعد هذا عمل الملك ريتشارد الثانى ورجال بلاطه على خداع الثوار ، فقابلهم الملك عند مايل إند (Mile End) فى ١٤ يونيو ١٣٨١ ، ووعدهم بتنفيذ مطالبهم بالغاء السخرة وتحديد اسعار إيجار الفدان بواقع أربعة بنسات وإصدار عفو شامل عن كل من شاركوا فى التمرد . ثم كلف الملك ثلاثين من الكتبة لوضع الموائيق لتسجيل صكوك العفو والحرية لكل قرية وأهلها على حدة . وهدأت الخواطر ، ورحل عدد كبير من الثوار إلى قراهم ، بينما بقى أهالى كنت مع زعيمهم تيلور يرقبون الموقف ، ولما أن اشتموا رائحة الغدر هجموا على برج لندن واستولوا عليه . واضطر الملك ريتشارد الثانى إلى مقابلة زعماء الثورة من جديد عند سمث فيلد ، وطيب خواطرهم .

وبينما كان تيلور يتفاوض مع أحد رجال الملك فى سمث فيلد قام واحد من أتباع وليم ولورث عمدة لندن بطعن تيلور طعنة نافذة بخنجره . ثم انقضت القوات الملكية على بقية الثوار تحصدتهم حصداً على حين غرة . حمل اتباع تيلور زعيمهم الجريح إلى مستشفى سان بارتلميو ، ولكن كلاب الحراسة

الملكية هجموا على المستشفى وانتزعوا الرجل الذى كان ينزف دماً من فراشه وقاموا بشنقه . ثم انقض البارونات على الريف يقتلون القوم فى غير هوادة . وانعقد البرلمان الانجليزى وألغى بجرة قلم كل الموائيق التى كان كتبة الملك قد أعدوها بالفعل .

ولكن إذا كانت القوى الإقطاعية قد نجحت فى خداع الأتقان واجهاض ثوراتهم ، إلا أن هذه الثورات فى فلاندرز وانجلترا فى القرن الرابع عشر كانت علامة كبرى على الطريق إلى الانعتاق من جحيم عصر الظلام .

الفصل السادس

جسيم العصور الوسطى

الفكر المخالف – أفكار جماعات الأَطهار – قيام محاكم
التفتيش – صور من قمع محاكم التفتيش في مختلف
بلدان الغرب الأوربي – رواد الإصلاح : جون ويكلف
جون هس – ساقونا رولا – مارتن لوتر .

بلغ الظلام اشده في العصر الوسيط عند قيام محاكم التفتيش في النصف
الثاني من القرن الثاني عشر . وحقيقة الأمر أن الكنيسة الرومانية بشيوقراطيتها
(Theocracy) المتشددة ودخلوها في صراع مرير ضد السلطات العلمانية قد
حولت خريطة أوربا إلى ساحة من التوتر والقلق . وفي أثناء هذا الصراع بين
الكاهن والقيصر تجاوزت البابوية حدود صلاحياتها فدخلت المعارك ولطخت
سمعتها بالدسائس ويدها بالدماء . وذهل الناس عندما رأوا الكاهن الأكبر يدق
طبول الحرب ، فراحوا يترحمون على اسطورة السلام العالمى وعلى « مدينة الله »
الطوباوية التى بشر بها أغسطينوس منذ القرن الخامس .

كما شاعت فى تلك الأوقات روايات كثيرة عن سوء مسلك كبار رجال
الدين ، من ذلك شراء المناصب الدينية بالرشوة (السيمونية) ، ويحدثنا برنارد
دى كلير فوه (قرن ١٢ م) بأن الفساد قد بلغ حدأ أصبح الاساقفة معه

يختارون من زمرة الغلمان الطائشين (١٠٥) .

وعرف عن مندوبى البابا إلى البلدان الأوربية أن جيوبهم باتت تحشى بالفضة والذهب فى جولاتهم التفتيشية كى يتستروا على الفساد . ولقد شكى الرهبان الداوية إلى البابا اسكندر الثالث أن القاصدين البابويين باتوا يعبدون صنم المال . وقد قصد أحد الغاضبين من هذا الفساد ويدعى روبرت جروستست (Grosseteste) إلى بلاط البابا انوسنت الرابع محتجاً ، ولما لم يجد آذانا صاغية صاح فى وجه البابا : « الويل لكم من صنم المال ، محرك كل شهوة مادية ، وبه يشتري كل شىء وخاصة فى بيت الفاتيكان » . ولقد عرف عن الديوان البابوى تورطه فى اصدار الخطابات المزيفة لمنح الغفران ولخدمة قضايا الأمراء والنبلاء فى سائر أركان القارة الأوربية ، واشتهر عن المحاكم الاسقفية تردد شهود الزور عليها واختفاء ملفات بعض المتهمين من علية القوم ، وكان صك الغفران الذى يمنحه رجال الدين لمن يرغب فيه مقابل مبلغ محدد من أكثر الأمور استفزازاً لمشاعر الطبقات البسيطة وللمستغنين من صغار رجال الدين . ولقد ظهرت فكرة « الغفران » (Indulgentia) بشكل صارخ فى دعوة البابا أوربان الثانى إلى الحرب الصليبية فى مجمع كليرمونت ١٠٩٥ م ، حيث أعلن غفران الخطايا لكل من يحمل السلاح للقتال فى الأراضى المقدسة . بل إن الغفران وجد من يصنفه فى القرن الثانى عشر إلى درجتين : غفران للذنوب (Coulpe) وهو فى زعمهم ينجى من نار جهنم ؛ ثم غفران من القصاص (Peine) وهو ينجى من المطهر ، وبذا صارت تجارة صكوك الغفران تجارة رابحة أثرى منها البابا وكبار رجال الدين ، حتى صارت أمثلة يتندر بها

فى أثناء ذلك كانت أوربا الغربية تشهد قيام المدن ومولد قومياتها سعيًا إلى الاستقلال الذاتى عن سيطرة الاساقفة وامراء الأقطاع ، ولكأنها جزائر تتوالد الواحدة تلو الأخرى وسط محيط زراعى شاسع . وفى نفس الوقت تطورت المدارس الكاتدرائية إلى جامعات شهدت أروقتها مظاهر متعددة من الفكر الحر والفلسفة الأرسطية رغم أنف رجال اللاهوت . وسرت فى القوم هنا وهناك روح الغضب والتمرد التى وضحت أرهاصاتنا فى آراء بطرس ايبيلارد (١٠٧٩ - ١١٤٢ م) فى باريس وفى معمل روجريكون فى أكسفورد (١٢١١ - ١٢٩٢ م) ، وفى صيحات الراهب المستنير ايكهارت فى كولون (١٢٦٠ - ١٣٧١) ، وفى الكوميديا الالهية لدانتى أليجيرى (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) . كذلك كانت نقابات العمال والحرفيين من غزالين ونساجين وبنائين وحدادين وغيرها تتخذ مكانها فى المدن الجديدة ، وتتطلع إلى شىء من العدالة الإجتماعية .

وقد نتج عن هذه العوامل جميعا أن سرت موجات غضب جارفة ضد الكنيسة الرومانية امتدت من ربوع البلقان وشمال إيطاليا إلى جنوب فرنسا واسبانيا وبلاد الراين والأراضى الواطئة واواسط المانيا من كولون حتى جولزار . وعرفت غالبية الساخطين باسم « الأطهار » . والكلمة (Katharoi) يونانية الأصل ومعناها « الذين يحيون حياة الزهد والطهارة » وقد أطلق المعاصرون على اتباع هذه الفرق اسماء متبانية : فهم « النساجون » أحيانا ؛ و « فقراء لومبارديا » أحيانا أخرى ؛ و « فقراء ليون » ؛ وأبتاع والدو ؛ والألبجنزيين ، والبوجوميل ؛

وأتباع أرنولد من بريسكيا ؛ والزهاد . وقد اتخذت هذه الجماعات اسماءها إما من مراكز انتشارها أو من اسماء زعمائها أو من العادات التي كانت تحكمها ، غير أنها جميعا كانت تنطوي تحت لواء «الأطهار» ومن هذه الكلمة اشتق الألمان الكلمة الدالة على المروق والهرطقة (Kutzer) .

وكانت أفكار الأطهار خليطاً من المانوية والمسدية والبوذية والمسيحية في آن واحد . وينصب اهتمامهم في الدرجة الأولى على إيجاد حل لمشكلة الصراع بين الخير والشر ، وهم يعتقدون بثنائية الوجود فهناك عالم الخير والروح ويقابله عالم الشر والمادة . والله هو خالق العالم الروحي الأزلي وغير المرئي ، أما إبليس فهو محرك العالم المادي وشروره ، وهم يؤمنون بالتناسخ للأرواح ، لكنهم لا يقيمون وزناً للمؤسسات الدينية وكهنتها ، فهم لا يقبلون الوساطة بين الخالق وخليقته ، كما أنهم يبنذون الأيقونات وفكرة صكوك الغفران (١٠٧) .

ترجع أول انتفاضة صاحبة للأطهار إلى النصف الثاني من القرن العاشر في بلغاريا حينما هبت جماعة من الكادحين ضد نبلاء الاقطاع على أمل تحطيم قيود رق الأرض والارتباط بساقية الاقطاع ارتباط السائمة بالسواقي . وقد وجدوا لهم زعيماً يعبر عن آرائهم يدعى بوجوميل ومعنى اسمه « المحبوب من الله » ، وقد نشط بوجوميل في تحريض اتباعه على التمرد ضد السلطة لأنها تجسّد لتحكم الشر على الخير ، كما وصف رجال الأقطاع بأنهم مصاصو الدماء . وقد حضّ بوجوميل العبيد على الامتناع عن خدمة السادة . ولما أن وصلت هذه التعاليم إلى مناطق البوسنة والصرب ، انزعجت البابوية فأمرت ملك المجر بقمع هذه الحركة بالحديد والنار تحت شعار « الحرب الصليبية » . وقد رد

البوجوميليون بأنهم ماضون فى ثورتهم حتى تتم المساواة بين جميع الناس ،
ويكف الشباب عن المشاركة فى الحروب وذبح الحيوانات . أما الحملات
الصليبية سواء أكانت ضد الأراضى المقدسة فى المشرق أو ضدهم فى الغرب فقد
وصفوها بأنها مذابح جماعية من تدبير الكنيسة الرومانية من أجل المكاسب
الديوية .

وقد ترجم الأظهار على اختلاف بلدانهم الانجيل إلى لغاتهم المحلية كرها
منهم للسان اللاتينى . وللأظهار درجات روحية على سلم الطهر ؛ فهناك الابن
الأصغر وهناك الابن الأكبر . ويرتبط من ينضم إلى هذه الجماعة بالعهد (La
Convenansa ، وبعدها يتعهد بالامتناع عن تناول اللحوم والبيض والألبان
وكل من هو ليس نباتياً أو مائياً فى جوهره ، وعليه ألا يكذب وألا يحلف وألا
يسير بمفرده إن توفر له على الطريق « أخ » من الجماعة ، وألا يتنكر لعقيدته
حتى لو عذب بالنار أو الفرق . وبعد هذه التعهدات يضع كبير من طائفتهم
الكتاب المقدس على رأس العضو الجديد وهو يتمتم : « فى البدء كان
الكلمة .. » ، ثم يرتدى العضو الجديد لباسا خاصا ويتلقى قبلة السلام .

وبهذه الطقوس يكون العضو الجديد قد شارك فى « عماد الروح » (Con-
solamentun) ، ومن ثم فإنه يطلق فى اسلوب حياته كل ما هو ماضى
ويسلك بالروح وبالروح فقط .

وللأظهار اسلوب عجيب مع من يشتد به المرض من أفراد الجماعة ؛ فهم
يخبرونه بين الموت « كشهيد » أو « كمعترف » ، فإن هو اختار الشهادة فأنهم
يحضرون وسادة (Untertuch) ويكمنون بها فمه بإحكام حتى يموت اختناقاً ،

فى حين تقف حوله فرقة من المنشدين ترفع الترانيم المناسبة للموقف؛ وإن هو اختار « الاعتراف » فإنه يحرم من الطعام ثلاثة أيام كاملة فإن قدر له أن يعيش بعدها مجتازاً فترة « الاحتمال » (Endura) الذى يكابده عن طيب خاطر فإنه بهذا يبرهن على صلابة روحه واحتقار جسده فيخلعون عليه لقب « الكامل » (Perfectus) . وتوضح صلواتهم مدى زهدهم فى الحياة الدنيا ، فهم يصلون ضارعين « أيها الرب لاتترأف على جسدى فهو فاسد لا يستحق الرأفة ، ولكن أرحم روحى الحبيسة فى سجنها المادى » (١٠٨) .

ومن هذه القناعة ومسلك الزهد بلغت أيام صيامهم مائة وعشرين يوماً فى العام، هذا إلى جانب الاكتفاء فى قوتهم بالخبز والماء فقط . وكانت هذه الجماعة تعاف فكرة الزواج ، وإن سمح بها ينبغى أن تتوقف العلاقات الزوجية بين الرجل وزوجته عقب الانجاب الأول مباشرة وإلى الأبد ، على أن الغلاة منهم كانوا يتجنبون حتى مجرد لمس النساء . وقد ورد فى سجلات محاكمات بلدة تولوز (سنة ١٣٠١ م) أن رجلاً من هؤلاء الأطهار طلب من ابنته ألا تلمسه طيلة حياته ، ولم يسمح لها بالاقتراب من فراشه حتى وهو يحتضر ! وتقوم الكراهية للمرأة عندهم على أساس أن خطيئة حواء الكبرى قد دنست العالم البكر وجرمت آدم الطاهر عندما أوقعته فى الغواية الآثمة ؛ ويجاهرون بأن « معرفة » آدم لحواء معرفة جنسية قد كان خطيئة كبرى ، وبسببها سقطت الروح وهرب الطهر ، ودخلت الأبالسة إلى جنة عدن فأفسدت على الإنسان كل شىء .

ولقد ظهرت جماعة من الأطهار فى لمبارديا بايطاليا واشتقت اسمها من بلدة كونشوريتسو (Concorrezo) ، وظهرت أخرى فى بلدة بانولو (Bagno-

١٥) وتعتقد هاتان الجماعتان بأن الشيطان هو الذى لوث جسد الإنسان بالإثم ، وبأن ابليساً فى الأصل قد اغتر بنفسه فطلب إلى الملائكة أن تسجد له ، ولذا فقد حل عليه غضب الله وأسقط إلى الهاوية .

وعلى الرغم من أن معلوماتنا عن الأطهار قد وردت من سجلات أعدائهم من الكاثوليك والمشرفين على محاكم التفتيش ، إلا أن أحداً من هؤلاء الخصوم لا ينكر على تلك الجماعات شجاعة أفرادها الفائقة ، وعدم جزعهم من الحرق بالنار . ويروى عن أحداث سنة ١١٦٣ م فى بلدة كولون أن من بين المقدمين للحرق بالنار كانت تلك الفتاة الجميلة والتي اشفق الجلادون عليها بسبب جمالها الأخاذ ، فجذبوها بعيداً عن النار ونصحوها بإعلان توبتها حتى تنال العفو ، ولكن الفتاة طلبت من الجلادين أن يقربوها من النار كي تودع رماد الضحايا الذين سبقوها ، ولما أن اقتربت أفلتت من أيديهم وألقت بنفسها فى قلب اللهب استغذاً للاستشهاد بالنار مع « الإخوة » .

ولقد بالغت سجلات محاكم التفتيش فى الصاق الاتهامات بتلك الجماعات ، فزعموا أنهم يعبدون الشيطان ، وبأنهم يمارسون حرية الجنس ، ولذا فقد أطلق عليهم خصومهم « أتباع لوسيفر » ، أو « إخوة الروح المتحللة » (Freres du libre esprit) ، وقد برزت سيدتان فى إيطاليا لزعامه هذه الفرقة الأخيرة وهما ميلتادى مونتميانو ، وجوليت دى فلورانس (١٠٩) .

والواقع أن المدن الإيطالية فى السهل اللومباردى كانت قد انتعشت فى القرن الحادى عشر مع اضطلاع أهلها بالنشاط التجارى بين الشرق والغرب . وقد كان هذا الرخاء المادى مسيلاً للعباب كل من الامبراطور والبابا ،

فسعى كل منهما للسيطرة على هذه المدن ، ولكن المدن جاهدت لاقامة حكومات جمهورية مستقلة لتباعد بينها وبين سيد روما وقيصر ألمانيا .

غير أن كبار رجال الدين داخل تلك المدن وقفوا ضد تيار الحرية ، وباعوا ولاءهم تارة للامبراطور وأخرى للبابا فى مقابل حصولهم على امتيازات خاصة لأنفسهم من قبيل الاعفاء من الضرائب أو الاحتفاظ بمحاكم اسقفية ، إلى جانب حقهم فى محاكمة خصومهم كهراطقة . أما أبناء الطبقات الكادحة من عمال وحرفيين فقد كونوا لأنفسهم جماعات سعت إلى إيجاد حلول لمشكلاتهم الإجتماعية والاقتصادية . وقد ظهرت فى هذه المدن تيارات سياسية متصارعة ، أشهرها حزب يناصر البابا ضد الامبراطور الألمانى وعرف بحزب «الجويلف» ، ثم حزب يساند الامبراطور ضد البابا وعرف باسم حزب «الجبليين» .

وفى وسط هذا الجو المتوتر وصلت أفكار الأطهار ، فوجدت مناخا مناسباً للانتشار ، ولذا فإنه فى سنة ١١٣٠ م أقيمت محاكم اسقفية لمطاردة ومحاكمة جماعة عرفت باسم « باترينى » (Patereni) ، وهو اسم مشتق من اسم لحي فقير فى بلدة ميلان .

ثم نشب صراع بين هذه الجماعة وبين الكاثوليك فى بلدة أورفيتو (Orvieto) ، وكانت الغلبة فى النهاية للأطهار . وسارعت البابوية بدمغ جماعة باترينى بالهرطقة ، ولما أن تم الصلح بين الامبراطور فردريك بربروسا والبابا لوسيوس الثالث سنة ١١٨٤ م فى مدينة فيرونا ، اتفق الطرفان على ضرورة سحق «الهراطقة» بواسطة محاكم التفتيش فى مدن الشمال الإيطالى (١١٠) .

ورغم أساليب القمع البابوية والامبراطورية كان الأطهار يختفون من مدينة ليطهروا فى مدينة أخرى ، خاصة وأن غالبية الناس من أهالى تلك المدن كانوا متعاطفين مع هذه الجماعات . ومع مطلع القرن الثالث عشر انتشرت فرق الأطهار فى كل من ميلان ، فرارا ، فيرونا ، رمينى ، فلورنسا ، براتو ، بياتسنزا ، ترفزو ، وفتربو .

ورغم مطاردة السلطات البابوية والألمانية لهؤلاء الأطهار وأحراق الكثيرين منهم بالنار ، إلا أن أفراد هذه الجماعات لم ينشوا عن عزمهم ، وباتت مدينة ميلان ملاذا لهم من وجه الاضطهاد وللغارين من أمثالهم من المانيا وفرنسا . وقد عرف عن أطهار ميلان ثقافتهم العالية ، إذ درج أفراد الجماعة فيها على إرسال أبنائهم النابهين للتعلم فى جماعة باريس ليستعينوا بسلاح العلم فى الدفاع عن معتقداتهم .

ويبرز بين هؤلاء نائى مرموق هو أرنولد من بريسكيا الذى سافر إلى باريس ودرس على يد أستاذ حر هو بطرس أبيلارد ، فتشرب منه الأفكار الحرة سواء فى اللاهوت أو فى فروع الفلسفة والمنطق . وبعد الانتهاء من دراسته فى باريس عاد أرنولد إلى موطنه الأصلى فى الشمال الايطالى ، ورسم كاهنا ، ومن موقعه هذا أخذ أرنولد يجاهر بآرائه الإصلاحية : فقد أعلن أن امتلاك رجل الدين ، كاهناً بسيطاً كان أو اسقفأ أو من البابوات ، لأملاك خاصة إنما هو أثم كبير لايتفق مع واجبه الدينى . وقد لقى هذا الكلام قبولاً طيباً لدى الأهلىن الذين كانوا قد ضجوا من مفساد كبار رجال الدين وتضخم ثرواتهم . وقد انزعجت الدوائر الدينية من آراء أرنولد ، فلما انعقد المجمع اللاتيرانى سنة ١١٣٩ م أدينت آراء

ارنولد وقرر البابا عزله من سلك الكهنوت ثم طرده إلى خارج إيطاليا . وهرب ارنولد إلى باريس ليحتوى بجوار أستاذه بطرس ابيلارد ، وفى اثناء غيابه كان الناس يتغنون فى الطرقات باراته ، ووصلت هذه الآراء إلى قلب روما نفسها ، فحدث فيها تمرد ضد البابوية ونادوا بمصادرة أملاكها واقامة قوميون لمدينة روما لاعلان استقلالها الذاتى . أصدر البابا قراراً بالقبض على ارنولد واستاذ ابيلارد وايداعهما السجن ثم أحرق كتبهما جميعاً .

وفى حين أن الاستاذ قد امثل لحكم البابا وتراجع عن مواقفه الثورية ، إلا أن التلميذ قرر ألا يتراجع والا يستسلم . وتحت ضغط البابوية قام الملك الفرنسى بطرد أرنولد من فرنسا ، فسافر منها إلى المانيا ثم إلى سويسرا ، وأخيرا عاد إلى موطنه الأصلى فى شمال إيطاليا . وتجمع أطهار لومبارديا حول أرنولد ، وراح هو يخطب فيهم ، مشبهاً البابا وكرادته بالفريسيين والكتبة المنافقين ، كما نشر فضائحهم و اشار إلى مجالسهم ومجامعهم على أنها « مغارات » لصصوص وأوكار للشعالب ، وتناول إلى حد تشبيه الكاهن الأكبر « بكلب الصيد المفترس » الذى يحشو خزائنه بطعام الفقراء والجائعين . وعند هذا الحد اضطر البابا هادريان الرابع إلى الإلتفاف إلى عدوه اللدود فردريك بربروسا امبراطور المانيا فصالحه وطلب منه القضاء على أرنولد . وبالفعل لبى بربروسا النداء البابوى فقاد حملة سنة ١١٥٥ م ضد الشمال الايطالى ، وقبض على أرنولد وأمر بشنقه ، ثم أحرق جسده وذر رماده فى نهر التيسر . وفى مقابل هذه المذبحة الظالمة كافىء البابا هادريان حليفه بربروسا بأن توجه امبراطوراً فى مدينة روما .

وفى فرنسا كان الناس قد ضاقوا أيضاً من مسلك رجال الدين ونبلاء

الاقطاع ، خاصة لأنهم كانوا عقبة أمام قيام القوميونات فى المدن الجديدة النامية . كذلك أدرك الأهلون فى القرن الثانى عشر أن الحملات الصليبية التى روجت لها البابوية منذ أواخر القرن الحادى عشر كانت خدعة كبرى لتحقيق المآرب الذاتية تحت شعار الدين . ولقد ظهرت فى فرنسا سلسلة من الثوار ، كان اولهم بطرس دى بروى (Pierre de Bruys) الذى كان كاهناً متمرداً ، فخلع من سلك الكهنوت بسبب آرائه حيث كان ينادى بعدم جدوى الكنائس وطقوسها وكهانتها فهى جميعاً - فى رأيه - مجرد مسرحية زائفة . أما الصلاة الجنائزية على أجساد الموتى فهى امتهان للميت وللحى معاً ، إذ كيف يمكن للحى أن يشفع للميت ؟ وأما زواج رجال الدين عنده فهو خطيئة كبرى . وبسبب هذه الآراء قامت الكنيسة بتحريض الغوغاء على بطرس هذا ، فهجموا عليه وقتلوه علانية سنة ١١٣٧ م .

ثم جاء من بعده نائر آخر اسمه فزى دى لوزان ، وناذى بنفس المبادئ التى مات من أجلها بطرس وانتشرت هذه الآراء فى مدن لى مانز ، وتور، وريمز، وبوردو . وأخيراً نصادف أهم ثوار الجنوب الفرنسى فى هذه السلسلة وهو بطرس والدو (Waldo) من أهالى ليون . كان والدو فى الأصل تاجراً ثرياً كون ثروته من عمليات الربا ، وذات يوم وهو فى الطريق صادف واحداً من الشعراء الجوالين ينشد سيرة واحد من الزهاد القدامى اسمه الكسيس ، الذى كان نبىلاً رومانياً غنياً ثم تخلى عن ضياعه وقصوره واعتق عبده وسلك درب الفقراء والزهد ، ثم راح يطوف بلدان الغرب الأوروبى ليقتات على التسول « وخبز المسكنة » (١١١) . وما أن انتهى الشاعر المنشد من البيت القائل : « قم وزع

مالك واتبعنى » ، حتى أصيب والدو بمس عميق فى نفسه قلب اسلوب حياته رأساً على عقب : فقرر سلوك نفس الدرب مثل الكسيس فقفل عائداً إلى داره واستدعى زوجته وخيرها بين أمرين : إما رفقته على درب الفقر أو ميراث ثروته ، وكان طبيعياً أن تؤثر الزوجة ميراثه الضخم .

ولكن والدو سخر منها وعنفها على تمسكها بزيف هذا العالم ، ثم بدأ فى توزيع كل ما يملك على الفقراء والمعوزين ، ورد لكل من تقاضى منه ديناً حقه كاملاً معلناً ندمه على الكسب الحرام بالربا . وهكذا قضى والدو على كل ما كان يملكه من مال ومتاع ، ثم ارتدى مسوح النسك وراح يطرق بوابات الأديار يشحذ كسرة من الخبز يقات عليها .

جن جنون الزوجة ، فهرعت إلى أسقف ليون تشكو إليه حال زوجها ومسلكه الشائن وتطلب منه أن يرده إلى صوابه . وكان والدو ضئيل الثقافة ، ولا يعرف اللسان اللاتينى ، فطلب من أحد أصدقائه المتعلمين أن يترجم له الكتاب المقدس إلى اللغة الفرنسية الدارجة . وتلقف الترجمة وأخذ يجوب القرى والكفور يعظ الناس بمحتواها ، مبشراً بضرورة العودة إلى حياة البساطة الأولى . وتراحم الناس يشاهدون هذا التاجر الشرى الذى وزع ثروته على الفقراء مؤثراً « غنى الروح على كنوز الجسد » فانضم الكثيرون إلى موكبه وراحوا ينشرون آراءه .

وانزعج اسقف ليون لأن بعض ماورد فى الترجمة الفرنسية للكتاب المقدس عن اللاتينية كان محرفاً ومغلوطاً ، فأمر والدو وأتباعه بعدم الوعظ مطلقاً . ولكن والدو لم يهتم بتحذيرات الاسقف ، فطرده الاسقف وأعوانة كلية من مدينة ليون . وفى سنة ١١٧٩ م سافر وفد من اتباع والدو إلى روما وقابلوا البابا

اسكندر الثالث يشكون إليه اسقف ليون . ومع أن البابا سمح لهم بحياة الزهد التى قد اختاروها طواعية ، إلا أنه أصر على عدم إقدامهم على الوعظ باللسان الفرنسى ، ثم أحالهم إلى اسقف انجليزى اسمه والترماب لعله يثنيهم عن آرائهم ومسلكتهم .

على أنه بعد قليل انعقد مجمع دينى فى فيرونا وأصدر قراراً بتجريم جماعة والدو بتهمة « الهرطقة » . وأمام هذا تجمع اتباع والدو فى مدينة ألبى (Albi) فى الجنوب الفرنسى واتخذوها مركزاً لنشاطهم ، ومن هذه المدينة اشتق اسمهم الجديد « الألبجنزيون » (Albigenois) ، وكان أول من أطلق عليهم هذه الكنية كاتب معاصر يدعى بطرس دى فوه دى سرنای فى مؤلف له بعنوان « تاريخ الألبجنزيين » (١١٢) .

وأتباع والدو من الاطهار درجتان : الأولى تضم « الكاملين » (Perfecti) وهم الذين يراعون فى حياتهم الزهد والطهر الكاملين ، وهم يشتهون الموت ولا ينزعجون من الاضطهاد ، وهم على اعتقاد بأنهم عقب وفاتهم تنفصل أرواحهم النقية عن الجسد وتتصل بالروح الأعلى والكلى الخالص فى ملكوت السموات . أما الدرجة الثانية فتألف من « المصدقين » (Credentes) وهم يجاهدون على درب الرجاء أملاً فى الوصول إلى درجة الكمال مرحلة تلو الأخرى . وكان هؤلاء وأولاء يضعون ما يملكون فى شركة لصالح الجماعة جميعاً ، لكل نصيب يساوى نصيب الآخر . وقد تمسلك الجميع بتعاليم الزهد والطهارة وحفظوا نصوصها وتعاليمها عن ظهر قلب . وهم متواضعون فى الحديث ، وملبسهم بسيط ، ولا يكذبون أو يحلفون ، ولا يقبلون العمل بالتجارة خوفاً من شبهة الربح الحرام . ومبدأهم الاساسى : « بقرق جبينك تأكل خبزك

« ، واشتهر عنهم العمل بصناعة الأحذية وإصلاحها ، وهم لا يفرطون فى الطعام ولا يترددون على الحانات أو المراقص ، ويكثرون من المطالعة والدرس والصلاة ، كما وأنهم يتحاشون استخدام الألفاظ السوقية والجلوس فى مجالس النمامين . ويتم لقاءهم عادة فى مغارب اليوم عند أحد « الإخوة » للدرس والصلاة ، وإن أبدى أحدهم تعثرا فى فهم الدرس ، شد المعلم من أزره بقوله : « تعلم فقط كلمة واحدة كل يوم ، وبذلك تتعلم ٣٦٠ كلمة على مدار العام ، ويا لذلك من بركة لنا جميعا ولك أنت أيضا . ولقد راجت أفكار والدو بوجه خاص فى الجنوب الفرنسى - بلاد لانج دوك (Langue d' Oc) التى يفصلها نهر اللوار عن بلاد لانج دى وى (Langue d' Oi) فى الشمال . والواقع أن بلاد الجنوب الفرنسى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر كانت تتمتع بالرخاء وبمناخ من الحرية دونا عن سائر بلدان أوروبا ، وذلك بسبب انتعاش المدن الجديدة فى ناربون ، وتولوز ، وألبى ، وبيزيه ، وكركاسون . وكان كونتات تلك المناطق من النبلاء المستنيرين الذين شجعوا الآداب وفتحوا دورهم للشعراء والمنشدين الجوالين . ومن ثم ظهرت فى الجنوب الفرنسى نزعات للتحرر والانعتاق من تزمّت الكنيسة وضغوط الملكية الاقطاعية . وكان أتباع والدو موضع الاحترام نظراً لحسن سيرتهم ، وطلاوة لسانهم حتى أن الناس أطلقوا عليهم « القوم الطيبين » (Bos homes) بلغة العصر .

وفى سنة ١٢٠٢ م تم لقاء بين اتباع والدو وبين الفئات الساخطة فى الشمال الايطالى الذين عرفوا باسم « المتضعين » (Humiliati) ، ومن هذه الجماعة الايطالية تعلم اتابع والدو أنه لا يليق برجل الدين الآثم أن يعظ الناس

أو أن يمارس الأسرار الدينية ، لأن فاقد الطهر لا يعطى طهراً . وعليه فقد نادوا بأنه ليس هنا لك ثمة ما يمنع من أن يعترف المصلون لرجل علماني صالح بدلاً من الاعتراف لكاهن خاطيء . على أنه في سنة ١٢١٨ م تم لقاء آخر بين الجماعتين ونظراً لتشدد أتباع والدو في ضرورة « التبتل » وقع خلاف بين الفئتين وافتترقتا عند بلدة برغامو . وقد اشتط نفر من اتباع والدو في الزهد فأحجموا عن العمل تماماً ، مكتفين بما قد يجود به عليهم الكرام من صدقات . واعتقد هؤلاء أن لا قيامة للجسد بعد الموت ، إذ كيف تكون قيامة لفساد مادي ؟ .

وقد ظهر « الأطهار » ايضاً في بلاد فلاندرز ، وإن كان ظهورهم قد جاء متأخراً عن أقرانهم في لومبارديا والجنوب الفرنسي . ومجتمع فلاندرز كان آنذاك مؤلفاً من طبقتين : الأولى طبقة النبلاء وأصحاب مصانع الصوف ، والثانية طبقة العمال والنساجين (Textores) ، ومن هذا الاسم الاخير اقتربت جماعة « الأطهار » في فلاندرز بعمال النسيج ، وقد نادى النساجون بضرورة تحقيق العدالة على وجه الأرض ، واستنكروا الكهانة وانفاق الأموال الباهظة على بناء الكاتدرائيات ، محتجين بأن الرب رب القلوب النقية ومعين السواعد الكادحة وليس رب بنايات وتماثيل زينة . والنساجون بعد هذا لا يقرون مبدأ الحرب ، ويفضلون اسلوب البساطة وحياة الزهد . وتنسب الطائفة الباكرة من أطهار فلاندرز إلى لامبرت لى بيج (Le Begue) أى « المتلعثم » وهو أصلاً من بلدة لياج ، وقد قام سنة ١١٨٠ م بشن حملة ضد مفاسد رجال الدين ، فألقى اسقف البلدة القبض عليه ثم أمر بإعدامه ، وقيل أنه قبل إعدامه كان قد

جمع عدداً من فضليات النساء وأنزلهن في دار للأطهار بعيداً عن شرور وغوايات العالم ، وعرفت هذه الدار باسم « بجوان » (Beguin) وهي كلمة مشتقة من لفظة « بيج » (Beg) السكسونية ومعناها مجموعة نسائية تلتزم مريداتها بحياة الطهر. وأهم واجبات هذه الجماعة القيام بالتمريض واستضافة الغرباء وأبناء السبيل ، وكن يعتقدن أن الخضوع لسلطة البشر إثم كبير ، لأن من تخل به روح الله لا ينبغي له أن يخضع لسلطان عبيد الله ولا للكنيسة ؛ « فحيثما حلت روح الله انتفت العبودية للبشر وحلت الحرية بتمامها » .

وسرعان ما حذا رجال فلاندرز حذو نساؤها ، فأقاموا بيوتات مثيلة عرفت باسم « بجرديان » (Begharden) ، عاش أفرادها على الزهد والعمل بسواعدهم ، غير أن نفرا منهم ملوا هذه الحياة ، فهجروا الدار وهاموا على وجوههم في أصقاع أوروبا يبشرون بالمسكنة والزهد ، وانتشرت تعاليمهم في وادي الراين حتى تمركزوا في القرن الثالث عشر في بلدان كولون ، وميتز ، وستراسبورج ، ومينز . ويتصل بهذه الجماعات طائفة أخرى ظهرت في بلدة أنتورب ، وعرفت باسم « لولارد » (سنة ١٣٠٠ م) ، وقد اهتمت هذه الجماعة بالعناية بالمرضى والمجانين ودفن الفقراء ، وكانوا يحصلون على المال اللازم لتقديم خدماتهم المجانية من عرق جبينهم أو من التسول . وينسب هؤلاء إلى زعيمهم لولارد والتر ، الذي تم القبض عليه سنة ١٣٢٧ ، وعرض لعذاب شديد ، ولكن عزمه لم يهتز . وعندما أحرق لم ينبس بكلمة واحدة تنم عن خوف أو جزع .

وفي هذا المنعطف التاريخي ظهر العبقري دانتي الليجيبيري (١٢٦٥ -

(١٣٢١) ابن فلورنسا الأعظم . وقد أقمحت فلورنسا بسكانها القليلين (٣,٠٠٠ نسمة) فى دائرة الصراع المستعرب بين البابوية والامبراطورية . وأختار الفلورنسيون مناصرة حزب الجويلف المعادى للامبراطورية الألمانية ، غير أن الجويلفيين سرعان ما انقسموا إلى فريقين عرفا « بالبيض والسود » وانتصر السود على البيض بمعونة البابوية والملكية الفرنسية . وكان من ضحايا هذا الصراع الشاعر دانتي نفسه الذى نفى خارج وطنه .

وفى منفاه بدأ دانتي اخراج أعظم ما عرفه الغرب الأوروبى من شعر فى ملحمة « الكوميديا الإلهية » والكوميديا مستوحاة من الكتاب السادس من « انياد » الشاعر الفذ فرجيل حيث تظهر ديدو ملكة قرطاج لحبيبها البطل اينياس وهو يتحسس طريقة فى العالم السفلى . ومن هذا النبع استلهم دانتي ملحمة بلغة ايطالية عذبة وبأوزان موسيقية لا مثيل لها ، إلى جانب خيال خصب ولوحات تشكيلية أثارت ذهول المعاصرين والمحدثين على حد سواء . وسواء فى الجحيم أو المطهر أو على أعتاب الفردوس يصور دانتي شخوصاً من صميم سجلات التاريخ ، فنقابل آخيل وتريزياس وسانت فرانسيس ثم بياتريس الحب الضائع لدانتي نفسه . كما وأن السطور الشعرية التى نطالعها من عواصف تجتاح الغابة ، ومن ضفادع تقفز إلى جداول الماء من جوف الأفاعي ، ومن زواحف تمرق على الدرب كومضة البرق ، ومن أجساد عارية تتصبب زيتا ، ومن أم تحتضن وليدها لتنجيه من سكير النار - كل هذه الصور الشعرية تنم عن عبقرية متفردة . كذلك نقابل فى الجحيم عدداً وافراً من البابوات الذين اتخذوا من الدين قناعاً لمداواة فسادهم ، ونقابل أيضاً السيدة النبيلة فرانسيسكا التى

تعترف لدانتى أنها بعد أن طالعت قصة لانسلوت وعلاقته الأثمة مع جونيثير زوجة الملك آرثر أقدمت على الخطيئة وهى فى كامل وعيها وألقت بنفسها طواعية فى أحضان عشيقها باولو دون أن تشعر بوخز ضمير ، ومن ثم فهى ليست نادمة على فعلتها حتى فى قلب النار ! .

والى جانب الكوميديا أخرج دانتى كتابا باللغة اللاتينية بعنوان « عن الملكية » (De monarchia) ، وفيه يدعو دانتى إلى نظام حكم عالمى يفوض فيه الحاكم من قبل السماء لارساء قواعد العدل الالهى والسلام الأرضى ، شريطة ألا يكون للبابوية فى هذا النظام أى دخل أو هيمنة من قريب أو بعيد .

ولهذا فإن البابا يوحنا الثانى والعشرين قد أمر بإحراق هذا الكتاب الذى يجرح فيه دانتى منصب البابوية وصلاحياتها . كما وأن دانتى هنا يهاجم البابوية وكنيسة روما لأن كرادلتها وسيدهم قد تخلوا عن البساطة الأولى للإيمان وغرقوا حتى آذانهم فى مستنقع الفجور والدعة .

ولذا فإن دانتى فى الانشودة الحادية عشرة فى فردوس الكوميديا يروى مقابلة مع القديس توما الاكوينى صاحب سيرة القديس فرانسيس من اسيسى الذى هجر متاع العالم واختار حياة الزهد والتقشف والعفة . ويؤكد دانتى بأن الخير كل الخير للإنسان الفرد حيثما كان موقعه أن يزين حياته بأحلى الفضائل وهى « فضيلة الفقر » (Lady Poverty) .

أمام هذه الاراء والتعاليم التى نادى بها الأطهار ، شعرت الكنيسة الرومانية وكبار رجال الدين فى أوروبا أن هذه الجماعات تمثل تهديداً خطيراً لكيانهم ، بل وتلغى مبررات وجودهم أساساً . وكان طبيعياً أن تنزعج الدوائر الدينية فى

أوروبا من ذلك كله ، فبادرت باستخدام اسلحتها التقليدية من قرارات اللعنة والحرمان والقطع . ولما أثبتت هذه السبل عدم جدواها أقامت محاكم التفتيش لمحاكمة واحراق هؤلاء الأطهار بتهمة الهرطقة . وفى آخر المطاف لجأت البابوية إلى شن « حرب صليبية » بقصد استئصال شأفتهم .

وقد لا يجد المرء غضاضة إزاء ردود فعل رجال الدين فى الدفاع عن أنفسهم ومؤسساتهم لو أنهم اعطوا المثل الطيب أو القدوة الحسنة فى أسلوب حياتهم كرجال دين ، ولكن واقع الأمور يشير إلى عكس ذلك تماماً ؛ فلقد وصلت البابوية إلى الدرك الأدنى فى وحل الرشوة والدعة والفسجور ، وبات الفاتيكان بيت سوء . والأدلة على ما نذهب إليه لا تحصى ، ولكن يكفى أن نشير فى هذا المقام إلى طرف من سيرة واحد من البابوات هو اسكندر السادس بورجيا الذى تولى العرش البابوى سنة ١٤٩٢ م . وهو من اصل اسباني ، وكان عمه البابا كالكستوس (١٤٥٥ - ١٤٥٨ م) قد عينه كاردينالا ، ولما توفى العم باع بورجيا صوته بمبلغ دسم للبابا بيوس الثانى ، وفعل نفس الشئ مع خلفه انوسنت الثامن ، وأخيراً فى سنة ١٤٩٢ م عندما نضجت الثمرة اعتلى هو العرش باسم اسكندر السادس .

وقد عرف عن بورجيا أنه لم يكن يطيق حضور صلوات القداسات ، وإن اضطر إلى الحضور فإن القائم بالصلاة يختصرها للغاية فلا تتعدى نصف الساعة .

وكان بورجيا شديد الغرام بالنساء ، وكان يحيط نفسه بالراقصات ، ويروى المعاصرون أنه « لم يكن لينام فى فراشه بمفرده » (١١٤) . وكان لبورجيا أبناء

وبنات لقطاع كثيرون ، خاصة من امرأة تدعى فانوتزا التى أنجبت كلا من قيصر، وجان ، ولوكريس ، وجوفرى . كما رزق من أخرى بكل من جرومين ، وايزبيل ، وبياروليس ، ولورا . ومن خليلاته أيضا جوليا فرانيزى ، وقد أورد الكاتب المعاصر انفسورا (Infessura) فضائح عديدة تتصل ببورجيا وزوجه جوليا وابنته لوكريس ، خاصة يوم زواج هذه الابنة من جان سفورزا (١١٥) .

وفى افة السيمونية وصل الحد ببورجيا إلى بيع مناصب الكرادلة بالمال ،وقد بلغت الرشوة للحصول على هذا المنصب الدينى الكبير مبلغ مليون ومائتى الف قطعة من الذهب . ولقد حفر المعاصرون هجاء ساخراً على جذع شجرة فى بلدة باسكونيو تشهر بنزوات بورجيا ، ويجره روما إلى درك الجحيم السفلى مثلما فعل من قبل البابا يوحنا الحادى عشر والطفاه القدامى من أمثال تاركوينوس ونبيرون .وقد تفنن بورجيا فى الاستيلاء على أموال وأملاك الاساقفة الاغنياء عقب وفاتهم ،ولم يكن يتورع عن دس السم لمن يريد التخلص منه من معارفه أو من خصومه لكى يرث أملاكهم بالتزيف ، ولم يسلم من يده رجل كهنوت أو علمانى فى روما . ولقد ذاع للسم الخاص الذى كان يستخدمه والذي أعده له أمهر الصيادلة فى روما اسم خاص هو « كانتاريللا » (Canta-rela) .

ولكل ظالم نهاية : فقد أعد بورجيا وابنه قيصر السم للتخلص من الكاردينال هادريان ، ولكن القدر تدخل عندما شرب الكاردينال - بطريق الخطأ من الكأس السليم ، وتجرع البابا وابنه من الكؤوس المسمومة فكانت نهايتهما جزاءً وفاقاً (١١٦) .

إن المسئول عن قيام محاكم التفتيش (Inquisition) فى أوربا هى الكنيسة الرومانية ، وقد بدأت الفكرة فى عهد البابا لوسيوس الثالث ثم اكتملت فى عهد البابا انوسنت الثالث فى المجمع اللاتيرانى الرابع سنة ١٢١٥ م . وتتألف محكمة التفتيش من : المفتش العام ، والنوتارى (Notarius) ، ونائب المفتش ، والمسجل القانونى ، والمستشار ، والحليف (Socius) ، والحلفون ، وعدد من الضباط وحاملى الرسائل والمخبرين (Exploratores) والسجانين . وللمحكمة أن تستخدم كل الاساليب التى تراها للوصول إلى أهدافها ، من تعذيب (Vexatio) للمتهم للحصول منه على الاعتراف بالهرطقة ، ومن احتجاز المتهم فى سجن خشن ضيق مقيداً بالأغلال ومحروماً من الطعام والشراب ، والنوم فى زنزانة خائفة لاتسمح له حتى بمجرد الوقوف على القدم ، وقد عرفت هذه الزنزانات باسم « السجن الخشن » (Carcer Durus) ، ولقد جرى المثل على لسان رجال محاكم التفتيش بأن « البلاء يفتح الأفواه المغلقة » . ومن أساليب التعذيب أيضاً تعليق المتهم من يديه ورجليه على الحائط (Chevalet) ، ومنها رفع المتهم إلى ربوة عالية ثم دفعه إلى أسفل (Estropade) ، ومنها أيضاً الكى بشعلة نار ملتهبة ، وأيضاً طرح المتهم على طاولة فى وضع مثلث مع ربطه بحبل معقود يشمل اعضاء جسمه ، وينتهى الحبل برافعة لرضضة أعضاء الجسد الموثوق وتمزيقها إربا . ومن الوسائل البشعة أيضاً تعريض قدمى المتهم بعد دهنها بالشحم إلى نار ملتهبة . والغريب بعد هذا كله أن المحكمة تسجل فى سجلاتها أن « المتهم قد أدلى باعترافاته طواعية » . وبعد التعذيب والاعتراف تصدر المحكمة حكمها على المتهم فى مكان عام من البلدة التى

ينتمى إليها المتهم وذلك بفهم المفتش العام نفسه ، وكانت أغلب الأحكام الإعدام حرقاً ، وأقلها بالسجن المؤبد . وقد عرف في بعض الحالات أن فرض عل أصحابها ارتداء زى خاص وقت النطق بالحكم ، ففي حالة احراق جان دارك الفرنسية سنة ١٤٣١ م مثلاً ، كان على الفتاة ان تضع على رأسها غطاء نقشت عليه العبارة التالية « هرطقية عاصية وساحرة شيطانية مرتدة » .

ولقد أقر الفقهاء اللاهوتيون مثل جراتيان ، وروفينوس ، ويوحنا التيوتوني عقوبة الموت للهراطقة ، وسار على فتواهم تلك كل من كبير اساقفة ريمز ، وكونت فلاندرز ، وملوك فرنسا وإنجلترا ، وكبار الكونتات في فرنسا والمانيا ، وملوك اراغون ، حتى أقر الاعداء رسمياً في مجمع اللاتيران سنة ١٢١٥ م على عهد البابا انوسنت الثالث .

وقد أبدى البابا انوسنت الثالث اهتماماً خاصاً لقمع جماعة والدو في الجنوب الفرنسي ، فبدأ بمحاولة كسب تأييد راييموند السادس كونت تولوز لجانبه ضد الألبجنزيين ، ولكن راييموند كان متعاطفاً مع هذه الجماعة لا حباً في مبادئها وإنما نكاية في نفوذ كبار رجال الدين المتزايد في أراضيهم . التفت البابا إلى فيليب أغسطس ملك فرنسا للتدخل على رأس « حملة صليبية » ضد الألبجنزيين في الجنوب الفرنسي ، ولكن فيليب كان منهمكاً في حربه ضد يوحنا ملك الانجليز حول دوقية نورمانديا . ولذا فإن البابا فعل ما فعله من قبل البابا أوربان الثاني في مؤتمر كليرمونت سنة ١٠٩٥ م ، فأعلن في ١٥ يناير ١٢٠٨ م عن عزمه شن حملة صليبية ضد هراطقة الجنوب الفرنسي ووعده من يشارك في هذه الحملة بنصيب من الغنائم من أملاك الهراطقة إلى جانب وعد

بغفران الخطايا . ولكن الملك الفرنسى وجد فى هذا المسلك البابوى تحرشاً ببلاده ، فكتب إلى البابا موضحاً له أنه ليس من حقه شن هذه الحملة إلا بعد أن يصدر إدانة صريحة للكونت رايمود السادس بالهرطقة ، خاصة وأن رايمود واحد من أفصال الملك ولا يجوز الحكم بمصادرة أملاكه أو نهبها كغنيمة إلا بعد الحصول على موافقة التاج الفرنسى على ذلك (١١٧) .

أوفد البابا انوسنت الثالث مندوباً عنه اسمه بطرس دى كاستلينو إلى الجنوب الفرنسى ، ولكن الكونت رايمود اعترض على مهمته إلى بلاده ، فأصدر المندوب قراراً بالحرمان ضد رايمود ثم قراراً بالقطع (Interdict) ضد أملاكه .

إستاء رايمود من موقف المندوب البابوى ، فتسلل واحد من اتباع رايمود واغتيال المندوب البابوى على مقربة من بلدة سان جيل ، وهنا دعا البابا انوسنت الثالث علانية إلى حملة صليبية ضد الجنوب الفرنسى . سارع الآلاف من الفرسان المفلسين فى الشمال الفرنسى يلتفون حول اللواء البابوى فى هذه الصليبية أملاً فى الاستيلاء على ثروات الجنوب الفرنسى وغنائمه . وأسقط الكونت رايمود فى يده ، فبادر يعلن الندم على مقتل المندوب البابوى وحمل الصليب ليحارب بنفسه ضد الهراطقة لارضاء البابا . ولكن انوسنت الثالث أهمله تماماً وأمر رجال الحملة بغزو أملاك رايمود .

تحركت الحملة الصليبية بقيادة نبيل من رجالات باريس اسمه سيمون دى مونت فورت إلى جانب المندوب البابوى الجديد ارنولد امالك . وأقدم رجال الحملة على مذابح رهيبة اشهرها ما تم فى حصار وسقوط بلدة بيزيه إذ قتل

الصليبيون ١٥,٠٠٠ من سكانها دفعة واحدة^(١١٨) . ونهبت وسلبت مدائن كركاسون وناربون دون رحمة أو هوادة .. كذلك كافىء المندوب البابوى نفسه بمنصب كبير اساقفة ناربون ، وهى أغنى اسقفيات البلاد .

التفت الكونت رايموند إلى حليفة بطرس ملك أراغون يستنجد به ، ولكن سيمون دى مونت فورت ألحق الهزيمة بالملك الأراغونى وقتله فى معركة ميريه (Muret) سنة ١٢١٣ م . ثم انعقد مجمع اللاتيران سنة ١٢١٥ م برئاسة البابا انوسنت الثالث ، وفيه تقرر ادانة رايموند السادس كونت تولوز بالهرطقة ومصادرة أملاكه ، كما قرر المجتمع توزيع الأراضى التى استولى عليها الصليبيون كغنائم على قواد هذه الحملة .

وجد الملك الفرنسى فيليب اغسطس نفسه فى موقف حرج ، فاضطر إلى الاعتراف بالأمر الواقع ، وإلى أن يقبل سيمون قائد الحملة كفصل من أفصاله على أن يقطعه مناطق بيزيه وتولوز وكركاسون . أما الكونت رايموند فقد أصيب بياس قاتل ، فترك الأمور إلى ابنه ووريثه رايموند السابع واعتزل الحياة . وكان الوريث شابا جسوراً عنيداً ، فجمع رجاله وهجم على تولوز ، وعند اسوارها تم اغتيال سيمون دى مونت فورت .

وضربت الفوضى أطنابها فى الجنوب الفرنسى ، واضطر الملك فيليب إلى أن يرسل ابنه لويس الثامن على رأس جيش لتصفية الموقف المعقد ، وزوده بعدد من الاساقفة الفرنسيين . أقام لويس معسكره قرب بلدة لاجنيه (Agenais "L) . ثم هجم على مناطق مارماند ودمرها وذبح سكانها ، ولكن مدينة تولوز ظلت صامدة منيعة فى وجه لويس وفرسان شمالى فرنسا .

وشعر لويس بالملل والفتور فقرر العودة برجاله إلى باريس ، وبعدها خرج الأطنهار الالبجنزيون من مخابثهم فى الجبال ، والتفوا حول رايموند السابع .

توفى فيليب اغسطس فخلفه على عرش فرنسا ابنه لويس الثامن ، ثم ما لبث أن توفى البابا انوسنت الثالث (١٢١٦ م) فخلفه على العرش البابوى البابا هونوريوس الثالث . وكان طبيعيا أن ينزل البابا الجديد قرارا بالحرمان ضد الكونت رايموند السابع استمراراً فى السياسة التى بدأها سلفه الراحل ، إلى جانب قرار بمصادرة أملاك الكونت ونقلها إلى حوزة التاج الفرنسى .

وفى مقابل هذه المكافأة السخية أخذ الملك لويس الثامن على عاتقه مهمة البابوية فى تثبيت دعائم محاكم التفتيش فى الجنوب الفرنسى لقمع الألبجنزيين . ولكى يبالغ الملك فى إرضاء البابا قرر أيضا اقامة محاكم التفتيش فى شمال فرنسا ، وكانت هذه المرة الأولى التى يصدق فيها القانون الفرنسى على عقاب الهرطقة بالإحراق بالنار (١١٩) .

بعد هذا أمر لويس الثامن جيوشه بالاستيلاء على مدينة أفنيون بسبب رفضها عبور الصليبيين لأراضيها نحو الجنوب ، فدمرت اسواره وانتقم من سكانها شر انتقام . ثم عين لويس مندوبين عنه برتبة سنيكال (Senchal) للاشراف على الأراضي المصادرة فى الجنوب الفرنسى . وانقض فرسان الشمال على مدن الجنوب الواحدة بعد الأخرى نهبا وسلبا وتقتيلا تحت شعار الصليب ووعيد محاكم التفتيش .

وفى عهد الملك لويس التاسع ووالدته القشتالية بلانش الوصية على العرش ، قسمت بلاد الجنوب إلى اقطاعيات فاز منها البابا بنصيب الاسد فى ماركيزية

بروفانس ، كما حصل التاج الفرنسى على الأراضى الواقعة بين نهر الرون والبحر الأبيض المتوسط . والغريب فى الأمر أن الكونت رايموند السابع قد تحول عن موقفه وانضم إلى قوى العدوان ضد الألبجنزيين بدلاً من الدفاع عنهم . وفى سنة ١٢٢٣ م سمح رايموند السابع لمحاكم التفتيش بممارسة نشاطها فى قلب اراضيه ، وفى سنة ١٢٤٩ م أمر بإحراق ثمانين من الألبجنزيين بتهمة الهرطقة فى بلدة اجين (Agen) .

تعكس الآداب الشعبية لهذه الفترة العصبية مشاعر السخط والغضب لدى بسطاء الناس إلى حد تسفيهم لطقوس الكنيسة المنافقة ، ونسوق هنا مثلاً واحداً على سبيل المثال لا الحصر :

البعض بات يرفض العماد

البعض كشف عن الشكوى لرب العباد

محاكم الكنيسة تحرق القوم إلى رماد

النار تصلى تدمر الأبدان والأجساد

وكم من رأس برىء قطفت قبل الميعاد « (١٢٠) .

هذا وقد كان لويس التاسع اسوأ حاكم علمانى شجع على ترسيخ أقدام محاكم التفتيش فى فرنسا لكى يرضى معاصريه من البابوات وهم جريجورى التاسع وانوسنت الرابع .

وقد وكل لويس مهمة التفتيش والمحاكمة إلى رهبان الدومنيكان . الذين أربوا صغار الكهنة وبسطاء الناس بجبروتهم وبالتكشير عن أنيابهم ، وأرسلوا إلى

المحرقة أعداداً لا تحصى بتهمة السحر تارة والهرطقة أخرى . وقد ذكرنا فى فصل سابق كيف بطشت محاكم التفتيش بالرهبان الداوية على عهد الملك فيليب الرابع ، وكيف اقتيد رئيس الداوية نفسه جاك دى موليه وتلاميذه للمحاكمة سنة ١٣١٤ م ، وتم إحراقهم جميعاً بتهمة ملفقة . وفى فترة الأسر البابلى للبابوية فى أفنيون ، تحالف التاج الفرنسى مع البابوية فى تليفق الإتهامات ضد العديد من الأبرياء إما لمصادرة أملاكهم أو تصفيتهم جسدياً ، وهذه الرذيلة قد ظلت واحدة من أسوأ رذائل الملكية الفرنسية حتى قيام ثورتها الكبرى سنة ١٧٨٩ م .

وحتى جماعة الرهبان الفرنسيسكان لم تنج من بطش محاكم التفتيش ، فعندما نادى فريق منهم بضرورة الرجوع بالعقيدة إلى حياة البساطة الأولى ، أمر البابا يوحنا الثانى والعشرون (١٣١٦ - ١٣٣٤ م) بتقديمهم إلى محاكم التفتيش ، وسار على نفس السياسة البابا بندكت الثانى عشر من بعده .

وإذا انتقلنا إلى ألمانيا ، نجد أن محاكم التفتيش قد بدأت عندما أصدر البابا أنوسنت الثالث قراراً سنة ١١٩٨ م بأن يسلم أتباع والدو فى بلدة متز كتبهم باللغة المحلية إلى السلطات الكنسية لإحراقها ، ولما امتنع الوالديون عن تسليم هذه الكتب أوفد البابا ثلاثة من رجاله قاموا بجمع هذه الكتب قسراً ثم تم إحراقها .

وبعد ذلك ببضع سنين اضطلع الأسقف برتراند فى بلدة متز بحملة ترشيدية لرد الوالديين عن معتقداتهم ، ولكنه فشل فى مهمته . وفى سنة ١٢١٣ م اتهمت السلطات الكنسية جماعة من الأطهار الألمان بشيوعية العيش

والجنس ، وقامت بشنق عدد منهم ، وفى سنة ١٢٢٩ م اتخذت اجراءات قمع أخرى ضد أتباع هذه الطائفة فى ستراسبورج . ثم عين البابا جريجورى التاسع مفتشاً كنسياً عاماً على ألمانيا هو كونراد من ماربورج ، وزوده بصلاحيات كبيرة لشن حملة إبادة ضد الهرطقة الألمان .

وكان كونراد هذا رجلاً جباراً ، جر الآلاف من الأبرياء إلى المشنقة أو المحرقة ، وكان يكفى عنده أن يشى جار بجاره بتهمة الهرطقة فيجر أهل البيت جميعاً إلى المشانق . وقد بلغ الشطط بهذا الرجل إلى حد أنه لفق اتهامات باطلة ضد الكثيرين من خصومه ، ومن بينهم كونت أرنزبرج ، وكونت لوز (Looz) ، وكوين ساين (Sayn) فى منطقة تريث . إلا أن النبلاء المتهمين طلبوا من كبير أساقفة ميتز أن يعقد مجلساً لفحص قضاياهم ، وتدخل الملك الألماني نفسه فى الأمر . وفى المجمع الذى عقد للنظر فى هذه القضية ، فشل المفتش كونراد فى أن يبرز أدلة قاطعة تدین هؤلاء النبلاء المتهمين ، بل أن بعض شهود الإثبات قد تراجعوا عن شهادتهم الأولى وأعلنوا أنهم أجبروا تحت التهديد والوعيد على تلفيق هذه الشهادة . وهاج المجمع وطالب البعض محاكمة كونراد نفسه ، ولكنه قاطع المجمع ، وراح يدعو إلى شن « حملة صليبية » ضد خصومه بتهمة الهرطقة فى شوارع ميتز . ولما أن تعثر مشروعه قفل راجعاً هو وزبائنته إلى بلدة مربرورج ، وعند أطراف هذه المدينة هجم عليه بعض النبلاء وأوقعوه به فى كمين نصبوه له ثم قتلوه (١٢٣٣م) .

ونسلم أيضاً عن نشاط الوالديين فى مرتفعات سوايبا ويساو فى سنة ١٢٤٨ م ، وقد بلغ عدد المدارس الممعة التى كان يتردد عليها أبناء الوالديين

فى بساو إحدى وأربعين مدرسة ، وكان أغلبهم من أبناء العمال والفلاحين .
وفى سنة ١٣١٨ م قام الأطهار فى بلدة كرمز (Krems) بإغتيال المفتش
الدومنيكانى أرنولد ، وفى سنة ١٣٢٩م ردت محاكم التفتيش بإحراق ستة
وثلاثين من الأطهار فى بلدة بنجن (Bingen) ، وفى سنة ١٣٥٧م قبض على
ألف من الولدانين وأودعوا السجن فى بلدة ستاير (Steyer) ثم أعدم مائة
منهم . وقد نشطت محاكم التفتيش أيضاً فى تصيد أفراد جماعتى « النسوة
الطاهرات » و « الرجال الأطهار » من أتباع البنجوان والبيجاردان فى ألمانيا
لإستئصال شأفتهم . وكان هذا تكملة للحملة التى شنت ضد هاتين
الجماعتين فى باريس فى نفس الفترة : فقد قبض على سيدة تدعى مارجريت
بوريت وأحرقت حية ، فتشردت جماعتها وألقى بالفتيات فى قارعة الطريق ،
وقيل إن عدداً منهن قد اضطروا أمام شطف العيش إلى احتراف البغاء لسد
رقمهن ! .

وإذا انتقلنا إلى أسبانيا نجد صورة أخرى من صور القمع والاضطهاد
والتعصب المقيت ، فلقد اكتوى مسلمو أسبانيا بنار الاضطهاد بدءاً من عهد
فرديناند وإيزابيلا صاحبي أرغونة وقشتالة سنة ١٤٩٢ م حتى ٢٢ سبتمبر
١٦٠٩م وهو تاريخ رحيل آخر المغاربة فراراً من عذاب أسبانيا .

ولم يكن الأمر قاصراً على مسلمى أسبانيا ، وإنما شمل نشاط محاكم
التفتيش كل المخالفين فى رأى من الأسبان أنفسهم . وقد اتخذت محاكم
التفتيش فى أسبانيا من أشيلية مقرأ لها ، واضطلع رهبان الدومنيكان بأمرها فى
أول الأمر .

ومع أن هذه المحاكم من الناحية النظرية كانت تخضع للتاج الأسباني ، إلا أن المفتش العام كان يخضع عند تعيينه لهذا المنصب لموافقة البابوية . ولقد قاوم الأسبان ظلم محاكم التفتيش مراراً وتكراراً ، فقامت ثورة فى قرطبة وأيدها بعض النبلاء ومجلس البلدية ، واضطرت السلطات إلى نقل المفتش العام . ثم اندلعت ثورات مشابهة فى أرغون وقلانسيا وقطالونيا ، أما فى سرقوسة فقد اغتيل المفتش العام فى قلب كاتدرائية المدينة . ويرجع قيام هذه الثورات إلى شعور الأسبان بأن « الهرطقة » صارت « دمغة » يدان بها الناس لأجل مصادرة أملاكهم وضمها إلى خزانة الملك أو إلى جيوب كبار رجال الدين ، وأدرك الناس أن التاج والكنيسة قد تأمرا ضد الشعب الأمن تحت قناع الدين .

واستمر التعاون بين التاج الأسباني والبابوية إلى أن جاء إلى الحكم الملك فيليب الثانى وريث شارل الخامس ، (١٥٥١ - ١٥٦٠ م) الذى تحرش بمملكة نابلى وجزيرة صقلية فأغضب بذلك البابا بولس الرابع كارافا الذى كان أصلاً من مواطنى نابلى . وراح كارافا يصب جام غضبه على الملك الأسباني فأصدر ضده قراراً بالحرمان إلى أن توسط دوق البندقية فى الأمر ، وتم الصلح بين البابا والملك . ولكى يؤمن فيليب الثانى موقفه ، فإنه سافر إلى إنجلترا فى ٢٠ مارس ١٥٥٧ م وتزوج من الملكة مارى ليضمن وقوف إنجلترا معه فى صراعه ضد فرنسا وحليفاتها البابوية . وكان فيليب قد عين كاهن اعترافه بورتولوميو دى كارانزا فى منصب كبير اساقفة طليطلة . وقد اشتهر كارانزا بغزارة علمه وقوة بيانه ، وكان قد سافر إلى إنجلترا ودخل فى حوار ودى مع دعاة حركة الإصلاح من الانجليز . ولما أن وصلت الأنباء إلى البلاط البابوى ، تحركت

دوائر محاكم التفتيش للإيقاع بالرجل فاشاعوا عنه أنه قد تردى فى الهرطقة وتخريف مسائل اللاهوت ، فقبض عليه وحكم عليه بالنفى (١٢١) .

شعر الملك فيليب الثانى أن محاكم التفتيش وسيدها البابا قد وجها إليه لطمة قوية ، ولذا فإنه سعى إلى طى محاكم التفتيش فى أسبانيا تحت ذراعيه بالدهاء والخديعة ، وكان ذلك بطبيعة الحال على حساب الشعب التبعس . ففى أعقاب عودته إلى أسبانيا فى ٨ سبتمبر ١٥٥٩ م بأسابيع قلائل ، قصد إلى الشرفة الملكية المطلة على ميدان كنيسة سان مارتن فى بلدة فالادوليد ، فأطل على الجماهير الأسبانية المتجمعة وأقسم أمامهم بأنه لن يدخر جهداً فى تنقية العقيدة الكاثوليكية من الشوائب ، وبأنه سوف يثبت فى مملكته من دعائم «المكتب المقدس» أى محاكم التفتيش . ثم أمر بأن يستعرض المتهمون بالهرطقة أمامه ، وكان من بين تعساء هذا الموكب أحد النبلاء المتهمين بالهرطقة واسمه دون كارولس دى سيسا ، وقد شوه رجال محكمة التفتيش وجهه وأطرافه بالنار حتى أصيب بالشلل ، فلما أن وصل الرجل إلى شرفة صاحب الجلالة صرخ بصوت عال : « إنى أتوسل إليك بامولاي الملك ، توسل رجل من أصل نبيل إلى سيد عريق فى النبالة أن تسأل هؤلاء السادة عن الذنب الذى اقترفته حتى ألقى هذا العذاب على هذه الشاكلة تحت سمعك وبصرك » . ولكن الملك فيليب رد عليه بقوله : « لو كان ابنى ذاته منحرفاً فى العقيدة على شاكلتك لقممت بنفسى لحمل الوقود إلى المحرقة التى يلقي فيها » (١٢٢) .

ولكى يدلل فيليب الثانى على حرصه على محاكم التفتيش ومباركته لأفعالها فى اسبانيا فقد أمر بأن يحرق عدد من الهرطقة فى المحرقة (Auto da

(fe) فى حضوره شخصياً .

وهكذا نجح فيليب الثانى فى أن يبسط نفوذه على محاكم التفتيش فى اسبانيا .

ضج الشعب الاسبانى من طغيان محاكم التفتيش ، ولما عبر أهالى قشتالة عن تدمرهم وجه اليهم فيليب الثانى رسالة فى فبراير ١٥٦٣ م يتوعدهم بأن «المكتب المقدس» باق ليستأصل شأفة الهرطقة من طول البلاد وعرضها . وشكا أهالى أراغون لأن محاكم التفتيش باتت تحشر أنفها فى أمور لاتمس العقيدة من قريب أو بعيد ، وبأن الرهبان قد استمروا فى شهادات الزور ضد الابرياء .

وهناك رسالة من السفير الفرنسى فى أسبانيا موجهة إلى كاترين دى مديشى تفيد بأن فيليب الثانى قد نجح فى تسخير محاكم التفتيش كأداة طيبة لفرض ارادته على الشعب الاسبانى بالقهر (١٢٣) .

بعد هذا جاءت الشكوى ضد محاكم التفتيش من رجال الكنيسة الاسبانية نفسها ، فلقد استبد المفتشون وفرضوا آراءهم الدينية على كبار الاساقفة ، ولذا فإنهم عرضوا قضيتهم على مجمع ترنت . وكان الوفدان الفرنسى والألمانى يميلان إلى إدخال بعض الاصلاحات فى نظام الكنيسة ، إلا أن مندوبى فيليب الثانى حذروا البابا بيوس الرابع من المساس بمحاكم التفتيش (١٢٤) .

وإذا وصلنا إلى عهد الملك فيليب الرابع (١٦٢١ - ١٦٦٥ م) ، نجده شاباً منحلّاً خليعاً ، يقضى كل أوقاته فى اللهو والمجون فى ساحات مدريد أو فى

قصره الجديد فى ضواحي المدينة فى بوين ريتيرو (Buen Retiro) . وكان طبيعياً أن تنشط محاكم التفتيش فى هذا الجو الداعر . ومن متناقضات الساعة أن ظهرت فى ظل هذه المحاكم التى زعم أصحابها أنها مقدسة جماعة أسبانية راحت تشجع الناس على الفجور والجنس المشاع والعلنى حتى فى داخل الكنائس والبيوتات الرهبانية أيضا .

وقيل أن الوزير أوليفاريس (Olivares) قد ساهم بنفوذه وشخصه فى ازدهار هذه الجماعة التى عرفت بإسم « أولمبرادوس » (Alumbados) أى « المتنورين » ليساير صاحب الجلالة فى فجوره ونزواته .

وكان فيليب الرابع قد تزوج من أميرة فرنسية فانتة هى اليزابث، وقد حاولت إيقاظ زوجها من وحل الفساد الذى غرق فيه حتى أذنيه ، ولكن دون جدوى ، وباتت العلاقة بين الملك والمملكة علاقة كراهية تكشفها الواقعة التالية: ففى أول حلقة من مصارعة الثيران فى بلازا مايورا سنة ١٦٢١ م ، ظهر فى الحلبة شاب نبيل وسيم الطلعة هوكونت دى فيللا ميديانا الذى كان نجما ساطعا من نجوم مصارعة الثيران . وكان هذا الشاب جريئاً ، فنزل الحلبة وقد زين صدره بحروف من الفضة فى نقش يقول (Son mis amores) . وكان الملك والمملكة يشاهدان هذه المصارعة ، وتعنى هذه العبارة المنقوشة بالاسبانية « أنا أحب الجاه » وقد تعنى مجازاً أيضا « إن حبيبى من النوع الملكى » . وقد بلغت الجرأة بهذا الشاب أنه ألقى بنظرات إعجاب شبيه بالغزل على عيون صاحبة الجلالة بشكل ملفت للنظر وهى فى المقصورة الملكية بجوار زوجها . وقد فسر الجمهور الاسبانى تلك النظرات بالتفسير المجازى الذى تحمله العبارة

المنقوشة . وقد كان هذا الحادث سببا فى كدر شديد عند عودة الملك ومليكتة إلى القصر ، فلقد هتفت الملكة متنهدة : « إن الكونت الشاب كان يصوب رمحه فى روعة خلافة » ، فرد الملك غاضباً : « ولكنه يا سيدتى يصوب إلى المقام العالى » . وبعد شهور قلائل تم اغتيال هذا الشاب عند مدخل قصره بيد واحد من رجال الحرس الملكى ، بتحريض مفضوح من الملك فيليب الرابع (١٢٥) .

وظلت محاكم التفتيش سوطا مسلطا على ظهور الاسبان فى عهد شارلس الثانى ثم فيليب الخامس من بعده (١٧٠٠ - ١٧٥٩ م) ، وفى عهد الأخير أدين ١٤,٠٠٠ مواطنا بالهرطقة وأحرق منهم ٧٨٢ نفساً (١٢٦) . وأخيراً فى عهد الملك شارلس الثالث (١٧٥٩ - ١٧٨٨ م) تقرر وضع حد لمظالم التفتيش وفى ابريل ١٧٧٤ م صدرت الأوامر الملكية باغلاق مكاتب « المكتب المقدس » ولقد شاءت الأقدار أن يكون اخر ضحايا محاكم التفتيش فى أسبانيا سيدة شمطاء عزلاء لا حول لها ولا قوة ، والتى لم يكن لها أهل ولا ولد فى مدينة أشبيلية . وقد أحرقت تلك السيدة العاجزة سنة ١٧٨١ م ، ليشيعها التاريخ الأوربى على أنها آخر ضحية عجفاء لنمر قد تكسرت أنيابه ، فلم يقو على صيد سواها .

رغم كل هذه الصنوف من البطش والارهاب الفكرى لمحاكم التفتيش إلا أن صوت الثوار فى مختلف أرجاء أوربا لم يخفت ، ولا ينكر أحد أن جماعات الأطهار بمختلف فئاتهم هم الذين مهدوا الطريق لظهور رواد الاصلاح الدينى فى أوربا ، وعلى رأسهم جون ويكلف الانجليزى ، وجون هس التشيكي ، وسافونا رولا الإيطالى ، ثم مارتن لوتر الألمانى .

اتخذ جون ويكلف إسم الشهرة من إسم بلدته ويكلف (Wycliff) فى منطقة يوركشير بالإنجلترا ، وهى جزء من مقاطعة ريتشموند الكبرى التى كانت تحت سيطرة بيت لانكستر . حصل ويكلف على درجة الدكتوراة فى اللاهوت من كلية باليول بجامعة اكسفورد سنة ١٣٧٢ م ، وبعد ذلك بسنتين منحه الملك أدوارد الثالث قطعة أرض فى منطقة لثروورز (Lutterworth) اعترافا بشهرته العلمية ، ثم أوفده الملك ضمن بعثة إلى بلدة بروج لمقابلة المندوبين البابويين لتسوية بعض الأمور المختلف عليها بين التاج الإنجليزي والبابوية ، ومن بينها رفض الملك ادوارد دفع الضريبة التى اعتادت إنجلترا دفعها للخزانة البابوية منذ عهد يوحنا سنة ١٢١٥ م . ولم تنجح البعثة فى مهمتها ، فعاد ويكلف إلى اكسفورد . وفى رحاب اكسفورد عكف ويكلف على بحث قضية العصر ألا وهى العلاقة بين الملك والبابا ، ومن ثم العلاقة بين السلطة الدنيوية والسلطة الدينية . ومن أهم الأفكار التى طرحها ويكلف مسألة « السيادة » (Domin-ion) ، والرأى عنده أن السيادة أصلا للخالق وحده ، أما البشر ، سواء أكانوا علمانيين أو رجال دين ، فإنهم عندما يتصرفون فى هذه السيادة فإنهم يقومون بذلك بتكليف من الله ، على أن تكون العدالة رائدهم فى ذلك .

ويرى ويكلف أن جميع الأفراد فى أى مجتمع هم أصحاب حق طبيعى فى نصيب من هذا « الكرم الإلهى » متمثلاً فيما تغله الأرض من خيرات ، حيث أن الأرض جميعها كانت فى البدء مشاعا بين كافة الناس وذلك قبل السقطة الكبرى لآدم . إلا أن الخطيئة هى التى جلبت على العالم آفة حب التملك الخاص وتكالب بنى آدم على تراب الأرض . ولا ينكر ويكلف على

الكنيسة نصيبها فى هذا التراب ، على أن يتم هذا بالاتفاق مع الأمير أو الملك .
ولقد رحب النبلاء الانجليز بآراء ويكلف ، لأنهم فى حقيقة الأمر كانوا
يتنمرون للسطو على بعض الأراضى التى كانت الكنيسة الانجليزية تسيطر عليها
وهى كثيرة . وفى سنة ١٣٧٦ م طلب من ويكلف الحضور إلى لندن لشرح
نظريته أمام المسئولين وبعض كبار رجال الدين . وقد هلك الوزراء والأمراء لجرأة
هذا المفكر الحر . ولكن الأسقف وليم كورتيناى أبدى إنزعاجه من جرأة
ويكلف وطلب منه المثول أمامه ليناقشه فى الأمر . وقصد ويكلف لملاقاة
الأسقف ، وأصر دوق لانكستر جون من جنت أن يذهب مع ويكلف لحضور
المقابلة ، وقد انتهت المقابلة بمعركة صاخبة بين الاسقف ويكلف . ثم كتب
كبار رجال الدين الانجليز إلى البابا فى روما يشكون إليه من نشاط ويكلف
ونظرياته الجديدة . وكان البابا جريجورى الحادى عشر مافئء أن عاد هاربا من
« الاسر البابلى » فى فرنسا (١٣٧٧ م) ، فأرسل إلى الملك ادوارد الثالث
يطلب منه القبض على ويكلف ومحاكمته بسبب آرائه المتطرفة ، ولكن الرسالة
وصلت عند وفاة ادوارد الثالث . وتولى العرش الانجليزى بعد ذلك الطفل
ريتشارد الثانى تحت وصاية والدته ، التى تكفلت ببسط حمايتها على ويكلف .

غير أن ويكلف فاجأ الناس بنظريات أخرى تتصل بجوهر العقيدة والطقوس
الدينية ؛ فقد نادى بمذهب « القدرية » فالبعض قدر لهم الخلاص والبعض
الآخر كتب عليه التهلكة ، وأن البابا - فى أغلب الظن - على رأس فريق
الهالكين . وقال ويكلف أيضاً أن الكنيسة ورجالها يمثلون مؤسسة منافقة وليس
ثمة مبرر لوجودها ، حيث أن الصلة بين العبد والخالق يمكن أن تتم

بالاسترشاد بما ورد فى الكتب المقدسة دون الحاجة إلى الكهانة والأوصياء وتجار الدين .

ونظراً لخطورة هذه الآراء انزعج الكثيرون من أصدقاء ويكلف وعلى رأسهم دوق لانكستر نفسه ، وراح يتنصل من صديقه « المتهور » . وهنا سنحت الفرصة للأسقف كورتيناى العدو للدود لويكلف ، فحصل على اداة لآرائه وطرده من جامعة اكسفورد هو واتباعه . وبعدها توارى ويكلف فى مزرعته فى لترورز حيث توفى بعد سنوات قلائل .

على أن هذه الآراء قد لقيت صدى شعبيا واسعا فى انجلترا ، وراح فريق من تشيعوا لهذه الآراء يطوفون ارجاء انجلترا لنشر هذه التعاليم ، وقد أطلق عليهم المعاصرون لقب « لولارد » نظراً لتشابه آرائهم مع آراء اللولارديين فى الأراضي المنخفضة فى القارة الأوروبية . وتطورت اللولاردية فى انجلترا فصارت مذهب الكادحين والعمال والساخطين ، ولذلك فإن الملك ريتشارد الثانى أمر بالقبض عليهم وإيداعهم السجن . وفى عهد الملك هنرى الرابع صدر قرار ملكى يحرم اللولاردية بالقانون ، كما قدم نفر منهم للمحاكمة وتم احراقهم بالنار . وسارت الأمور على هذا المنوال من القمع فى عهد الملك هنرى الخامس ، حتى كانت سنة ١٤١٧ م حين قبض على زعيمهم جون أولد كاست وأعدم .

انتقلت آراء ويكلف من انجلترا إلى القارة الأوروبية فى نهاية القرن الرابع عشر ، ذلك أن الأمير ونسزلاز أكبر أبناء الامبراطور شارلس الرابع الذى توج ملكا على بوهيميا (١٣٧٨ - ١٤١٩ م) قد زوج أخته آن من الملك الانجليزى ريتشارد الثانى . وقد اصطحبت آن معها فى حاشيتها عدداً من محبى

العلم الذين تأثروا اثناء اقامتهم فى إنجلترا بآراء ويكلف . وهكذا قدر لآبناء بوهيميا أن ينقلوا هذه التعاليم إلى بلادهم ، ففى سنة ١٤٠١ م نقل جيروم تعاليم ويكلف برمتها إلى أروقة براغ . وكان شارلس الرابع قد أولى مملكة يوهيميا اهتماما خاصا ، فأسس فيها سنة ١٤٣٧ م جامعة براغ التى تطورت سريعا إلى مركز ثقافى مرموق جذب الدارسين من مختلف الأقطار الأوربية مثل بولنده وبفارىيا وسكسونيا وغيرها . ولما أن راجت آراء جون ويكلف فى أروقة جامعة براغ ، انزعج المسئولون فيها فقدموا توصية إلى مجلس الجامعة بضرورة ادانة هذه الآراء ، وأذعن مجلس الجامعة لهذا الطلب . غير أن فريقا من الدارسين ضرب برأى الجامعة عرض الحائط ، وكان على رأس هؤلاء المصلح جون هس (Huss) .

ولد هس سنة ١٣٧٠ م فى قرية هوزنيك (Husienec) ، وحصل على درجتى اليسانس والماجستير فى ١٣٨٦ م ، ١٣٩٦ م تباعا . وكان هس شابا متحمسا لقضايا الاصلاح الكنسى ، كما كان خطيباً مفوها ومؤلفاً جيداً للترانيم الدينية . وكانت جماعة من المتحمسين للاصلاح فى تشيكوسلوفاكيا تنادى بضرورة العودة بالدين إلى الحياة البساطة الأولى التى كان عليها الآباء الباكرون . وفى مواعظه أعلن هس أنه لا يحق للكهان الخاطيء أن يقود الصلاة أو أن يؤدى الطقوس الدينية الأخرى .

ولما انتشرت آراء هس فى جامعة براغ ، أرسل البابا اسكندر الخامس أوامره إلى كبير اساقفة براغ باحراق كتب هس وجون ويكلف ، وقد قام كبير الاساقفة بتنفيذ أوامر البابا فى يوليو ١٤١٠ م .

وجاءت ردود الفعل ضد كبير الاساقفة وفعلته فى شكل اشعار كثيرة منها قصيدة فى هجاء كبير الاساقفة (واسمه زينيك) ومؤداها أن النيران التى أشعل بها تعاليم البساطة إن هى إلا وسام شرف لأبناء التشيك . كما ظهرت فى نفس الوقت أغان شعبية تسخر من زينيك لجهله وأقدامه على احراق الأوراق دون أن يهتم حتى بمجرد فهم محتواها (١٢٧) .

هذا وقد حدث ١٤١٢ م أن وقع البابا يوحنا الثالث والعشرون فى صدام مع لادزلاس ملك نابلى ، فقرر البابا أن يشن « حملة صليبية » ضد مملكة نابلى . ونظراً لحاجة البابا إلى المال لاعداد هذه الحملة ، فإنه أقدم على بدعة خطيرة فى تاريخ الكنيسة الرومانية فقد أعلن بيع صكوك لغفران الذنوب والاثام بالمال لمن يرغب . وهكذا اكتملت المهزلة البابوية .

كان جون هس أول من ندد ببيع صكوك الغفران ، لأن فرودس النعيم لا يورث بالرشوة والمال الحرام ، وقال إن دل هذا على شىء فهو إنما يشير إلى افلاس الكنيسة الرومانية مادياً بعد أن أفلست معنوياً . والتف القوم حول هس فى غضبته المدوية ، فأمسك بقرار البابا عن صكوك الغفران وأحرقه بالنار . والواقع أن البابا يوحنا الثالث والعشرين كان واحداً من ثلاثة بابوات يتنازعون للجلوس على العرش البابوى فى روما . وقد رأى الناس فى مسلك هؤلاء الثلاثة الكبار وفى تكالبهم على المنصب وما يدره إلى جيوبهم من فضة وذهب صورة قبيحة لا تليق حتى بصغار رجال الدين . وفى اثناء ذلك كان مجمع كنسى كبير منعقدا فى مدينة كونستانس لتدارس أمور الكنيسة الرومانية ولحسم النزاع بين البابوات الثلاثة المتناحرين . وقد وجه المجمع أمراً إلى جون هس بالمشول

أمامه (نوفمبر ١٤١٤ م) . وكان الداعى إلى هذا المجمع أصلاً سجسموند وريث الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان حريصاً على إبرام صلح أو مهادنة بين البابوية الغاضبة وجون هس الثائر ، ولذا فإن سجسموند قد حث هس على الحضور أمام المجمع ، بعد أن أكد له الحفاظ على حياته وسلامته .

قصد جون هس إلى المجمع فى كونستانس ، ولكأنه وهو يجادل كرادلة المجمع كان يقيم مناظرة بين عالمين مختلفين : عالم بحر الظلمات ، وعالم الفجر الجديد . وكان طبيعياً أن يتخذ الكرادلة قراراً بادانة آراء هس بسبب «هرطقته» ، ثم القوا به فى السجن . ولكن الملك سجسموند بعد أن توج امبراطوراً فى آخن ، هرع إلى كونستانس وأمر بأطلاق سراح هس من السجن . ولكن نفرا من الكرادلة ومستشارى سجسموند نصحوه بأن يتخلى عن هس ، حفاظاً على سلام الامبراطورية المقدسة وعلى وحده العقيدة تحت لوائه الامبراطورى ، وحذروه بأنه ليس من الحكمة السياسية أن يحطم اشياء كثيرة من أجل الحفاظ على حياة « الهرطيق » جون هس . وانصاع سجسموند للنصيحة ، وبقي جون هس حبساً فى زنزانته .

بقى سجسموند فى كونستانس ليرقب عن قرب مسيرة أعمال المجمع ، خاصة قضية البابوات الثلاثة المتنافسين . ولما أن شعر البابا يوحنا الثالث والعشرون بخرج موقفه، دبر حيلة لكى يتسلل خفية من كونستانس حتى لا يواجه الامبراطور سجسموند ولا أعضاء المجمع من خصومه . اتفق يوحنا وصديقه فردريك أمير منطقة التيرول (Tyrol) على تدبير حفل مبارزة فى قلب مدينة كونستانس لصرف انظار الناس عن المجمع . ولما أن تجمع القوم لمشاهدة

هذه المباراة ، تنكر البابا يوحنا فى زى حارس للخليل وهرب إلى حصن شافهاوزن (Schaffhausen) عند حلفائه من بيت هابسبورج .

وفى اليوم التالى اكتشف المجمع هروب البابا ، فساد الهرج فى ردهاته وأروقتة ، وما لبثت شوارع المدينة أن اكتظت بالغوغاء والمظاهرات الصاخبة .

ولكن سجسموند بادر بقمع المتظاهرين بيد من حديد ، ثم أرسل فرقة للقبض على البابا الهارب وحليفه فردريك . وتم القبض على البابا الهارب واقتيد ذليلا إلى مجمع كونستانس ، حيث استؤنفت الجلسات ، وقرر المجتمعون خلع يوحنا الثالث والعشرين (٢٩ مايو ١٤١٥ م) .

ثم استدعى جون هس من جديد لاعادة النظر فى قضيته ، وكان الكرادلة فى المجمع قد دبروا له شركا شيطانيا للإيقاع به أمام الامبراطور سجسموند . فسألوا هس عن رأيه فيمن يرتكب معصية من رجال الدين ، فرد هس بأن هذا العاصى يستوجب العزل من منصبه الدينى . ثم سألوه عن رأيه فيمن يرتكب نفس المعصية من الأمراء أو الملوك أو الأباطرة ، فرد الرجل بأن الأمير العاصى يستوجب بالمثل الخلع عن العرش . وهنا شعر الامبراطور سجسموند بالخرج الشديد أمام اعضاء المجمع ، ففتر حماسه لقضية جون هس وقرر أن يتخلى عنه نهائياً . وفى اليوم الثالث للمحاكمة طرح مصير جون هس للتصويت ، وكان الامبراطور سجسموند أول من صوت بالحكم بإعدام جون هس . وفى يوليو ١٤١٥ م اقتيد جون هس إلى ركن عند اسوار مدينة كونستانس حيث تم إحراقه بالنار ! .

على أن إحراق جسد هس لم يحرق أفكاره الثورية . فقد ظلت تعاليمه

متأججة فى وجدان الشعوب السلافية فى بوهيميا ، كما أن مشاعر الكراهية قد ازدادت ضد الألمان وملكهم الغادر سجسموند . وتألف حزب من أتباع جون هس بزعامة واحد من ابناء موطنه الأصلي يدعى نيقولا إلى جانب جندى مرموق هو البطل جون زسكا . ثم ظهرت جماعة أخرى تدين بآراء هس وعرفت باسم « أبناء براغ » (١٤٢٠ م) ، وطالب هؤلاء بتجريد رجال الدين من الملكية الخاصة وبخضوعهم للقانون العام وبعدم قصر الوعظ على الكهنة ، مع السعى لازالة النظام الملكى من البلاد . ولم يغفر أهل بوهيميا للأمبراطور سجسموند موقفه الخسيس من الزعيم هس ، ولذا فإنه عقب وفاة ملك بوهيميا ونزل (Wenzel) سنة ١٤١٩ م ، عين سجسموند شقيقا له لعرش بوهيميا ، ولكن الشعب قام بالثورة ضد الملك الجديد وشقيقه سجسموند . فما كان من سجسموند إلا أن عقد حلفا مع البابا مارتن الخامس لشن حملات صليبية ضد اتباع هس فى بوهيميا . وتوالى الحملات فى سنوات ١٤٢٠ - ١٤٢١ - ١٤٢٢ ثم ١٤٢٧ م بفارسائها الألمان لاستئصال اتباع هس . وقد كافح التشيك هذا العدوان الصليبي كفاح الأبطال ، وبرز فى المعارك الطاحنة البطل القومى جون زسكا الذى خطط بعبقريته الفذه وبمدافعه خطة طرد الصليبيين من البلاد . ويروى عن زسكا هذا أنه أوصى قبل وفاته أن يصنعوا من جلده « طبلة » يقرعون بها وقت الحاجة لايقاظ الثوار ضد الألمان والبابوية .

بعد بضع سنين من التهام نيران محاكم التفتيش لجسد جون هس كانت نار أخرى تضرم فى الشمال الايطالى لاجراق جسد رائد آخر من رواد الاصلاح وهو سافونا رولا :

كانت إيطاليا من أسبق الدول الأوروبية سعيا إلى الانعتاق من ظلام العصور الوسطى والتطلع إلى بزوغ فجر جديد . ولقد ساهمت عدة عوامل فى تحقيق هذا الأمل ؛ من ذلك التقاليد الجمهورية لمدن الشمال الايطالى وكفاحها من أجل الاستقلال الذاتى بقوميوناتها ودساتيرها ؛ وجهود نقابات العمال والحرفيين ، وانتعاش التجارة . كذلك دأب امراء تلك المدن على تشجيع الآداب والفنون وفروع الفلسفة المختلفة ، كما رحبوا فى بلاطهم بعلماء بيزنطة الذين هربوا بعد سقوط القسطنطينية فى أيدي السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م . وقد نشر هؤلاء العلماء البيزنطيون علومهم فى المدن الايطالية وشجعوا على بعث الآداب الكلاسيكية من الأكفان .

على أن إيطاليا ما أن أخذت بأسباب التحرر من عقلية العصور الوسطى لتقدم المثل لبقية بلدان أوروبا فى غسل أدران التبرير والقنية والصليبيات ومحاكم التفتيش وبلورة صيغة انسانية للمصالحة بين حرية الفرد وحق الجماعة ، وحث الشباب على تذوق القيم الجمالية ، حتى قدر لها أن تنال جزاء كجزاء سنمار ، فتصبح فريسة لجشع بعض الأمراء الذى كانت تهم لتنويرهم والأخذ بيدهم من دياجير الظلمة إلى إشراقات النهضة أو الميلاد الجديد .

كانت المدن الايطالية تخضع لسلطان حفنة من الأسر النبيلة من قبيل آل مد تشى فى فلورنسا ، وآل سفورزا فى البندقية ، وآل بنتشوجيلو فى بولونا ، وكذلك كانت الحال فى مدن سينا ، ولوكا وغيرهما من المدن . وكان يخفف من حدة طغيان هذه البيوتات تلك النسمة الحرة فى تشجيعهم للفنون والآداب واحياء التراث اليونانى والرومانى القديم . على أن أهم ما كان يقلق الايطاليين ، حكاما ومحكومين ، أنهم وجدوا أنفسهم فى نهاية القرن الخامس عشر محاطين

بعده قوى أوربية شرسة تترىص بهم شراً : ففى فرنسا ، بعد أن ورث شارل الثامن عن أبيه مملكة حرة من عبث الانجليز وتحرشاتهم ، ووجد نفسه على رأس جيش متمرس قوى وصاحب خزانة مكتنزة بالمال ، راح يحلم بامبراطورية عظمى تضم تحت لوائها شبه الجزيرة الإيطالية . وفى أسبانيا بعد أن توحدت البلاد بزواج فرديناند صاحب أراغون من ايزابيلا صاحبة قشتالة (١٤٩٢ م) ، وبعد الاستيلاء على غرناطة ، أخذ التاج الاسباني بدوره يتطلع إلى مغامرة عسكرية على حساب الايطاليين أيضا .

أما الامبراطور ماكسميليان وريث الامبراطورية الرومانية المقدسة (١٤٩٣ - ١٥١٩ م) فإنه بعد أن وحد الأراضي الواطئة مع دوقية برغنديا ، التى ورثها عن زوجته ماريا ، تحت لواء النمسا ، فقد أفصح عن خطته للسيطرة على ايطاليا ليعت مجد شلمان من جديد .

وفى نفس الوقت كان المد العثماني فى أوروبا قد وصل ذروته على شواطئ الأدریاتيك ، وباتت البندقية ونابلى فى خطر داهم (١٤٦٩ - ١٤٧٧ م) .

ولقد جاءت أولى المتاعب من جانب الملك الفرنسى شارل الثامن الذى ادعى أنه وريث مملكة نابلى عن اسلافه من بيت شارل دى آنجو . وكان الملك الفرنسى يحلم بمشروع ضخم يغزو من خلاله مملكة نابلى ثم يزحف لتحرير القسطنطينية من أيدي العثمانيين ، منتهياً بقيادة حملة صليبية على بيت المقدس . وفى أغسطس ١٤٩٢ م هجم شارل الثامن على رأس ٣٦٠٠ من فرسانه و ٢٠,٠٠٠ من المشاة إلى جانب عدد من قطع المدفعية على شمال ايطاليا . ولقد فزع الايطاليون من حجم هذا الجيش الجرار ، واضطرت المدن إلى فتح بواباتها لهذا الغازى الفرنسى دون مقاومة ، فدانت له مدن سافوى ،

ومونت فرات ،وميلان ،وجنوة . أما البندقية وفرارا ومانتوا فقد اثرت الحياذ . غير أن المدن التوسكانية ودويلات الكنيسة الرومانية فى وسط ايطاليا وكذا مدن الجنوب الإيطالى فقد ألقت عصبة فيما بينها لمقاومة الغزو الفرنسى .

كذلك قرر بيترو مدتشى أمير فلورنسا التصدى للغزو الفرنسى ، نظرا للحلف الذى كان يربطه بمملكة نابلى المستهدفة من شارل الثامن ، وسرعان ما انضمت مدينتا سينا ولوكا للأمر الفلورنسى فى تحديه للغزو الفرنسى .

كان الجالس على عرش البابوية آنذاك البابا اسكندر السادس بورجيا ، ولما كان على صلة نسب بألفونسو ملك نابلى فإنه قرر التصدى للغزو الفرنسى ، وكان ألفونسو قد أعد العدة للتصدى للهجوم الفرنسى المرتقب ، فعين شقيقه فردريك لقيادة الأسطول ،وشقيقه الثانى فرديناندو لقيادة القوات البرية .

زحف شارل الثامن بجيشه عن طريق بارما وبونت ريمولى على جبال أبينين قبالة نابلى . وما أن وصل الفرنسيون إلى بلدة سارزانا حتى قرر بيترو مدتشى أمير فلورنسا الخروج لملاقاتهم . وفى أول اشتباك بين الطرفين هلك ثلاثمائة من رجال فلورنسا ، ووقع الأمير أسيراً .ولما أن أقتيد الأمير الفلورنسى إلى مقام الملك الفرنسى انهارت أعصابه ووافق على تسليم قلاع كل من سارانزا ، وسارانزللو ، ولبراقرتا وبيزا ، ولجهورن للملك الفرنسى .وهكذا توطدت أقدام الفرنسيين فى الأراضى التوسكانية بسبب خضوع أمير فلورنسا .

ولكن أهل فلورنسا شعروا بأن سيدهم المستبد قد ورطهم فى مأزق لم يكونوا ندأ له ، ثم ها هو يعود اليهم منهزما ذليلاً .وفى اليوم التالى لعودته ، قصد بيترو مدتشى إلى دار الرئاسة فى فلورنسا ، ولكن الحراس لم يسمحوا له

بالدخول، فعاد إلى قصره فى حماية صهره باولو اورسينى . ثم نظم الأمير وحليفه مسيرة فى شوارع المدينة وهم يصيحون صيحة الاستنفار الخاصة ببيت مدتشى ، ودوت صيحة « باللى ! باللى » (Palle ! Palle) ، ولكن أحداً من الأهالى لم يتحرك . وفى أثناء ذلك كان حزب «الأحرار» (Piagimoni) فى فلورنسا بزعامة الراهب الفرنسيسكانى سافونا رولا ينظمون المظاهرات وينادون بسقوط آل مدتشى . وخشى آل مدتشى على أرواحهم إن هم واجهوا الشعب الفلورنسى الغاضب ، ففروا من بوابة سان جاللو ثم عبروا جبال بنين إلى مدينة بولونا ، ومنها لاذوا بالفرار إلى مدينة البندقية . وبهذا الهروب الذليل ضاع على آل مدتشى سلطانهم فى فلورنسا (١٩ نوفمبر ١٤٩٤ م) بعد حكم أبداً دام ستين عاماً .

وفى أثناء ذلك نجح الملك شارل الثامن فى اقتحام مملكة نابلى ظافراً ، وقام بإجراء مذبحة رهيبة لادخال الرعب فى قلوب أتباع الملك ألفونسو . على أن سيطرة الفرنسيين على معظم أراضي إيطاليا بهذا اليسر أثار دوق البندقية سفورزا والبابوية وملك أسبانيا والإمبراطور ماكسميليان ضد الغزو الفرنسى . وتجمعت جيوش هؤلاء جميعاً تحت قيادة ماركيز بلدة مانتوا للتصدى للفرنسيين .

أما شارل الثامن فقد عين جليبرت دى مونت بنسييه نائباً عنه فى حكم نابلى وترك له نصف الجيش ، بينما تحرك هو عائداً بالنصف الآخر . وفى طريق عودة الفرنسيين انقض الإيطاليون وحلفاؤهم عليهم عند بلدة فورنوفو وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة ، حتى أن الملك الفرنسى اضطر إلى الهروب عبر جبال الألب . وطارت الأخبار إلى نابلى فتشجع أهلها وهجموا على نائب الملك

الفرنسى جلبرت وأوقعوا به وبرجاله هزيمة فادحة عند بلدة آتيلا (Atella) وذلك فى ٢٣ يوليو ١٤٩٦ م .

إنعكست هذه الأحداث المتلاحقة على الأحوال الداخلية فى مدينة فلورنسا، فقد دخلت أحزابها الثلاثة فى صراع مرير الواحد ضد الآخر : فكان حزب «بيانونى» (Piagnoni) بقيادة الشاعر سافونا رولا ينادى بإقامة مجتمع يتمتع فيه الجميع بالحرية والمساواة ؛ أما حزب «أربياني» (Arabbiati) فكانوا مناهضين لبيت مدتشى المستبدين ؛ فى حين أن حزب «بيجى» ظل موالياً لبيت مدتشى . وقد طالب سافونا رولا زعيم الحزب الأول بضرورة توسيع برلمان فلورنسا (Balìa) لكى يمثل الشعب الفلورنسى بمختلف طبقاته تمثيلاً حقيقياً بدلاً من أن يقتصر على الأحزاب الثلاثة المتناحرة .

وقد استجاب الفلورنسيون لنصيحة سافونا رولا ، وانتخبوا أول مجلس يمثل جميع فئات الشعب (يوليو عام ١٤٩٥م) ، وصار من حق المجلس الجديد انتخاب قضاة الشعب ، كما أصدر المجلس عفواً عاماً عن ضغائن الماضى بهدف جمع الفلورنسيين تحت لواء واحد .

ولكن سافونا رولا وحزبه كانوا متعاطفين مع الملك الفرنسى شارل الثامن ، لا حباً فيه وإنما نكاية فى البابا اسكندر السادس بوررجيا وأصهاره فى مملكة نابلى ، الذين شبههم سافونا ببؤر الفساد فى جسم إيطاليا .

ومن أجل هذا فإن البابا اسكندر السادس كان يتحين الفرصة للقضاء على سافونا رولا وحزبه ، فاتهم سافونا رولا بخيانة الوطن بتأييده للملك الفرنسى الغازى ، ثم أرسل أوامره إلى فلورنسا بمنع سافونا من الوعظ لأنه «هرطيق» .

وامتثل سافونا للأمر البابوى لعل العاصفة تمر بسلام ، وأتاب عنه تلميذه
بونوفتشينو من برسكيا للقيام بدلاً منه بالوعظ . على أنه فى عيد ميلاد سنة
١٤٩٧ م خرج سافونا من صمته واعتلى المنبر فى كاتدرائية سان مارك وصاح
قائلاً بأن السماء قد طلبت منه ألا ينصاع لأمر أرضى وألا يرضخ لحكم كاهن
فاسد ، ثم شارك سافونا فى سر التناول واضطلع بوعظة العيد ، وفيها حمل على
البابوية وفساد رجالها وألقى الضوء على مخازى إسكندر السادس واتهمه فيها
بالانحلال والشذوذ والغدر .

رد البابا بأن جند واحداً من أتباعه يدعى مويانورى جيناتزانو لمحاربة سافونا
بنفس أسلحته ، ثم كلف راهباً آخر اسمه فرانسيس من أبوليا لكى يشهر بسيرة
سافونا فى كنيسة سانتا كروتشى . وكان فرانسيس هذا واعظاً مفوهاً ومجادلاً
ضليعاً ، ففى أول موعظة له فى جمهور المصلين فى فلورنسا أعلن الآتى : «أنا
عن نفسى فإننى أعلن لكم أننى واحد من خطاة هذا العالم ، ولست أدعى
كما يدعى غيرى الإتيان بالمعجزات ، على أننى رغم ضعف بشرتى أدعوكم
لأن تقيموا بينى وبين سافونا رولا تحكيماً بالنار ، وإننى واثق بأننى سوف أهلك
محترقاً بلهب نار التحكيم ، ولكن ضميرى يدفعنى إلى تجرع هذا الكأس المرير
كى يهلك معى سافونا رولا الدجال . وأنا أعرف طريقى ، ولكن طريق سافونا
رولا إلى نار جهنم بسبب هرطقته ولأنه أرسل بالكثيرين من بسطاء فلورنسا إلى
النار بسبب تعاليمه الضالة» (١٢٨) .

رفض سافونا رولا هذا التحدى بالتحكيم بالنار ، ولكنه تحت إلحاح أتباعه
رضخ للأمر وقبل التحدى . وتحمس الناس فى فلورنسا ليوم الحدث الكبير ،

وطلب الآلاف من الأهالى كباراً وصغراً السماح لهم بمشاهدة هذا التحكيم الخطير . ثم جاءت موافقة البابا على إجراء هذا التحكيم بالنار ، ووافقت عليه أيضاً دار السيادة فى فلورنسا ، وحدد له تاريخ ١٧ أبريل ١٤٩٨ م .

وفى اليوم المحدد نصبت مشنقة مخيفة المنظر فى الميدان العام للمدينة ، ثم رصّت كومتان من كتل الخشب مختلطة بأعواد الحطب وسعف النخيل المجفف على مسافة من ممر نارى بلغ ثمانين قدماً ، وكان سمك الأخشاب التى ستشتعل بالنار أربعين قدماً وارتفاعها خمسة أقدام . أما المسافة بين صفى النار فكانت قدمين فقط ، وكان على الراهبين المحتكمين إلى النار أن يمرا وسط هذا الأتون على الجنبين لمسافة ثمانين قدماً ، ومن يخرج فى نهاية الممر النارى سليماً فهو على حق فى كل آرائه ، وأما من تؤذيه النار بحروقها فهو هرطيق آثم

واكتظت الساحة بالمتفرجين من كل صوب فى المدينة ، وفتحت جميع النوافذ المطلة لمراقبة المنظر الرهيب وقت اشتعال النار ، ووصل أتباع كل من الراهبين المحتكمين كل ينشد ترانيمه الدينية ويدعو لصاحبه .

ولكن خلافاً نشب بين الفريقين حول بعض الطقوس السابقة لإشعال النار، وتبادل الفريقان الاتهامات ثم السباب والشتائم ، حتى ضاق الناس بالفريقين من طول انتظارهم ، فأخذوا فى الإنصراف عن ساحة التحكيم . ثم حدث أن انهمر مطر غزير فأفسد كومات الخشب والحطب المعدة للمحرقه . أصيب الفلورنسيون بخيبة أمل مريرة لأن المعجزة التى كان ساقفونا رولا قد وعدهم بتحقيقها يوم التحكيم لم تتحقق ، بل ظنوا أنه كان يخادعهم ويستخف

بعقولهم البسيطة ، وبذلك فقد سافونا شعبيته السابقة ، واتهمه الفلورنسيون بالكذب والخداع ، وأنه لا سبيل لديه لإتيان المعجزات .

وبذلك نجحت خطة البابا اسكندر السادس فى الوقعة بين سافونا رولا وجمهوره . ثم هجم نفر من حزب آرايئاتا على الدير الذى كان يتوارى فيه سافونا رولا ، وقبضوا عليه مع اثنين من أتباعه وهما دومنيكو بونيوتشينو ، وسلقستر ماروفى ، وأودع الثلاثة السجن ، وانتهز الرعاع فى المدينة هذه الفرصة فهجموا على أتباع سافونا رولا وقتلوا منهم عدداً كبيراً . وبادر البابا إسكندر السادس بإرسال أوامره لتقديم سافونا رولا وصاحبيه للمحاكمة أمام محكمة التفتيش المؤلفة خصيصاً لهذا الغرض . وقد زود البابا المفتشين الموفدين بضرورة إعدام سافونا ورفيقه . وفى المحاكمة تعرض سافونا رولا ورفيقاه لإهانات بالغة ولتعذيب شديد ، ثم حكم على الثلاثة بالإعدام حرقاً بالنار . وفى ٢٣ مايو ١٤٩٨ م تم إحراق سافونا ورفيقيه فى نفس البقعة التى كانت قد أعدت منذ ستة أسابيع لإظهار معجزاته الخارقة . وهكذا كتبت البابوية فصلاً دمويّاً جديداً من فصول تصفية المصلحين المستيرين .

لم تكن المشنقة ولا كانت النار التى أحرقت الأطهار والثوار لتوقف تيار التاريخ ، فقد بدأت الطبقات المعدمة تثور فى كل مكان فى أوروبا ضد أمراء الإقطاع وأمراء الكنيسة جميعاً . وكان طبيعياً أن تأتى ردود الفعل من جانب الأمراء فى غاية القسوة والبشاعة . على أن الضربة التى قدر لها أن تصيب البابوية والكنيسة الرومانية فى مقتل لم تأت من أروقة باريس أو أكسفورد حيث انتعشت الآراء الحرة ، وإنما جاءت على يد ابن لفلاح بسيط من أهالى

ثورنجا ، وذلكم هو مارتن لوثر زعيم البروتستانت أى «المحتجين» (١٤٨٣ - ١٥٤٦م).

وكل شخصية عملاقة فى سجلات التاريخ ، اختلف المفكرون فى تقييمهم للوثر : فالشاعرالألمانى جوته يرى أن لوثر قد تغافل عن الكثير فى جوهر الفكر الإنسانى واستمد ثورته من مشاعر الغوغاء فى أمور لاهوتيه كان ينبغى أن تترك للمفكرين ، ويرى فيه ماثيو أرنولد دجالاً غوغائياً ، أما الكردينال نيومان فإنه يرى فى اللوثرية حركة مخادعة ومكابرة جملة وتفصيلاً . أما غالبية المؤرخين فيرون فى لوثر أخطر مصلح فى التاريخ الأوروبى لأنه مسئول عن نقل أوروبا من العصر الوسيط إلى العصر الحديث .

انخرط مارتن لوثر فى سلك الرهبنة مع الجماعة الأغسطينية فى بلدة إرفورت وهو فى الثانية والعشرين من عمره وذلك فى سنة ١٥٠٥ م . وفى هذه المرحلة كان لوثر قد أصيب بشعور مرير من عقدة الذنب لاندرى أسبابها،ففرض الشاب على نفسه نظاماً صارماً من الصيام والزهد لإذلال جسده . ولكن هذا الإذلال لم ينجح فى شفاء روحه وإزالة همومه الثقيلة ، وقد وصف لوثر هذه المرحلة من حياته فيما بعد بقوله : « لو أن راهباً قدر له أن يدخل النعيم بسبب تحقيق جسده وشهواته ، لكنت أنا أول الداخلين » (١٢٩) .

وفى مرحلة «الآلام» تلك تكشفت للوثر فكرة متمردة فأخذ يحدث نفسه بأن السماء لو أنها رأت فى هذا العذاب سبيلاً للخلاص لكانت كالشخص المستبد الذى يتلذذ بآلام الآخرين . ولكن الفكرة أصابته بالفزع خوفاً من التردى فى شباك الشك والضلالة . ولما أن رآه رئيس الدير ستاوبتز (Staupitz)

على تلك الحال من اليأس والقنوط والاكتئاب ، نصحه بقراءة كتاب « مدينة الله » للقديس أغسطينوس قراءة متمهلة . وانكب لوثر على القراءة بنفس شهية ، وبدأ يشعر بالارتياح النفسى عندما هجعت روحه المؤرقة شكاً ، وبدأ دفع الإيمان يدب فى وجدانه دون صراع ، فهتف من أعماقه بأن الإيمان (Faith) هو درب السعادة للروح ، وأن الرحمة الإلهية هى الشفاء للخاطئين . وأيقن لوثر من هذه التجربة الروحية أن التوبة لا تأتى بإيقاع العقاب على الخطاة ، وإنما هى تتأتى عندما يتحرك شغاف القلب من الداخل ليتقبل نسمة الرحمة الإلهية . ومن هنا فإنه نادى بأن الغفران (Indulgentia) لا يمكن أن يشتري أوبياع ، لأنه منة السماء لأهل الأرض دون مقابل . ومن خلال بحوثه اللغوية فى تلك المرحلة اكتشف لوثر أن كلمة « التوبة » (Penitentia) اللاتينية تعنى فى أصلها اليونانى المنقولة عنه شيئاً آخر تماماً ، فهى فى اليونانية تقابل لفظة (Metania) ، التى تعنى اخضاعاً ثم تغييراً فى نبض الروح تحركه حرارة التشوق إلى الرحمة الربانية من أجل الخلاص . وعليه اعتقد لوثر أن ماتروج له الكنيسة الرومانية من عقاب بدنى وروحى ومن حل وربط ، كلها أمور غريبة عن روح الدين السليم . واقتنع لوثر من هذا المنطلق أن الشخص الخاطى يمكن له إن هو أراد أن يتبرأ ويتبرر من خطيئته بواسطة الإيمان ، فبالإيمان وحده يخلص البشر .

وفى سنة ١٥٠٨م طلب رئيس الدير من لوثر أن يضطلع بالتدريس فى جامعة وتنبرج ، التى كان الأمير فردريك «الحكيم» قد أسسها منذ فترة قليلة . وأقبل الطلاب على المحاضر الجديد فى حماس زائد ، وسرعان ما طبقت شهرته العلمية كل الآفاق . وفى سنة ١٥١٠م قام لوثر بزيارة لمدينة روما ، وهناك عن قرب ازدادت قناعته بعبث الطقوس الرومانية الكاثوليكية وتعقدها الشديد ، كما

ازداد سخطه على الجالس على عرش البابوية «ممسكاً في يد بسوط «الحرمان» وفي يد أخرى بشوكة اللعنة» (Excommunication - Anathema) . وفتش لوثر في أروقة الفاتيكان ومجالسه عن خيط «الإيمان» البسيط والفطرى فلم يجد له فيها أثراً ، فقفل عائداً إلى بلاده وهو يتمتم بأن «لا خلاص للنفس إلا من الداخل» .

ولما عاد لوثر إلى وتنبرج فوجئ بوجود مندوب بابوى من جماعة الدومنيكان اسمه تتزال (Tetzal) يبيع صكوك الغفران لمن يتبرع بالمال لبناء كنيسة القديس بطرس فى روما ، بتكليف من البابا ليو العاشر . اشتد غضب لوثر ضد هذا الاتجار الفاضح بالدين ، وابتزاز أموال بسطاء الناس بهذه الطريقة التى لا ترضى رباً ولا عبداً .

وفى ١٧ أكتوبر ١٥١٧م نشر لوثر مقالاً من خمس وتسعين نقطة هاجم فيه «صكوك الغفران» وتحدى من يرغب فى مجادلته فى هذا الأمر فى حوار علنى ، وقد علق هذه النقاط على بوابة كنيسة وتنبرج ليطالعهها الخاص والعام . انزعجت الدوائر الكنسية من تحديات لوثر وتصريحاته ، فدعت إلى عقد مجلس الديايط (Diet) فى أوجزبرج سنة ١٥١٨م لطرح قضية لوثر واللوثريين . واحتدم النزاع طويلاً فى المجلس بين المندوبين البابويين وتنزل وكوجتين من ناحية وبين المتحمسين لآراء لوثر من ناحية أخرى . وفى النهاية قرر الديايط أن يسحب لوثر آراءه عن صكوك الغفران ، وألا يعود للخوض فيها مرة أخرى .

ولكن المسألة بالنسبة للوثر لم تقف عند قضية صكوك الغفران ، إذ كان الرجل متأثراً بآراء جون ويكلف وجون هس وجون ويزل وسافونا رولا فى ضرورة

إصلاح الكنيسة وتطويرها من مفسادها العديدة . وهكذا صعدت المعركة إلى صميم السلطان البابوى ذاته وإلى نظام الكنيسة الرومانية فى كليته . ولقد لقى لوثر تأييداً كبيراً لحملته الإصلاحية ، وعلت أصوات كثيرة تؤيد خطاه وتشد من أزره ، ومن بين الأصوات التى أيدت لوثر صوت واحد من مشاهير الكتاب الساخرين هو أولرخ فون هوتن (Ulrich Von Hutten) الذى نشر مقالاً سنة ١٥١٩م قال فيه : «إن روما تعتمد فى مزاعمها على ثلاثة أشياء : الإمرة البابوية، وعظام القديسين ، وصكوك الغفران ، وهى تخشى ثلاثة أشياء : المجمع الكنسى ، ولفظة الإصلاح ، ويقظة الشعب الألمانى ، وهى تجرم ثلاثة أشياء : الزهد ، والبساطة ، وكلمة الحق» .

وفى سنة ١٥٢٠م نشر لوثر رسالة موجهة إلى نبلاء الأمة الألمانية باللغة الألمانية ثم أتبعها برسالة أخرى بعنوان «الأسر البابلى» باللغة اللاتينية وفى الرسلتين أنكر لوثر مزاعم البابوية فى الإمرة على الكنيسة والوصاية على ضمائر الناس ، وندد بالكهانة وعدم زواج رجال الدين^(١٣٠) ، أما الرسالة الثالثة فقد وجهها إلى البابا ليو العاشر وهى تقول :

« لعلك تدرك الآن أن ما تسمونه بالكيوريا الرومانية إن هى إلا بؤرة فساد تذكر بفساد بابل القديمة وسدوم الماجنة . وإنى أعلنها لك عالية مدوية بأن الناس قد خدعوا طويلاً باسمك وبالقناع الذى تستترون به تحت غطاء الكنيسة الرومانية . ولسوف أظل أقاوم هذا الفساد طالما بقيت حرارة الإيمان تدب فى قلبى » .

بادرت الكنيسة الرومانية بإصدار قرار بالحرمان ضد لوثر «الهرطيق» المتمرد

وذلك فى يوليو ١٥٢٠ م ، ولكن لوثر أعلن أن هذا القرار باطل ، وبأن كاتبه ليس برجل دين وإنما هو : «المسيخ الدجال» (Antichrist) ، ثم أمسك بقرار الحرمان وأشعل فيه النار علانية أمام جماهير غفيرة فى بلدة وتنبرج (١٠ ديسمبر ١٥٢٠ م) . وهكذا أشعل لوثر عاصفة مروعة فى ألمانيا ، قدر لها أن تقتلع الكنيسة الرومانية من جذورها ، ومعها بدأ عصر «المحتجين» (Protestants) الذين سرعان ما نشروا مذهبهم الجديد فى مختلف البلدان الأوروبية .

دعا البابا ليو العاشر الإمبراطور شارلس الخامس لأن يعقد مجلس الديياط فى مدينة ورمز للنظر فى قضية لوثر ، ولكن الإمبراطور ورجاله المقربين كانوا يدركون مدى ما تتمتع به آراء لوثر من رواج لدى الشعب الألمانى وعديد من المفكرين الأحرار فى غرب أوروبا . ويتضح التأييد الذى باتت اللوثرية تتمتع به من شهادة ألياندر (Aleander) المندوب البابوى إلى ألمانيا عندما قال « بأن تسعة أعشار الألمان يهتفون للوثر ، أما العشر الباقى ، وإن كان لا يهتم باللوثرية ، إلا أنه يهتف بسقوط «الكيوريا البابوية» .

رأى المجتمعون فى دياط ورمز (١٥٢١م) استدعاء لوثر للدفاع عن نفسه ، ومع أن البابا احتج على ذلك ، إلا أن الإمبراطور أصر على ظهور لوثر أمام المجلس .

وجاء لوثر إلى ورمز ووقف فى الديياط صلباً شامخاً وهو يدافع عن آرائه ، وبلغ به الإنفعال أن تحدى البابوية والكنيسة الرومانية والإمبراطور شارلس نفسه ، وصاح قائلاً : « لا سلطان علىّ فيما يتصل بكلمة الله وكتابه المقدس » (١٣١) . ولقد غضب الإمبراطور من هذا التحدى السافر لشخصه وقرر المجلس إصدار قرار

بالحرمان ضد لوثر وإحراق كتبه ومقالاته «بسبب مافيه من هرطقة» .

هرب لوثر إلى قلعة وارنبورج فى سكسونيا ليستظل بحماية الأمير فردريك الحكيم . وما من شك فى أن التأيد الذى لقيه لوثر من الأمير الحكيم كان عاملاً أساسياً من عوامل نجاح اللوثرية . فلقد امتاز الأمير برجاجة العقل والاستنارة ورزانة الطبع ، كما أنه كان محباً للآداب والفنون ، وهو أيضاً مؤسس جامعة وتنبرج التى أصبحت معقل اللوثرين ، ففى أروقتها أعلن لوثر لمريديه : «قد أكون إنساناً فظ الطبع ، خشناً ومشاعباً ، عنيفاً كالعاصفة ، ولكن هذا هو طبعى الذى لا يهدأ - لقد ولدت لكى أطاعن جيوشاً من الأبالسة والوحوش النهمه ، ولكى أجتث الجذع والحجر جميعاً ، ولكى أقتلع الشوك والحسك - وهذا هو قدرى» .

شغل الإمبراطور شارلس الخامس فى حروبه المريعة فى أسبانيا مابين أعوام ١٥٢٢ و ١٥٢٩م ، وفى أثناء غيابه انعقد مجلس الديياط من جديد فى نورمبرج (نوفمبر ١٥٢٢م) للنظر مرة أخرى فى أمر لوثر ، على أن المؤتمرين كانوا أقل حدة هذه المرة ، فلم يتخذوا أى قرار جديد ضد لوثر ، ولم يدققوا فى النظر فى مدى تنفيذ قرارات مجلس ورمز السابقة .

انتشرت آراء لوثر الإصلاحية كالنار فى الهشيم ، وهلل المعارضون للكنيسة الرومانية فرحاً ، وأخذ الأحرار يجاهرون بأفكارهم دون خوف . إلا أن محاكم التفتيش كانت تضرب بيد من حديد بعد أن شعرت بأن الأرض باتت تهتز من حولها فى كل مكان ، فلقد حدث أن أحرقت محكمة التفتيش فى بروكسل راهبين من الجماعة الأغسطينية (١٥٢٣م) من رواد الفكر اللوثرى فى الأراضى

المنخفضة . وقد حزن لوثر الحزن كله على هذا الجرم ، فنشر ما عرف وقتها
باسم «مزامير الانتقام» :

« إن رماد أجسادهم لن يبرد أبداً
الريح تحمله من صعيد إلى صعيد
هوذا الصيف يطل علينا
إنقشع برد الشتاء وزمن الجليد
براعم الأزهار تفتحت تحتضن العيد
من تعهد مذهباً استشهد به وهو سعيد
كلمة الحق تلوح فى أفق العهد الجديد
أمين . » (١٣٢)

طالب لوثر برفع وصاية الكنيسة الرومانية عن أعناق الناس وأرواحهم ، وأن
يسمح لرجال الدين بالزواج ، وأن يقام القداس باللغات المحلية بدلاً من اللاتينية،
وأن يكون للمجامع الكنسية كلمة الفصل فى قضايا الكنيسة وليس للبابوية .
وبينما كانت المجادلات مشتتة على قدم وساق فى غرب أوروبا ، كان الإمبراطور
شارلس الخامس يخوض حربه ضد الملك الفرنسى فرانسيس الأول حول مدينة
ميلان ، وقد أحرزت جيوش شارلس انتصاراً حاسماً على الفرنسيين فى موقعة
باثيا سنة ١٥٢٤ م .

وفجأة هب الفلاحون فى ألمانيا على السادة الإقطاعيين لتصفية الحساب
ولتخطيط أغلال القنية الكريهة . والحق أن الفلاحين فى ألمانيا كانوا قد هملوا

فرحاً باللوثرية وتعاليمها فدخلوا تحت لوائها مستبشرين ، إذ وجدوا فيها شفاءً لضغائنهم القديمة ، وتحريراً لهم من قيود الأمير الإقطاعي والأسقف الكنسى ، كما وأن اللوثرية أذكت فى نفوسهم الشعور بالقومية الألمانية .

إندلعت ثورة الفلاحين أول الأمر فى المناطق الشرقية من الراين والدانوب (مايو ١٥٢٤م) ، وطالب الثوار بإلغاء ضريبة العشور ، وبحقهم فى انتخاب رجل الدين ، وبحرية الصيد فى الأنهار والغابات التى كانت حكراً على السادة النبلاء ، وبتخفيض التزامات السخرة التى قصمت ظهور الأبقان . وانتشرت الثورة فعمت معظم أرجاء ألمانيا ، وظهر للشوار زعيم اسمه توماس مونزر (Munzer) ، والذى اتخذ من بلدة مولهاوزن قلعة لمعسكره ، وقد اقترنت ثورة الفلاحين بزعامة مونزر بالكثير من أعمال العنف ، الأمر الذى أفزع مارتن لوثر ، إذ وجد فى تلك الأعمال إساءة كبرى للوثرية نفسها التى كان الفلاحون قد تحمسوا لمبادئها . ولذا فإن لوثر اضطر إلى إدانة أساليب العنف التى تبناها مونزر بشدة .

وهنا لابد من الاعتراف - إنصافاً للحقيقة التاريخية - بأن مارتن لوثر لم يكن شخصية ثورية بالمعنى الدقيق لهذه الصفة ، كما أنه لم يكن ضليعاً فى علوم اللاهوت والفلسفة . وأهم من هذا وذاك أن مارتن لوثر يجسد جميع المتناقضات التى شخصها الشاعر الفذ جوته فى «الدكتور فاوست» : فهو يجمع بين مشاعر اللين والعنف ، الإقبال والإحجام ، الثقة الزائدة بالذات وعدم الشعور بالأمان ، ثم الميل للجدل الصاخب الرنان مع حب للموسيقى الهادئة .

دخلت اللوثرية فى صراع مرير مع الإمبراطور شارل الخامس ، وفى نهاية

المطاف لم يكن هناك مناص من الاعتراف بالأمر الواقع ، ففي ٢٥ سبتمبر ١٥٥٥ م ، وبفضل حكمة الأمير فرديناند شقيق الإمبراطور ، ثم الاعتراف بالبروتستانتية اللوثرية، أى بعد وفاة مارتن لوثر بعشر سنوات . وكان هذا الاعتراف إيذاناً بمولد فجر جديد .

الهوامش

- (١) طيبريوس: كان ابناً للزوجة أغسطس .
- (٢) كاليجيولا: اسمه الأصلي جايوس ، أما كاليجيولا فهي كنية له وتعني صاحب الحذاء الصغير . وكان كاليجيولا مختلاً عقلياً ، وقيل إنه فكر في أن ينعم على حصانه بشرف العضوية في مجلس السيناتو .
- (٣) نيرون : كان ابناً للزوجة الرابعة للإمبراطور كلوديوس ، واسمها أجربينا، وهي التي دست السم لزوجها الإمبراطور كي تضمن العرش لابنها نيرون . وكان نيرون شخصاً منحلاً مخبولاً ومتهوساً بشيطان الشعر والموسيقى ، وكان تلميذاً للفيلسوف سنيكا ولكنه انقلب على أستاذه وقتله .
- (٤) Nagle, Brendan, The Ancient World. PP. 228 ff.
- (٥) Tertulian, De spectaculis, 22 (All Original references in this part are quoted from : Barton, C. A. , The Sorrows of the Ancient Romans, Princeton University Press, 1993, pp11 ff.) .
- (٦) Cyprian, Ad Donatum, 7.
- (٧) Petronius, Satyricon, "uri, vinciri, verberare ferroque necari patior." Seneca, Epistulae, 71,23 .

St. Augustine, Sermones, 20.3 " unusquisque	(٨)
peccator et iniquus iam de se desperans quasi	
gladiatorium animum .. "	
Lucan, Bellum Civile, 2.113-18.	(٩)
Epictetus, Dissertationes, 4 . 1 148 - 9.	(١٠)
Tacitus, Annales, 1 . 7 . 1.	(١١)
Tertulian, De Spectaculis, 21: "Ita mortem homici-	(١٢)
diis consolobantur.."	
Seneca, De ira, 2.8.2.	(١٣)
Seneca, Suaroriae, 6.17	(١٤)
"pro medicinia est dolor dolorem qui nescat"	(١٥)
Petronius, Satyricon. 111 - 112.	(١٦)
Lucan, Bellum Civile, 1. 109 - 110.	(١٧)
Ovid, Metamorphoses, 8. 738.78.	(١٨)
Petronius, Satyricon, 119 - 1. 3.	(١٩)
Suetonius, Vite Iliuas, 13.	(٢٠)
Suetonius, Gaius, 22 - 4 .	(٢١)
Suetonius, Ibid 31.	(٢٢)
Seneca, Medea, 426, Naturales quaestiones, 6.	(٢٣)
29 : " Si cadendum est, cadam orbe concusso " .	

- Seneca, De ira, 3. 18. (٢٤)
- Plutarch, Antonius. (٢٥)
- Petronius, Satyricon, 120 . 84 : " Ipsa suas vires odit (٢٦)
Romana iuventus" .
- Suetonius, Claudius, 21.1 ; "Ludos quos nec spectasset (٢٧)
quisquam nec spectaturus esset".
- Macrobius, Saturnalia, 2,7,2. (٢٨)
- Seneca, Epistulae, 47. 4 - 5. (٢٩)
- Dio Cassius 62. 12. (٣٠)
- الرواقية مدرسة تأسست فى أثينا سنة ٣١٥ ق.م على يد الفيلسوف (٣١)
زينون من مواطنى جزيرة قبرص . ولقد اتخذت اسمها من حقيقة أن
مؤسسها كان يستخدم الرواق كمدرسة لتعليم مبادئ فلسفته . الكون
عند زينون سرمدى ، دورات لا تنتهى ، وكل حلقة فى هذه الدورات
المتعاقبة تستوعب فى مداها فى السر الإلهى . وقد نادى زينون بأن
أفضل غايات الإنسان أن يحيا فى انسجام مع الطبيعة ولكى يحقق هذا
الانسجام عليه أن يحيا حياة فاضلة ، لأن الفضيلة هى مشيئة الله ،
كما وأن السلوك الفاضل يولد السعادة . ونادى الرواقيون أيضاً بالأخوة
بين البشر أجمعين ، دون تمايز بين إغريقى ومتبربر ، بين حر أو عبد .
- Eusebius, Ecclesiastical History, VIII, 2 - 15. (٣٢)
- مرسوم ميلان فى حقيقة الأمر كان مجرد رسالة موجهة من قسطنطين (٣٣)

وحليفه وفي نفس الوقت زوج أخته ليسنيوس إلى حاكم
نيقوميديا في آسيا الصغرى لإبلاغه باعتراف الحليفين المنتصرين
على أعدائهما بالديانة المسيحية جنبا إلى جنب مع الديانة الوثنية

Eusebius, Vita Constantini (Schaff's ed.), X, 5.3.

(٣٤) على عبدالواحد وافي - المقدمة - ج ١ - ص ٣٠٠ ، ٧١٦ ، ٧٢٠ .

(٣٥) Hegel, G. W. F., Lecons sur la philosophie de l'Histoire (trad. Par J. Gibelin, Paris, 1967 , pp.20 ff.

(٣٦) إسحق عبيد ، معرفة الماضي من هيرودوت إلى توينبي ، دار المعارف ، ١٩٧٨ ، ص ص : ٨٥ - ٨٨ .

(٣٧) Toynbee, A. A study of History, Vo IV , p. 132:

"Neitehr do men put new wine into old bottles, else the bottles break and wine reunneth out and the bottles perish; but they put new wine into new bottles, and both are preserved,"

(٣٨) Cesar, de bello Gallico, 22.5, IV 1.

(٣٩) Seneca, De ira, Lib., 10 , pp. 132 - 134 ; Tacitus, Germania XXII , 4.

(٤٠) Elius Aristides, Discour (ed. Keil), Berlin, 1928, Vol.

Besnier, L'Empire Romanian de l'avenement de Severes au concile de Nicee, Paris, 1937, p. 176. (٤١)

المذهب الأريوسى نسبة إلى الكاهن السكندرى أريوس الذى نادى بأن المسيح من جوهر غير مساو لجوهر الأب ، ومن ثم فإن ناسوته يغلب على لاهوته . وقد أدين هذا المذهب بفضل جهود أثناسيوس السكندرى سنة ٣٢٥م فى مجمع نيقيا المسكونى وتأييد الإمبراطور قسطنطين الكبير له ، ولكن خلفاء قسطنطين الكبير إنحازوا إلى الأريوسية ، التى ظلت سمة من سمات الشعوب الجرمانية فى أغلبها . (٤٢)

Ammianus Marcellinus, Res Gestae, xxx1, 4 - 8, 111: " Proinde permissu imperatoris, transeundi Danubium copiam, colendique adepti Thraciae partes... Ita turbido instantium studio orbis Romani pernicies ducebatur.." (٤٣)

Themisticus, Oratio (ed Petau), Paris, 1684, I, X. (٤٤)

Courcelle, P. Histoire literaire des grandes invasions Germaniques. p.21. (٤٥)

Ambrose, Expositio, X, 10: "Quanta enim proelia et quasopiniones accepimus proeliorum ? Chuni in (٤٦)

Alanos, Haleni in Gothos, Gothi in Taifalos et Sarmatias ..."

Rufinus, *Historia ecclesiastica*; Orosius, *Historia*; (٤٧)

Jordanes, *Getica*.

Boissier, G., *La Fin du Paganisme*, Paris, 1891, t. (٤٨)

II. pp26 - 42.

Ambrose, *De officiis*, in P. L. Vol. XVI. p. 121 ff. (٤٩)

Zosimus, *Historia*, v, 6, p. 253. (٥٠)

Jerome, *Epistula ad Heliod*, Lx, 16 (ed. Labourt), (٥١)

t. III, p. 106: " Viginti et eo amplius anni sunt, quod inter Constantinopolim et Alpes iulias, cotidie Romanus sanguis effunditur ..."

حقيقة الأمر أن الإمبراطور جوليان الملقب بالمرتد (٣٦١ - (٥٢)

٣٦٣م) قد قتل بسهم أثنا حربه ضد الفرس ، ولكن أتباعه روجوا لرواية مقتله على أيدي المسيحيين لإذكاء روح العداوة بين أنصار الدين الجديد وأتباع التقاليد الوثنية القديمة . وجوليان هذا كان فيلسوفاً مرموقاً وزاهداً من الطراز الأول ، وقد كان متسامحاً مع الجميع ، وقد نهل العلوم الفلسفية على يد أستاذه ليبانيوس .

See: Libanius, *Oratio* (ed. Forester), xx1v, 1 - 5 .

Synesius, Peri Basileias, in, P.G., vol.66. (٥٣)

راجع النص الكامل مترجماً إلى العربية عند : إسحق عبيد : من آلارك
إلى جستنيان . دار المعارف ١٩٧٧ ، ص ص ١٧٥ - ٢٩٠ .

Claudian, de bello Getico (Loeb Classical Library) . (٥٤)

London, 1952, vs. 206 - 226.

Jerome, in Dan., 11, 40, In, P. L., vol. xxvi, 504. (٥٥)

Rutilius Namatianus, de reditu suo (ed - Vessereau) , (٥٦)

paris, 1983, vs. 41 - 61 .

Zosimus, Historia, 40 , 304. (٥٧)

Jerome, Epistula ad Agercuchiam (Les Belles Lettres) (٥٨)

,t. VII, PP. 91 - 94 .

Codex Theodosianus, VII, 16.2 (ed Mommsen) , I, P . (٥٩)

342.

Jerome, Epistula ad Principiam, (Les Belles Letters) , t. (٦٠)

VII pp . 146 - 148.

راجع ترجمة النص الكامل لهذه الرسالة في ملاحق : « من آلارك
إلى جستنيان » ص ٢٧١ - ٢٧٤ .

Procopius, De bello Vandalico, (ed J. Haury), Munich, (٦١)

1913, 1,2.

Augustine, Civitas Dei, (Loeb Classical Library), Lon- (٦٢)

- don, 1965,1,16,3.
- Ammianus Marcellinus, *Res Gestae*, III, XXX1, (٦٣)
 11,2 - 11, PP. 381 - 387 : .. et deliberatione super
 rebus proposita seriis, hoc hsbitu omnes in com-
 mune consultat...
- Priscus, *Excerpta de legationibus Romanorum* (٦٤)
 (ed. Bekker) . in C. S. H. B. ,PP. 190 - 195 .
- Suidas, *Mediolanon* (ed. A. Adler), Vol. 1,3, Pp. (٦٥)
 346, 349.
- Codex Theaodosianus, IX, 40, 24 . (٦٦)
- Jordanes, *Getica* (ed. T. Mommsen), in M . G . (٦٧)
 H., V.
- Le Gall, J., *L"itinerarie de Genseric*, P. 268 . (٦٨)
- Possidius, *Vita Augistini*, In P . I. Vol ., xxx 11 , 58 (٦٩)
 Ibid. (٧٠)
- Leo the Great, *Epistulae*, in P. L., Vol,IIv,653. (٧١)
- Victor de Vita, *Historia Persecutionis Africanae* (٧٢)
Provinciae, (ed., M. Petschenig) , 1, 26.
- Liber Pontificalis, *Vita Leonis*, 66. (٧٣)
- Victor de vita, *Historia*, I, 26 . (٧٤)

Procopius, De bello Vandalico, 1,5. (٧٥)

Painter, S., A History of the Middle Ages (284 - 1500) , London, 1966, pp. 89 ff . (٧٦)

كان الكونت يود صاحب أقطاينا على علاقة طيبة مع عرب اسبانيا ، وقد عقد إتفاقاً مع القائد العربى عثمان وزوجه إبنته ، على أنه عندما وقع خلاف بين عثمان هذا وبين الأمير عبد الرحمن الغافقى قام الأخير بإلغاء هذا الاتفاق ، ومن ثم فإن الكونت يود شعر بالخطر يتهدده فاستنجد بكارل مارتل الفرنجى . (٧٧)

".. unde ut pontificalis apex non vilescat sed magis quam terreni imperii dignitas, et gloria et potentie decoretur, ecce tam palatiam nostrum quamque Ronanorum urbem et omnes Italiae et occidentalim regionem provincias, loca et civitates, praefato beatissimo papae Sylvestro universsali papae contradimus atque relinquimus..." (٧٨)

راجع النص الكامل للوثيقة فى : اسحق عبيد : الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية - دار المعارف ١٩٧٧ .

M. G. H. SS. , Annales Regni Francorum : " Ipsa die sacratissima natalis Domini cum Rex ad mis- (٧٩)

sam ante confessionem beati Petri apostoli ab oratione surget, Leo papa coronam capiti eius imposuit, et a cuncto Romanorum populo adclamantum est : " Karlo Augusto a Deo caronato, magno et pacifico Imperatori Romanorum, vita et victoria. " Einhard, vita Karoli magni, In S. R. G., in usum Scholarum .

P. L., Vol, C., 301 - 303 : " .. tu vindex scelerum, tu rector errantium, tu consolatro morentium, tu exaltatio bonorum. "

(٨٠)

Paulus Diaconus, Historia Longobardorum, 1, v, c. 33.

(٨١)

Longobar- يلاحظ أن كلمة «لومبارد» هي اختصار للفظـة dorum أى أصحاب اللحية الطويلة .

Monumenta Gregoriana (ed. P. Jaffe), Berlin, 1865, PP. 174 - 176 : " Quod Romana esclesia a solo domino sit fundata ... Quod solus Romanus Pontifex iure dicatur universalis ... etc. "

(٨٢)

اسحق عبيد - روما وبيزنطة ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٨٣)

- Painter, S., A History of the Middle Ages, London, (٨٤)
, 1966, pp. 402 ff.
- Black Book of the Exchequer, (ed. Hearne) , pp. (٨٥)
43 - 59 .
- Haskins, C. H., Norman Institutions, Cambridge, (٨٦)
Mass., I, 1918 (Harvard Historical Studies, xxiv
p. 63) .
- "Men resemble their own times more than they do (٨٧)
their fathers. "
- " Se me sire est ochis, je voeil estre tues, el se il (٨٨)
est perdu avec il me pendés , se il est ars en feu,
je voeil estre brulés, et se il est noîré, avec il me
getés . "
- Couronnement de Louis " . (٨٩)
- " Là tous Jurerent le serment . Tel le jura, qui le
tint bravement; Tel aussi , qui ne le tint point du
tout'.
- Bloch, M., Feudal Society (trans by L. A Manyon) (٩٠)
London 1961, p. 286.
- La chanson de Guillaume (ed .Mc Millan), vs. 1o (٩١)

seq : " Par Deu, bel sire, cist est de votre line, Et
si mangue un grant braun porcin, Et a dous traitz
beit un cester de vin , Ben dure guere deil il ren-
dre a sun veisin . "

For Examples : Olivier, Pelerinage de Charle- (٩٢)
magne; Girart de Roucillon, La mort de Garin;
Lancelot, In the " Arthurian Romances. "

Chronicon Petroburgense, (ed . Stapleton), Liber (٩٣)
Niger, 1, p. 157.

Lane - Pole, A., From Domesday Book to Magna (٩٤)
Carta, Oxford, 1955, p.52.

Walter of Henley , Treatise on Husbundry, p. 27. (٩٥)

Vinogradoff, P., Villeinage, p. 357. (٩٦)

Gurevich, A., Medieval popular Culture, Cam- (٩٧)
bridge, 1992, Passim.

Ibid, p. 12. (٩٨)

Idem. (٩٩)

Froissart, "mais entre autres désordonnances et (١٠٠)
villains faits, ils tuerent un chevalier et bouturent
en une broche, et le tournerent au feu, et le rotir-

ent devant la dame et ses enfants. Après ce que dix ou douze eurent la dame efforcée et violée, il les en voulurent faire manger et par force".

Luce, S., Histoire de la Jacquerie, 1894.

(۱ • ۱)

Statutes of Realm, II, p. 2 : "The lords of manors, as well men of Holy Church as other, complain that the villeins on their estates affirm them to be quit and utterly discharged of all manner of serfage ... and which more is, gather themselves in great routs and agree by such confederacy that any one shall aid other to resist their lords with strong hands" .

(۱ • ۲)

Owst, G. R. , Literature and Pulpit in Medieval England, 1937.

(۱ • ۳)

There is reference to these incidents in Chaucer's Canterbury Tale "Nun's Priest's Tale: "Certes Jack Straw and his meinie, Ne maden never shoutes half so shrille, when that they wolden any Fleming kille .."

(۱ • ۴)

Lea, H. C. Histoire, de l'Inquisition au Moyen Age

(۱ • ۵)

- (French Trans.) Paris, 1900 - 1902, Vol. I. pp. 12 - 20.
- Ibid., p. 51: "Al papa , ad egli respondena coppe, E mandana indulgenze per gli altari".
- Petri monachi coenobii valium Cernaii Historia Albigenium, In P. L., Vol. 213, cols, 543 - 742.
- Qouted fom Lea, op cit., : "No aias merce de la carn nada de corruptio, mais merce de l'esperit pousat en carrcer" .
- إسحق عبيد - محاكم التفتيش - دار المعارف ١٩٧٨ ، ص ٢٣ .
- Mansi, Sacrorum Conciliorum, Vol., xxII, 477 B.
- Chronicon Universale anonymi Laudunensis (ed. Carterllier), Paris, 1909, pp. 20 - 22 .
- Detallis, Ch. Petit. La monarchie Feodale en France et en Angleterre, Paris, 1933 , pp. 308 ff.
- Conc. Viennense (1311 - 1312 A. D.), in Symbolorum. pp. 207 - 208: " Qoud illi, qui sunt in praedicto gradu perfectionis et spiritu libertatis, non sunt humanae subjecti obedientiae, nec ad aliqua praecepta ecclesiae obligantur, qui ubi spiritus Domini,

(١٠٦)

(١٠٧)

(١٠٨)

(١٠٩)

(١١٠)

(١١١)

(١١٢)

(١١٣)

ibi libertas".

Infessura, *Diaria rerum romanorum*. 1890, p. 288: (114)

"..non solus in leto dormivaret."

Infessura, op. cit., Loc. cit. - See also : Portigliotti, (115)

G., *les Borgia* (traduit de l'italien par Ferrand Haynard, Paris, 1927, pp. 65 - 69.

Portigliotti, op. cit., p. 125 . (116)

Delisle, L., *Catalogue de Actes de Philippe Auguste*, Paris, 1856. p. 53. (117)

Guirrand, J. H., *Histoire de L'Inquisition au Moyen Age*, Paris, 1935, p. 61. (118)

Havet, J., *l'heresie et le bras seculier au moyen age*, Paris, 1880, p. 595. (119)

"Qui le baptesme refusait, Ne en Dieu croire ne voloit, Floire le faisoit escorchier, Ardoir en fu ou destrenchir." (120)

Hume, M.A.S., *Spain, its greatness and decay*, Cambridge, 1913, p. 18. (121)

Ibid., p. 130. (122)

Ibid., p. 142. (123)

- Froude, J. A., Lectures on the Council of Trent. (١٢٤)
 London, 1914.
- Hume, op. cit., p. 249. (١٢٥)
- Lea, op. Cit., IV, p. 524. (١٢٦)
- إسحق عبيد - محاكم التفتيش ، ص ٨٣ . (١٢٧)
- Sismondi, J.C.L. History of the Italian Republics. (١٢٨)
 London, 1907, pp. 256 ff.
- Atkinson, J., Martin Luther and the Birth of Pro- (١٢٩)
 testantism, 1968, Passim.
- Symbolorum, pp. 257 - 260 (Damnanti in Bulla (١٣٠)
 "Exsurge Domine", 15 june 1520, Pontificate of
 Leo x (1513 - 1521) : "Certum est, in manu eccle-
 siae aut Papae prorsus non esse statuere articu-
 los fidei, immo nec leges morum seu bonorum
 operum .. "
- "Ich Kann nicht anders." (١٣١)
- Atkinson, op. cit., loc. cit. (١٣٢)

**** ** ***